

الدكتور عيسى عبده
أحمد إسماعيل يحيى

حقيقة الإنسان

الكتاب الثانى



دار المعارف

الدكتور عيسى عبده
أحمد إسماعيل يحيى

حقيقة الإنسان

الكتاب الثاني

”وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي“
قرآن كريم

الطبعة الثانية



دار المعارف

فهرس الكتاب

صفحة

١١	مقدمة : الإنسان : ذلك العالم الخفى
١٧	مدخل :
٢٣	الباب الأول : فكرة الروح منذ فجر التاريخ
٢٥	- عجالة عن الروح عند الأقدمين
٢٩	- فكرة الروح عند الإنسان البدائى
٣٢	- من فكرة وجود الروح إلى خلود الروح
٣٤	- اعتقاد خلود الروح ينحرف إلى التعبد لأرواح الأجداد
٣٦	- الاعتقاد فى وجود الأرواح يمتد إلى الجمادات
٤٠	- الروح عند الفراعنة
٤٦	- الحياة الآخرة والنفس عند الفراعنة
٥١	- الروح عند الهندوس
٥٥	- الروح عند الصين واليابان - الكونفوشيوسية والبوذية ..
٦٧	- النفس ، خلودها ، وتناسخ الأرواح عند البراهمة
٧٢	- الروح عند الإغريق
٧٨	- الروح فى العقيدتين الموسوية والمسيحية
٨٣	الباب الثانى : الروح فى الفكر العربى والإسلامى
٨٥	- الروح فى الفكر الإسلامى

صفحة

- موعظة قس بن ساعدة الإيادى قبل الإسلام ٨٦
- ومن قصيدة النفس .. للرئيس ابن سينا ٨٨
- النفس .. من قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى ٨٩
- الروح عند عدد من مفكرى المسلمين ٩٢
- ١ - الفارابى ٩٢
- ٢ - ابن سينا ٩٣
- ٣ - الغزالى ٩٤
- ٤ - ابن رشد ٩٧
- ٥ - الرازى ٩٩
- الروح والنفس ورأى بعض الصوفية ١٠١
- ١ - القشبرى ١٠١
- ٢ - الجرجانى ١٠٢
- ٣ - ابن الفارض ١٠٣
- حقيقة الإنسان ١٠٨
- الباب الثالث : يسألونك عن الروح ١١٩
- يسألونك عن الروح ١٢١
- مادة روح : فى القرآن الكريم ١٢٢
- معنى كلمة الروح فى القرآن الكريم ١٢٦
- الروح فى الأحاديث النبوية وكتب السلف ١٢٩
- مادة روح : فى معاجم اللغة العربية ومعاجم القرآن .. ١٣٣
- ١ - فى إصلاح الوجوه والنظائر ١٣٥

صفحة

- ٢- فى القاموس المحيط ١٣٦
- ٣- فى مختار الصحاح ١٣٦
- ٤- فى المصباح المنير ١٣٦
- ٥- فى معجم ألفاظ القرآن الكريم ١٣٧
- الباب الرابع : الروح من نفختها إلى مستقرها ١٤١
- مراتب الروح ١٤٣
- أنواع تعلقها بالبدن ١٤٣
- هل الروح قديمة أو محدثة ؟ ١٤٨
- الدلائل على خلق الروح ١٤٨
- هل الروح ذات قائمة بنفسها ؟ ١٥٥
- هل الروح جسد أو لا ؟ ١٥٨
- جسمية الروح وتحيزها ١٦٠
- هل سبقت الأجساد الأرواح أو العكس ؟ ١٦٥
- هل الروح سبب الحياة ؟ ١٦٧
- هل تموت الروح أو لا ؟ ١٦٩
- الروح بعد مفارقتها للجسد ١٧٣
- السؤال فى القبر ١٧٥
- مستقر الأرواح ١٧٧
- الباب الخامس : الروح فى فكر بعض المحدثين ١٨١
- أقوال المحدثين ١٨٣
- رأى المرحوم الدكتور/ عبد الحلیم محمود ١٨٥

صفحة

١٨٦	- رأى المرحوم الكاتب / عباس محمود العقاد
١٨٧	- المؤلفان
١٨٨	- الماديون والروح
١٩٢	- الروح والنفس والعقل
١٩٣	- تحضير الأرواح
١٩٤	- الروح : اصطلاحات ومعان
١٩٩	- الباب السادس : الروح والنشاط الروحي
٢٠١	- الجمعيات الروحية
٢٠٥	- أربع مقالات هامة
٢١٤	- مصر والاهتمام بالنشاط الروحي
٢١٦	- الروح تحت مجهر الطب
٢٢٠	- ونحن نقول
٢٢٥	- الباب السابع : بعض مسائل في عالم الروح
٢٢٧	- الروح القدس (الوحي)
٢٢٩	- المعجزات والكرامات
٢٣١	- الإسراء والمعراج
٢٤٦	- حقيقة النبوة
٢٥٢	- الرؤيا
٢٥٥	- رياضة المتصوفة
٢٥٧	- بهاليل المريدين
٢٥٨	- السحر

صفحة

٢٦٢	- الكهانة
٢٦٥	- العرافون
٢٧٠	- المنجمون
٢٧٣	- حساب الحروف وعلم اليازوجة
٢٧٦	- الحسد
٢٨٢	- التنويم
٢٨٣	- العلاج النفسى بالإيحاء والتنويم
٢٨٥	- خاتمة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

(٨٥ / الإسراء)

والروح أرضية في رأى طائفة وعند قوم ترقى في السماوات
تمضى إلى هيئة الشخص الذى سكنت فيه إلى دار نعمى أو شقاوات
وكونها في صفيح الجسم أحوجها إلى ملابس عنتها وأقوات
(المعرى)

مقدمة

الإنسان : ذلك العالم الخفى

يحقق العقل فى كل يوم وثبة رائعة من وثباته العلمية .. فى عصرنا هذا .. أصبحنا نلمس ونرى أن ما كنا نعتبره منذ سنوات قليلة مضت ، محض خيال كاتب ، أو مجرد تصورات فنان ، أو حتى أوهام إنسان مجنون ، قد أضحي حقيقة تطوف فوق رؤوسنا ، كسفن الفضاء أو تنقل إلينا العالم فى مساكنتنا كالتليفزيون الملون ، أو تقتحم أجسامنا كعدسات التصوير الطبية ، التى أصبحت من الدقة والرقّة بحيث يمكنها أن تنقل للطبيب صورة عن الأعضاء والأمعاء من داخل الإنسان وبغير جراحة ... وهى وثبات سريعة لم يصل الإنسان إلى مثلها خلال أحقاب طويلة من تاريخه الحضارى . لكن هذه الوثبات بدلا من أن تحقق للإنسان الرضا بما لديه أو القناعة العلمية .. فإنها زادت شهوة عقله سعاراً إلى المعرفة ، وشجعتة على محاولة اقتحام المجهول فى ميادين عديدة جديدة .. فهو لا يقنط ، بل يحاول فى كل يوم أن يتخطى الحواجز وأن يفك الطلاسم ، يدفعه إلى ذلك ما رُكّب فيه من استعداد للمعرفة ، وما فُطر عليه من حب الاستطلاع ، ذلك برغم درايته بوعورة المسالك وبُعْد المدارك .

والإنسان فى سعيه الدائب للمعرفة يطرق بفكره كل باب .. حتى عنّ له أن يطرق ذلك الباب الذى يفتح على ذات الإنسان بجسمه وروحه وعقله ونفسه ،

لم يثنه عن عزمه علمه أن الإنسان ليس أحد الأشياء التي يمكن القول بسهولة أنها مما يقع تحت أيدينا أو مما تتناول مداركنا أغواره ، ولم يوهن من إرادته أنه حتى لو وقع الإنسان تحت يدنا .. فإن اليد لا يمكنها إلا الإمساك بالجلّ دون الكلّ ، ولم يلجئه إلى القنوط قول البعض :

« إن منتهى العلم بالإنسان ، هو أن نعتزف بجهلنا به وعجزنا عن معرفته ، ويكفي القول أننا حين عجزنا ، فإننا عَجَزْنَا عن دراسة (خليفة الله في أرضه) » .

ونحن لسنا مع من يدفعه غروره العلمي إلى القول بأنه قد أحاط بكل شيء عن الإنسان علماً ، أو أنه قد أحصى شرايينه وخلاياه عدداً .. كذلك فإننا لسنا مع من يعدون عن البحث عجزاً وعياً .. أو من ينادون بأن الإنسان لا بد وأن يبقى عالمًا مجهولاً لا يصح ارتياده .. وهو ما يخالف تماماً ما ينادى به علماء الغرب الذين حاولوا وما زالوا يحاولون إدخال الروح البشرية تحت سلطان تصرفهم المادى بتجارب يتخيلون بها إمكان استحضار الروح ومخاطبتها . بل تصويرها .

وفي رأينا : أن الإنسان قضية من أعظم القضايا .. وأنه على قدر عظمتها ينبغي أن يكون الجهد المبذول لمعرفة عظمتها ، وإلا كان نصيبنا من المعرفة متواضعاً على قدر جهدنا المتواضع .. فبديهي أن من يكتفي بإلقاء شبابه على الشاطئ لا يعود إلا بالبحار والأصداف ، أما الذي يغوص في الأعماق فلا بد أن يكون غالى الدرّ والآلى ، صيده .

القضية إذن عظيمة وعميقة ولا بد للباحث عن معرفتها أن يسعى وأن يجهد عقله .. برغم أنه قد يصيب من عنائه الجُلّ لا الكلّ .. وما الجُلّ في معرفة الإنسان بالشئ القليل ، ولأننا نعرف ذلك يقيناً ، فإننا نبدأ رحلتنا في هذا

الكتاب يصاحبنا إيماننا بأن الله لا يساوى بين الباحثين والقاعدين ، أو بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ..

وفي هذا نقتدى بسلفنا الصالح ، الذين طالما شمروا عن سواعد البحث والمعرفة وتحملوا جسيم المشاق ومُضْنَى الجهد ، يخوضون حتى الأعماق في كل موضوع يروونه جديراً بالدراسة .. يجتهدون بغير ملل ، ويواصلون الليل بالنهار دون كلل ، حتى يفتحوا لنا من العلم باباً جديداً .

وإذا كانت دراسة الإنسان مضية فإن جانب الروح هو أكثر الجوانب فيه غموضاً وأشدّها خفاء .. برغم أنه في ذات الوقت أكثر الجوانب إغراء بدراسته ومعرفته .. وحتى هذا الجانب لم يهمله السلف الصالح أو يتناساه العلماء .. بل إنهم رحمهم الله ، قد تركوا لنا في نفيس مخطوطاتهم ومفيد كتبهم ما يبهنا ، حتى اليوم ولسنوات قادمة بسبق المعرفة وحسن العرض والمعالجة .

ومن بين الكتب على سبيل المثال رسالة^(١) للإمام جلال الدين الدَوَّانِي تستحق كل اعتبار وفي مقدمتها يقول الشيخ محمد زاهد الكوثري (وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية) :

وغاية علمنا .. أن حقيقة الإنسان لها ناحيتان :

ناحية الهيكل الجسماني : وهو بطبعه يتهافت على الملذات السفلية .

وناحية الروح : وهى لطيفة ربانية نزاعة إلى المعالي .

وتعجز أكثر العقول عن إدراك حقيقة الروح .. ذلك الأمر الرباني

(١) رسالة مخطوطة بعنوان « حقيقة الإنسان والروح الجوال في العالم ، للإمام العلامة جلال الدين محمد بن سعد الدين أسعد الصديق الدواني المتوفى سنة ٩٠٨ هـ ، وقد عرف الكتاب وترجم للمؤلف وعلق عليه مولانا الأستاذ المحقق الكبير محمد زاهد بن الحسن الكوثري وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً .

العجيب .. وللروح والنفس والعقل إطلاقات في اصطلاحات أهل العلم قد تتلاقى وقد تتفارق .. وقد عنى الغزالي في عجائب القلب بشرح تلك الاصطلاحات، كما عنى بها الفارابي وابن سينا وابن رشد والرازي وغيرهم. ويتدرج بنو الإنسان في منازل متفاوتة في صلتهم بالناحيتين فمن تغلب عليه الانهباك في ملاذه الجسدية فهو ملحق بالأنعام. قال الله تعالى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

ومن خلص من سلطان الملائد الجسدية وغلب عليه جانب تلك اللطيفة الربانية ، فهو ملحق بالملائكة على مدارج متصاعدة ، ومن تجاذبه الجانبان من غير أن يتغلب فيه أحد الجانبين على الآخر ، فهو المجاهد لنفسه وقد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ..

وتمضى بنا الرسالة أو نمضى معها لتتعلم منها الكثير والكثير .. وسوف نعرض عليك الرسالة كاملة في الباب الثاني من هذا الكتاب .. لثؤكد بها رأينا في سبق معرفة علماء السلف وحسن معالجتهم ، وقد اختلف أهل العلم في تعريف الروح .. وهل هو جسم لطيف يحل في الجسم الكثيف الإنساني . - وهو مذهب الجمهور - أو هو جوهر لا مكاني مجرد لا يوصف بالحلول والدخول ، ولا بالخروج والانفصال بل يوصف بالتعلق .. تعلق تدبير .. والناس في تفهم ذلك على أنحاء :

فالعامى لا يتصور موجوداً كهذا .. أما الخاصة فلا ينكرونه وإن دقت مداركه ، ولهم في تجرد الروح أدلة ليس الجمهور على قبولها .
ومن مال إلى تجرد الروح : أبو منصور الماتريدي ، والحليمي (صاحب شعب الإيمان) ، والراغب الأصفهاني ، والغزالي ، والرازي ، والبيضاوي ، وغيرهم من صفوة علماء المسلمين المجتهدين .. كذا البطلوسي في الحقائق ..

نفعنا الله بعلمهم آمين ..

ولكننا في هذا الكتاب سوف لا نقتصر على رأى العلماء فقط .. وسوف
ترى كلما ارتحلت مع الصفحات كيف كان الجهد عظيماً .. وأن ما أنجزناه في
الكتاب كان بعون الله وتوفيقه لا بهمة الإنسان وذكائه .
فإن أصبنا فمن عند الله وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا .. والله هو الموفق .

المؤلفان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

ليس بين المسائل مسألة معضلة شغلت الإنسان منذ فجر التاريخ ، وستظل تشغله حتى ما بعد الآن .. مثل مسألة الروح .. والإنسان لا يفتأ في كل يوم يحاول أن يمسك بخيوط معرفتها ، بكل الوسائل والأدوات ، وبكل الحواس وعيون النظر .. يعمل آناء الليل وأطراف النهار جاهداً أن يلحق بها ، كما لحق بغيرها ممّا كان مغيباً عنه ، فأصبح ملك يديه مسخراً له كيف شاء ، كتسخير الفضاء ، والاستفادة من الكهرباء .. ولكن ما هكذا أمره مع الروح .. فما بال هذه المسألة تزداد في كل يوم غموضاً عليه ؟؟ وما باله كلما ظن أنه ظفر بها أو حتى اقترب منها أفاق من وهمه ، فإذا هو حيث كان وإذا هي تُحْمَلَق فيه متحدية ؟ تؤكد له أن القرآن الكريم قد وصفها بأنها ليست مما يقع تحت يد الإنسان كغيرها ، بل هي جوهر من أمر الله لا من أمر البشر .. وأن علم الإنسان بها مهما عظم فهو قليل ، حتى سئل الرسول ﷺ عن الروح تحدياً له ، وإرهاقاً من ما كرى اليهود فقال لهم أخبركم غداً .. حتى جاءه الوحي بعد مدة ليعلمه الآية : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

فلو أن الروح كان من الأمور السهلة ، لما كان أحد الأسئلة المتحدية للرسول

من ما كرى المشركين اليهود « مع ضرورة علمنا أن اليهود ما كانوا ليسلموا ، حتى لو كشف الله لرسوله ، ﷺ ، عن أسرار الروح » .

ولكن هذا الغموض طالما دفع العلماء والباحثين أكثر مما أُناسهم .. إلى استيكتناه حقيقة الروح .. وذلك لسبق علمهم أن الله ، سبحانه وتعالى ، قد كلف المؤمنين من عباده باستمرار البحث والنظر والمعرفة .. كذلك هم يعلمون أن كل علم لديهم مهما تفرعت أصوله وتشعبت فروعه ، هو على كثرته قليل إذا ما فكرنا في مقارنته بعلم الله .. فسبحان العالم المحيط بكل شيء .

ومن هنا نجدهم وقد أمسكوا بعضا التقوى يستدلون بها على طريق معرفة الروح .. (اتقوا الله ويعلمكم الله) وكلما تزودوا بالتقوى علمهم الله من علمه ما لم يكونوا يعلمون .

وفي موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية^(١) :

« اختلفوا في المراد من الروح المذكور في قوله تعالى : (قل الروح من أمرى) على أقوال : ف قيل : المراد به - ما هو سبب الحياة - وقيل : القرآن . يدل عليه قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) . وأيضاً فبالقرآن تحصيل حياة الأرواح وهى معرفة الله تعالى . وقيل : جبرائيل . لقوله : (نزل به الروح الأمين . على قلبك) وقيل : ملك من ملكوت السموات هو أعظمهم قدراً وقوة ، وهو المراد من قوله تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ... كذا في التفسير الكبير للرازي .

وقيل : الروح خلق ليسوا بالملائكة على صورة بنى آدم يأكلون ، ولهم أيد

(١) المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون للشيخ المولوى محمد أعل بن على التهانوى المتوفى في القرن الثانى عشر الهجرى جزء ٢ - خياط - بيروت . ص ٥٤٥ وما بعدها .

وأرجل ورءوس وهم يشبهون الناس وليسوا منهم ، قالها أبو صالح ، قال الإمام الرازى فى التفسير الكبير ، ولم أجد فى القرآن ولا فى الأخبار الصحيحة شيئاً يمكن التمسك به فى إثبات هذا القول ، وأيضاً فهذا شىء مجهول فيبعد صرف هذا السؤال إليه .

قال صاحب الإنسان الكامل : الملك المسمى بالروح هو المسمى فى اصطلاح الصوفية بالحق المخلوق به ، والحقيقة المحمدية نظر الله تعالى إلى هذا الملك بما نظره بنفسه ، فخلقه من نوره ، وخلق العالم منه ، وجعله محل نظره من العالم ، ومن أسمائه أمر الله .. هو أشرف الموجودات وأعلاها مكانة وأسمائها منزلة ، ليس فوقه ملك هو سيد المرسلين وأفضل المكرمين .

اعلم أن الله تعالى خلق هذا الملك مرآة لذاته ، لا يظهر الله تعالى بذاته إلا فى هذا الملك ، وظهوره فى جميع المخلوقات إنما هو بصفاته ، فهو قطب الدنيا والآخرة ، وأهل الجنة والنار والأعراف ، اقتضت الحقيقة الإلهية فى علم الله سبحانه ، ألا يخلق شيئاً إلا ولهذا الملك فيه وجه ، يدور ذلك المخلوق على وجهه ، فهو قطبه ، لا يتعرف هذا الملك إلى أحد من خلق الله إلا للإنسان الكامل ، فإذا عرفه الولي علمه أشياء ، فإذا تحقق بها صار قطباً تدور عليه رضى الوجود جميعه ، وهو قائم فى عبوديته الحق متصرف فى تلك الحضرة الإلهية بما أمره الله به .. » انتهى ما جاء فى الموسوعة .

وهكذا .. وهكذا .. نلجذ التعريفات شتى والتفاسير كثيرة .. فالأمر ليس من السهولة بمكان كما قد يظن البعض .

لذا يعود الإنسان ليسأل من جديد .. ما الروح .. ؟ وكيف بدأت الفكرة .. عند الإنسان البدائى .. والفراغة وفلاسفة الإغريق والرومان

والهندوس وغيرهم .. وما الروح في الموسوية والنصرانية وعند العرب والمسلمين
وفي فكر المتصوفة ؟

هل هو جسم^(٢) متحيز ؟ وأين ؟ هل هو لطيفة ربّانية ؟ وكيف ؟ هل الروح
قديمة أو محدثة ؟ وهل هي متعلقة بالبدن ؟ وما مراحل هذا التعلق ؟ وهل تموت
الروح ؟ وما مستقر الأرواح ؟

وقبل ذلك كله .. ما مفهوم الروح في اللغة العربية ؟ وما حديث القرآن
عنها ؟ وهل الروح والنفس شيء واحد ؟ أولاً ؟ وما الفرق بينهما ؟ وهل الروح
تسبق خلق البدن أو أن البدن يخلق قبلها ؟ ..

وكلّما فرغنا من الإجابة عن سؤال .. انبرى لنا سؤال جديد متحدّياً
ومعجزاً ..

فماذا عن الروح في الفكر المعاصر ؟ وما مدى الاهتمام بالنشاط الروحي ؟
وهل يمكن وضع الروح تحت ميكروسكوب الطب ؟؟

وما هو الروح القدس ؟ وما صلة الروح بالمعجزات والكرامات والرؤيا ؟
وكذا ما صلتها بالسحر والحسد والتنجيم وعلم اليازرجة والإيحاء والتنويم
المغناطيسي ؟

(٢) الروح يذكر ويؤنث (مختار الصحاح) ..

عزيزى القارئ :

هذه بعض الأسئلة التى يجيب عليها هذا الكتاب .. ولسنا نريد أن نزيد حتى لا نثقل عليك .. فأولى بنا الآن أن نصافحك ، لتنفرد بهذا الحصاد الذى أجهدنا جمعه وتلخيصه وإعادة تبويبه وترتيبه وتحقيقه ومراجعته .. لنهديه فى النهاية إليك .
هذا وبالله التوفيق ..

القاهرة فى ١٩٨١ / ١ / ٩ م

د . عيسى عبده

أحمد إسماعيل يحيى

البَابُ الْأَوَّلُ
فكرة الروح منذ فجر التاريخ

عجالة عن الروح عند الأقدمين^(١)

تمهيد

الإيمان بالروح قديم قَدَمَ الإنسان ، بما في ذلك الاعتقاد بخلودها وبالثواب والعقاب ، وكلما تتبع الباحثون تاريخ المجتمعات البشرية وجدوا الإيمان واضحاً بهذا الخلود ، بل وجدوا علامات كثيرة من التشابه في وصف الحياة الآخرة وربطها بالحياة الدنيا . ومن الاعتقاد بأن هذه الحياة الآخرة فيها كل مظاهر الحياة الدنيا ، مع تفاوت كبير في ظروف السعادة أو الشقاء . فذلك هو ما التقت عنده معتقدات الأقدمين وأساطيرهم وأشعارهم في شتى الحضارات المندثرة ، وعند من يعرفون كيف أن الإلهام قد يوجه الحياة في كافة مستوياتها ، وكيف أن عقول العباقرة والفلاسفة والشعراء كثيراً ما تكون هي (أجهزة الاستقبال) لهذا الإلهام الكوني العام ، ويبدو مفهوماً أمر تشابه المعتقدات المختلفة عند شتى شعوب الأرض في شأن طبيعة الحياة الأخرى ، لا في شأن التسليم بها فحسب .

وفي هذا الشأن يقرر الأستاذ الدكتور حسن عثمان في ترجمته العربية ، لكوميديا الشاعر دانتي أليجييري عن « الجحيم » لم يكن دانتي بطبيعة الحال أول من تناول في « الكوميديا » عالم ما بعد الحياة ، ولقد تناولت ثقافة البشر هذه الناحية منذ أقدم العصور ، من سيبيريا إلى الهند وبابل ومصر وسوريا وفارس

(١) الإنسان روح لا جسد للدكتور رؤوف عبيد .

واليونان وروما وإسكندناوة وأيرلندة والأندلس .

نجد مثلاً المصريين القدماء قد عرفوا في ديانتهم الجحيم المظلم بما يحتويه من ألوان العذاب ، وتصوروا الفردوس بما فيه من أنواع النعيم والسعادة الأبدية ، وعندهم أوزيريس يزن أعمال الناس ، ويدفع بهم إلى الجزاء العادل . وفي ديانة البابليين تهبط عشتروت إلى الجحيم حيث عذاب الزمهرير والجوع والعطش والبرص ، لتبعث تاموز إلى الحياة . وعند اليهود أرض الظلام التي تقع تحت الأرض ، وتتلقى الأخيار والأشرار على السواء . وفي ديانة الفرس جحيم ومطهر وفردوس ، والإنسان ميدان معركة بين (أهورا ما زاد) إله الخير و«أهريمان» ملك الظلمات والعالم السفلى . وفي ديانة الهند يهبط يودهشتيرا إلى الجحيم ، حيث رائحة الإثم والجثث والديدان والهوام والطيور والكواسر وأمواج اللهب ، ويصعد البطل أرجنا إلى السماء مأوى المؤمنين حيث الأزهار الجميلة ، والغواي تحت الأشجار الخضراء ، والأنعام السماوية ، ويصل البطل محاطاً بالملائكة وصفوة البراهمة إلى حضرة رب الأرباب . وعند الإغريق يذكر هوميروس في الإلياذة عالم الموتى والأبالسة وأنهار الجحيم وأبواب السماء ونعيم الفردوس . ويتكلم في الأوديسية عن زيارة أوليسيس للعالم السفلى وحديثه مع أشباح الموتى . وتحتوى ثقافة الأوترسكيين على عالم ما بعد الحياة ، وما يشمله من الشياطين والرعب والفرع . وبعض رسوم مقابرهم تعتبر كمقدمات لجحيم دانتي » (٢) .

وهكذا يصدق على إيمان مواكب الشعوب بالروح وبالخلود ، ما لاحظته أحد الحكماء من أنه مما كتبه قدماء الفلاسفة من جميع الأجناس ، وما أنشده

(٢) عن الكوميديا الإلهية «الجحيم» راجع بوجه خاص ص ٥٥ - ٦١ .

فطاحل شعراء جميع الشعوب ، وما جاء به حكماء جميع الأمم ، نستطيع أن نجتمع آثار هذا الإشراق الذى جاء الإنسان ، وهو تفتح الوعى الروحى . لقد تحدث عنه هذا بطريقة ، وذاك بأخرى ، ولكن الجميع ردّدوا نفس القصة - قصة واحدة لا تختلف . كل الذين أشرق عليهم هذا النور ولو خافتاً باهتاً ضعيف الضياء يرون نفس المعالم . وقرب الشبه بين ما تصنعه الأنشودة والشعر والتعاليم ، مهما بُعدَ العصر واتسعت الحقبة بينها ، إنها أنشودة الروح التى إذا سمعت مرة لا تنسى ، سواء أنشدها المتوحش على صوت آله البدائية ، أو عزفها المتحضر على أوتار الآلة العصرية المتقنة .

إنها هىَ التى انحدرت من مصر الفراعنة ، أو من الهند ، أو من أثينا وروما . من القديس المسيحى فى الكنيسة والدير ، من الفيلسوف الصينى ، ومن قصص الهندى الأحمر وهو يروى أسطورة النبى البطل ، إنها واحدة النبرات متشابهة النغم ، ولكن صوتهما يزداد ارتفاعاً كلما مر الزمن بانضمام المنشدين الجدد ، كلُّ بما فى يده من قيثار أو غيرها من آلات النغم إلى الفرقة العظمى (٣) .

والاعتقاد بإمكان الاتصال بين الأحياء و « الأموات » ليس ببدوره أمراً جديداً ، بل إنه يمثل عقيدة كانت معروفة وشائعة فى مجتمعات كثيرة ، فيروى المؤرخ « فسك » مثلاً أن الاتصال بأرواح الموتى كان من أول العبادات التى عرفها أجدادنا على اختلاف أجناسهم ، التى عاشت فى أفريقيا وآسيا والصين واليابان . وفى الشعب الآرى الأوربى ، وفى قبائل الهنود الأمريكين . كما يروى « آلين » أيضاً فى « تاريخ المدينة » أن القبائل المتوحشة فى كل العالم ذات إلام

(٣) عن « فلسفة البوجا » تأليف يوجى رام شاراك ، ترجمه الأستاذ عريان يوسف سعد ص ١١١ .

بالنفس الإنسانية وعالم الروح والخلود بوجه عام ... وأن الوفاة ما هي إلا خلاص الجسم عن طريق هذه النفس العجيبة التي يعتقدون أنها في مكانٍ ما قريب ، وأن الحب والكره في هذا العالم ينتقلان إلى العالم الآخر .

ويضيّق المقام هنا عن تتبع هذه العقيدة عند الأقدمين في البلاد المختلفة . بل يكفي في مؤلّف موضوعه التقديم « للعلم الروحي الحديث » أن ننبه الأذهان - في عجالة - إلى أن هذا الموضوع قديم ، وأن كل ما فعله الحديث هو أنه رضى أخيراً أن يتواضع قليلاً ، ويبحثه بالأساليب العلمية الحديثة ، فكانت المفاجأة الكبرى أنه جاز الامتحان بنجاح ، في الوقت الذي كان قد استقرّ في الأذهان أنه محض خرافة اندثرت مع تقدم العرفان إلى غير رجعة .

فاضطر الباحثون العلميون إلى أن يراجعوا آراءهم المادية ويعيدوا صياغتها ، فإذا بها بعد هذه الصياغة الجديدة أثبت قَدْماً ، وأقوى على النقد وعلى مواجهة كشف العلم المادّي نفسها التي أخذت تتزّى في تدفّق مثير ، منذ عرّفت الحقائق الروحية سبيلها إلى الأذهان ، وفي تضامن مع التسليم بصحة هذه الحقائق .

وذلك إلى المدى الذي يدفع بعض الباحثين الروحيين ، إلى الاعتقاد بأن عالم الروح كان وراء هذه النهضة الروحية الباهرة ، كما كان من قبل وراء كل نهضة روحية عرفها الإنسان . « فعالم الروح قديم قدم الحياة ، وعالم المادة ظلّ باهت عليه ، وأولها خالد لا يفنى وثانيهما عرضة للفناء . ويمكن الآن اعتبار أنير الفضاء - كما يقول الأستاذ جيمس آرثر فندلاي مدير المعهد الدولي للبحث الروحي - هو حلقة الاتصال الكبرى التي توحد ما بين عالم المادّة وعالم الروح ، لأن مادة الأثير مشتركة بين العالمين . وكلاهما محصور داخل هذه المادة ، وكلاهما جزء منها ، وكلاهما مكوّن منها . والعالمان جزء من كون واحد ، والحياة في كليهما مقيدة به ، فهنا في العالم المادّي الذي نعيش فيه ، إنما نحس فقط بنوع من

الاهتزازات المنخفضة الدرجة ، أما في عالم الروح حيث تؤدي الحياة وظائفها أيضاً ، فإن الوعي يتأثر بنوع من اهتزازات أعلى درجة .
وكلما أوغلنا في البحث سنزداد اقتناعاً بهذه الآراء . لأنه من أحاديثي مع أولئك الذين يحيون تلك الحياة ، سنعلم أن عالم الروح حقيقي ملموس جميل كهذا العالم الذي تدركه حواسنا المحدودة ، بل إنه في الواقع أكثر منه في هذا الصدد » (٤) .

وفيما يلي سنمرّ على موضوع الروح من ناحية الاعتقاد في خلودها ، في عصور مختلفة من التاريخ ، وفي آداب مختلف الحضارات وفلسفاتها ، متوخّين أن تقدّم هذه العجالة بترتيب تاريخي ، فنعالج موضوع الروح عند الإنسان البدائي والفراغة ، ثم عند الهندوس ، ثم عند الإغريق ، ثم عند العرب وفلاسفة الإسلام ، ثم في عصور أحدث مما تقدم .

فكرة الروح (٥) عند الإنسان البدائي

كانت الجماعات البدائية في جاهليتها الأولى تواجه حيثما كانت (لغز المجهول) في نفوسها ، وفي كل ما يكتنفها في مظاهر الطبيعة حولها ، وتحاول أن تبني على ما تعانيه من هذه الظواهر الإنسانية والطبيعية ، أفكارها عن الإنسان وعن الطبيعة .

ولعل أروع ما واجهته هذه الجماعات في نفسها من ألغاز المجهول (لغز الموت) ، وإننا لتمثل الإنسان البدائي منذ أقدم العصور ، في أول موقف له

(٤) « على حافة العالم الأثيري » طبعة الثالثة ص ٤٤ .

(٥) من مقال للأستاذ / عبد الرحمن صدق . مجلة الهلال العدد ١١ - نوفمبر ١٩٧١ .

أمام الموت ، وهو واقف على جثة رفيقه الميت حائراً مذهولاً ، وخاصة وهو قريب عهد بالميت ، يذكر كيف كان منذ لحظة مثله يَغْدُو ويروح ويتكلم ويفعل ، مثل ما يفعله سائر الأحياء .

فماذا دهاه ؟

إن كل شيء فيه يبدو عادياً فهو سليم البنية لم يُتَبَر منه عضو - صحيح الجوارح لم تصبه طعنة في قلبه .. ولا كسر في جمجمة رأسه ، ولا غير هذا وذلك من مواضع الإصابة في المقاتل ، ومع ذلك فإن جسده ورغم بنيته وصحة جوارحه ، قد بردت فيه حرارته وهمدت حركته .

فما هو ذلك الشيء الحى ، غير المنظور الذى كان فى هذا الجسد ثم فارقه ، فإذا الحياة قد فارقت معه الجسد - مع أنه - من حيث هو جسد ، لا يختلف فى مرأى العين عن جسد من هم على قيد الحياة لا يزالون ؟

وذلك الشيء الخفى سر الحياة فى الجسد الحى ، سرعان ما اهتدى إليه الإنسان البدائى حين انحنى على وجه الميت ، فإذا به لا يحسّ نفساً يتردد . من هنا استنتج الإنسان البدائى أن ذلك الشيء الخفى غير المنظور كالهواء ، هو فى أجسام الأحياء عنصر الحياة ، أى أن الروح من عنصر غير عنصر الجسم . ولكن للقارئ أن يقول : إن هذا الاستنتاج وإن كان غير بعيد أن يقع للإنسان البدائى ، فإن الحكم بوقوعه له لا يخرج عن أنه حكم افتراضى لا يستلزم القبول ، وجوابنا على الاعتراض أنه صحيح ما لم يقم دليل يؤيده . وعندنا لحسن الحظّ الدليل ، وهو الوحيد الذى لا يمكن أن يكون فى مثل هذه الحال غيره . . ذلك الدليل ، هو ما أسفرت عنه الدراسة المقارنة للغات منذ أقدم العصور ، من الابتعاد منذ أقدم العصور بالمدلول الأخرى لفكرة (الروح) عن كل ما هو جسدى إلى ما هو فى اعتقاد الأقدمين - لا مادية -

مثل نسائم الهواء ونفحات الريح . ففي القارة الآسيوية نجد اللغة السنسكريتية أقدم لغات الهند ، في حضارتها الأدبية الدينية قد أطلقت على الروح و (الهواء أو الريح) لفظاً واحداً هو (ألمان Alman) كذلك لا يختلف الوضع عن ذلك في اللسان الجاوى .

كما أن الدارسين لأحوال البقية الباقية من الجماعات البدائية في غرب أستراليا قد لاحظوا على القوم هذه الظاهرة بعينها ، في لغتهم وهذا بعينه كذلك ما يجرى حتى اليوم على لسان الهنود الحمر في أمريكا الشمالية .

وفي القارة الأوروبية منذ الحضارات القديمة اشتق اليونان من الفعل الذى معناه يتنفس كلمة : (Psyche)

ثم جاء الرومان فاستقوا من الفعل نفسه كلمة Psychicus وكلاهما بمعنى النفس أو الروح ، وكلنا يعرف معنى هاتين الكلمتين في التركيب الأوروبي المنقول عنهما وهو (Psychocology) نقلناه إلى لغتنا بحروفه (بسيكولوجيا) (Psychology) بمعنى علم النفس ، كذلك نجد في هاتين اللغتين القديمتين ذاتهما - اليونانية واللاتينية - كلمة Pneuto ومعناها الهواء ، وهو بمعنى الروح في بعض فروع فلسفة ما وراء الطبيعة وهو المسمى Pneutology أى (العلم الروحى) ونسوق أخيراً وليس آخراً - هذا المثل من أقدم اللغات السامية في الشرق ، وهما العربية والعبرية ، وحسبنا في بيان قدم لغتنا أن نذكر ما هو ثابت لدى علماء التوراة ، من أن أحد أسفارها وهو (سفر أيوب) مترجم للعبرية من العربية ، ثم نبدأ باللغة العربية فنقول : إن كلمة (الروح) فيها قرينة من (الريح) من حيث لفظها واشتراكها في معظم الحروف ، بل إن كلمة الروح تشتمل فعلاً على المدلولين معاً فهى (الروح) و (الريح الخفيفة) ، ومرادف الروح في لغتنا (النفْس) وهو أيضاً يقال : لفظ (النفْس الأخير) بمعنى فاضت نفسه أو .

صعدت روحه ، وتتفق اللغة العربية مع اللغة العبرية في كلمة النفس بمعنى الروح ، مع فارق واحد في اللفظ وهو أن حرف (السين) في لغتنا هو (الشين) في لغتهم . فالنفس عندهم (نفس) كما أن السلام عندهم (شالوم) .
ومما قدمنا يظهر أن الإنسان البدائي كان فهمه أول الأمر لحياته أن قوامها تحرك آلى يرجع إلى تركيبه العضوى ، وبعبارة أخرى كان وقوفه عند المادة على أنها الحقيقة الأولى والأخيرة ، ولكنه مع تطوره الحضارى أدرك أن عنصر الحياة فى جسده المادى غير مادى ، بل شىء خفى هوأى كالريخ ، بدليل اتفاق مدلولها اللفظى فى أقدم اللغات ، ولا شك أن هذا الإدراك الذى حققه الإنسان البدائى نحو إدراك الروح يعد نقلة كبرى ودرجة لها ما بعدها فى معراج الارتقاء الروحى لو استقام على الطريق .

من فكرة وجود الروح إلى خلود الروح

إذا كانت فكرة وجود الروح بوصفها قوة لا مادية ، تمثل عنصر الحياة والحركة فى الجسد قد تلقاها الإنسان البدائى كما قدمنا - من الموت - فإن بلوغ الإنسان البدائى إلى الفكرة التالية الأسمى عن (بقاء الروح) نشأت عنده من الأحلام .

أما كيف كان ذلك فالجواب عنه من البساطة بمكان ، وإلى السائل البيان : لما كان الإنسان البدائى بعد جهده طوال نهاره فى السعى بوسائله القاصرة البدائية للحصول على طعامه وسائر ما يحتاج إليه فى عيشه ، سواء بالصيد أو غيره يغلب عليه كما يغلب علينا اليوم - سلطان النوم - الذى لا يغالب فىنام ، فإنه لا محالة كان فى بعض الأحيان يحلم فى نومه بمثل ما نلح به ، من الأحلام التى

تمت من قريب أو بعيد إلى حياتنا ، وما يشغل فيها نفوسنا من المخاوف والآمال ، فبرى ما يرى النائم - على سبيل المثال - في بعض جولاته العادية أنه قد لقي أناساً ممن يعرفهم ، أو ممن لا عهد له بهم ، فدار بينه وبينهم هذا الحديث أو ذاك بالإشارة أو بعض الكلام ، وانتهى الأمر بما انتهى إليه من سلام أو خصام ، أو أنه خرج في إحدى رحلات الصيد البعيدة في الغابة أو في الجبال ، فإذا الصيد غير الذى جاء مستعداً لصيد ، بل هو وحش من الوحوش الضخام شديد الضراوة ، فثبت له مع ذلك ولم يتراجع ، ولم يزل به يناوشه ويصارعه حتى صرعه ، بما أظهره - في الحلم - من شجاعة في القتال تفوق سائر من يعرف من الرجال ، بل ربما يكون أقى - في حلمه - من الفعال ما هو في حكم المحال .

هذه الأحلام أو غيرها كان الإنسان البدائي يحلم بها بطبيعة الحال ، والذى يعيننا من أحلام الإنسان البدائي ليس أحداثها بقدر ما هى الأحلام نفسها ، ذلك أنه كلما انتبه من منامه ألقى نفسه مع كل تلك الرحلات في أحلامه راقداً في فراشه لم يفارقه ، فلا غرو أن يكون تفسير ذلك عنده في كل مرة تتكرر فيها هذه الظاهرة أنها هى روحه تفارق جسده في أثناء نومه ، وتنطلق حيث شاءت لتحيى الحياة التى تشاؤها ثم تعود للجسد .

وعلى أساس هذا التفسير تقررت عند الإنسان البدائي العقيدة بأن الروح وإن حلت في الجسد ، فإن لها وجودها المستقل عن الجسد .. وعلى أثرها عقد الإنسان البدائي المقارنة بين مفارقة الروح للجسد في الحالتين : حالة نوم الإنسان وحالة موته ، فبدا له أن الروح تفارق جسد الميت كما تفارق الروح جسد النائم (على حد قولنا إن النوم موت أصغر والموت نوم أكبر) وأن الفارق في الحالتين هو أن الروح في حالة النوم تعود للجسد ، وفي حالة الموت لا تعود للجسد .

حقيقة الإنسان - ٩

وبذلك يكون الإنسان البدائي بما أودع الله فيه من العقل - وإن يكن لمَّا يزل في طوره البدائي - قد سجل لنفسه على طريقته وصوله إلى الإلمام بحقيقة من الحقائق الكبرى وهي (خلود الروح) .

اعتقاد خلود الروح ينحرف إلى التبعّد لأرواح الأجداد

لما كانت روح الإنسان تقيم في جسده طوال حياته ، فقد استقر في تفكير الإنسان البدائي أن هذه الملابس - طالت أو قصرت - تميل بالروح المفارقة إلى المراقبة بالقرب من جسد صاحبها الميت حيث كان بعد المات . ولكنه على الرغم من هذه الفكرة المثالية كان لا يتصور أن تصبر روح الميت على هذه السلبية ، فتبقى أكثر الوقت حبيسة في القبر بجوار جسده ملازمة لها . وهذه هي أرواح الأموات تغادر مكانها جوار رفات أصحابها ، بعد أيام يتفاوت عددها باختلاف الجماعات وتمضي إلى حيث كانت تحيا معه ، وهناك تهم حول كوخه الذي ربما أيضا كان مسقط رأسه ، وفي هذه الحالة يكون على أرملة وأولاده أن يتوخوا في تلك المواعيد المقررة ترك الباب دون مغاليق تمنع دخول روح فقيدهم للزيارة الموعودة .

وبعد هاتين المرحلتين يكون للأرواح المفارقة أن تستمتع كل واحدة منها بحريتها ، فلا يقتصر غشيانها على الأمكنة التي كانت تغشاها مع جسد صاحبها ، بل تهم في سائر النواحي حيث شاءت في الليل ، لأن النهار ينحصر الأحياء وحدهم ، ومن أجل هذا كان كل مكان - في الغابة أو في العراء في الطريق العام أو في منعطفاته الضيقة - موعداً لمسرى أرواح الموتى تحت جناح الظلام ، لا تراها الأعين إلا إذا شاءت أن تظهر لهم أطياها لسبب أو لآخر . وهذه

الأرواح تستطيع أن تتعرض للخير والشر للأحياء بحسب موقف كل واحد من هؤلاء منها ، قبل الموت وبعده ، فضلاً عن إمكان تدخلها في سير الأحداث ، باعتبار أن عدم تقيدها بالجسد يكسبها قوة على مثل هذه الأمور الغريبة ، على الرغم من حاجتها إلى الأحياء في أمور أخرى شخصية سيأتى ذكرها .

لذلك كان الإنسان البدائي يتحرى رضا هذه الأرواح الهائلة لاعتقاده أنها وقد حرمت من الحياة تحسده عليها : تحسده على ما لا يزال ينعم به - دونها - من الحياة المستقرة في بيته مع أفراد أسرته .. تحسده على ملء عينيه بنور الشمس واستمتاعه بدفئها ، وأكله من صيد البر والبحر وما تؤتيه الأرض من ثمرات .. تحسده على اشتراكه - بعد الطعام والشراب - في حلقات الرقص في الساحة وسط جلبة النساء والرجال ، وهم مع رقصهم ينشدون ، وقد نسوا من فرط الحبور أنفسهم فبلغوا قمة النشوة ثم يتفرقون ، وقد اصطحب كل رجل زوجته . وتهدة لما عند أرواح الموتى من مودة الحسد للأحياء على كونهم أحياء ، لا يزالون يستمتعون بالحياة من دونهم ، كان على هؤلاء ألا يدعوا لاسترضائهم سبيلاً إلا سلوكه ، فالإنسان البدائي في أفريقية الشرقية وفي مدغشقر يبنى لأرواح الموتى خصاصاً من القش ، لتعتصم بها من الرياح والأمطار التي تكثُر في تلك الأصقاع ، وفي بعض البقاع من استراليا وجزائر الأقيانوس توقد بعض النيران بالقرب من مدافن الموتى ، حتى تستدفئ بها أرواح الموتى التي تشكو البرد ، وأمثال ذلك كثير .

ويلاحظ كذلك في المدافن من قديمها إلى حديثها ، أنها غير بعيدة من مساكن الأحياء ، حتى يقوم ذلك دليلاً لدى أرواح الموتى على حرص الأحياء على جوارها ، واستبقاء العلاقة الطيبة بينهم وبينها ، كما يضاف إلى ذلك ما تلتزم به كل أسرة من زيارة موتاه مرة أو أكثر من مرة كل موسم من المواسم في كل

عام ، حاملين إليها معهم أنواع الزاد من الذبائح والخبز والفاكهة فضلاً عن الأزهار ، والأمثلة على ذلك متوفرة منذ ألف السنين في مقابر المصريين . ولا غنى لنا عن التنبيه هنا إلى أن هذا الزاد وهذه الرياحين وغيرها وإن تكن صوراً على الجدران ، أو تماثيل تتحول إلى حقائق حية بقوة الرموز السحرية عند المصرى القديم ، الذى لا يرى مع السحر فرقاً بين الصورة والأصل والذى يلغى إيمانه بخلود الروح المسافة بين الميت والحي .

الاعتقاد في وجود الأرواح يمتد إلى الجادات

لم يقف الإنسان البدائى من بعد توفيقه إلى اعتقاد خلود الروح عند انحرافه - كما تقدم - إلى التعبد لأرواح الأجداد ، بل طرأ انحراف آخر أبعد أثراً وأطول أمداً ، على اعتقاده الأول (وجود الروح) ، حتى شمل كل ذى حركة في الطبيعة كلها ، وهذا هوكلما نظر حوله في الطبيعة إلى كائنات تتحرك - وما أكثرها - أعتقد أن كل كائن منها مثله يتحرك لأن روحاً تكمن فيه . فالأشجار لا ترتجف أوراقها وتتأيل أغصانها إلا لأن فيها الروح ، والأنهار لا تجري بين الصخور وتناغى الأسماع بنغم الخرزير إلا لأن فيها الروح ، وكذلك البحر الواسع الرّحاب الممتد إلى آخر الأفق وهو زانخ اللبّة صانح عجّاج من تلاطم الأمواج ، وأمثال ذلك إلى آخر ما هنالك .

وهكذا ازدحمت الطبيعة حول الإنسان البدائى بالأرواح ، فهناك روح لكل شجرة وأسة من الأرواح لا بد للغابة - ولا بد على رأسها من الأرباب - مما يناسب الغاب وثمة روح لكل نهر وأسة من الأرواح لا بد للبحر - ذلك العالم المائى الكبير - ولا بد على رأسها رب وربة من الكبار ذوى المكانة . وعلى

هذا المتوال مضى الإنسان يتمثل الأرواح في كل ما يلقاه على وجه الأرض ، حتى انتهى إلى الاعتقاد بأن حركة الحجر المتدحرج من قمة الجبل على السطح تقوم دليلاً على وجود الروح في الجهاد ، وكان أروع ما أيد ذلك عنده (جبل النار) ذلك البركان الذى لا يرى في قوته عند الهدوء إلا سحابة من دخان حتى إذا ثار.. إذا هو يقذف ذات اليمين وذات اليسار من قذائف النار ومصهور الأحجار ما يزلزل الأرض وينشر الموت والدمار . بل إن الصحارى الجرد نفسها لا تخلو من كثبان الرمال المتحركة في مهاب الرياح ، فضلاً عن أن ما يصدر عن تمدد رمالها بجمرة النهار وانكماشها في برد الليل من التخلخل في الرمال ينجم عنه حركة انقيار بطيء مستمر ، إذا سمعها الإنسان البدائي توهمها في سكون الليل وسط القفار همسات أرواح الصحراء .

هذه بعض الظواهر الطبيعية في الأرض ، أما في السماء فإن الإنسان البدائي ما يكاد يطمئن إلى صفائها في هذا اليوم ، أو ذاك حتى تجذب أنظاره قطع متحركة من السحب ، تسرى في الفضاء متفرقة ثم تتجمع فيكفهر الجو .. وإذا الرياح التي كانت أنساماً لطيفة ناعمة تصير زوايع عاصفة ، تتوالب وتتضارب كالوحوش الضارية ، وفجأة تعلو على أصواتها جلبة صيحات مروعة تتردد في الآفاق من أصوات الرعود القاصفة ، بينما تشب في جوانب السحب الملهمة هنا وهناك ، كألسنه النار تلك البروق الخاطفة ذات البريق الذى يخطف الأبصار .

فهل بعد ذلك يبقى عند الإنسان البدائي أدنى شك في أن السماء أيضاً عامرة كالأرض بالأرواح وأن هذه الأرواح - مثل روحه أحياناً - تأخذها سورة من الغضب ، هي هنا كأشد ما يكون الغضب .

في هذه الحال وغيرها من الأحوال - ما ذكرناه وما لم نذكره - كانت

تتحرك عند الإنسان البدائي رغبة ملحة لمعرفة السبب .
وكان الزعيم المهيمن على كل جماعة بدائية تأكيداً لسيطرته يعتمد على إيهامهم بما تلقته من أرواح الأجداد ، من المعارف الغيبية الكفيلة بالرد على كل سؤال فضلاً عن القوى السحرية القادرة على شفاء كل داء ورد كل بلاء .
ومن ثم كان هذا الزعيم المتطبيب الساحر هو الذى يفسر لهم - بحسب اجتهاده - السبب فى غضب هذا أو ذاك من الآلهة المتمثلة فى العناصر الطبيعية ، ويدلهم قدر سعة حيلته على وسائل استرضائها بالقرابين وأداء الشعائر وغيرها . مع إبداء استعداداه إذا استدعى الأمر إلى إكراهها بما لديه من القوة الفعالة السحرية .

ولم يكن هذا بمانع للزعيم كلما اجتمعت جماعته حوله ، من أن ينسج لهم الأساطير التى يجد بها خياله عن عجائب حياة كل من الآلهة المعبودة ، بما يميز بعضها عن بعض من حيث عظمة سلطاتها وجبروتها ، أو براعة ذكائها وسعة حيلتها أو رجاحة عقلها وعمق حكمتها أو روعة محاسنها وسطوة فتنها ، وهذا ما نراه منعكساً بصورة منتظمة مستكملة ومحسنة فى آثار الحضارات الوثنية الأولى وأقدمها حضارة مصر الفرعونية ، ومن بعدها الهند ، ثم اليونان التى حفظت لنا ملحمة (الإلياذة) عبر القرون أساطيرها الجميلة .

واعتماداً على تلك الأساطير ، يكون ما تعبد له الإنسان البدائي من رموز القوى الطبيعية متمثلاً فى قوتين : أولاهما : قوة أرضية والأخرى سماوية .. وتمثل الأولى فى (أمنا الأرض) بما يمثله رمزها عند الإنسان البدائي من قوة الإخصاب الخلاقة .. فى كل ما تنبتة بطنها من نبات يعيش عليه الأحياء .. وكل ما ينتجه الأحياء على ظهرها من حيوان وإنسان - وتمثل القوة الثانية فى الأجرام السماوية ، وهى بالليل كالمصابيح المضئية لا عدد لها ، من بينها

الكواكب السيارة التي عرفت الحضارات القديمة لكل كوكب منها مساره المحدود .. متنقلا بين البروج لا يخطئ المواعيد حتى زعم الأولون ومنهم الإنسان البدائي - أنها تجري لهم بالنحوس والسعود .

أما الشمس أعظم الأجرام السماوية ، فقد عرف فيها الإنسان البدائي المركز الأكبر المشع للنور الذي يهدى والحرارة التي تحيي ، فجعلها - لا محالة - على رأس القوى الطبيعية المعبودة كلها ومن ثم كانت عبادة الشمس أقدم العبادات في مصر صاحبة أقدم الحضارات .

وهذه القوى الطبيعية كلها التي كانت كما تقدم بنا - بمثابة (الأرواح) عند الإنسان البدائي - جاء بعد ألفوف السنين في القرن الرابع قبل مولد المسيح كبير فلاسفة اليونان أفلاطون فوجدها فيما أسماه Amma Mundi أى روح الكون . وخاتمة القول أن من حق الإنسان البدائي علينا وهو في طوره الحضارى الأول ، أن نترك جانباً ما طرأ عنده على فكرة الروح من الانحرافات ، حين ضل الطريق ، وأن نجعل موقفنا عندما أصابه من التوفيق حين استكشف على طريقته أن جسمه المادى لا يقوم بذاته ، بل تحركه قوة خفية لا مادية ، فكانت فكرته الأولى عن (وجود الروح) ثم استكشف على طريقة له أخرى - أن هذه الروح التي هى جوهر لا مادى لا تهلك مع الجسد ، بل هى خالدة أبد الدهر ، فكانت فكرته عن خلود الروح ، وأيا كان نصيب هاتين الفكرتين من الموافقة عندنا أو عدم الموافقة ، فإن البشرية كلها قد وقع اتفاقها - مع كل ما بين الناس من خلافات - على جوهر هذه الحقيقة - (وجود الروح وخلودها) التي تعتبر لا محالة في صورتها الدينية الكاملة من الحقائق الكبرى .

والواقع أن الإنسان البدائي قد نجح بالقياس إلى المرحلة التي كان فيها ، بين أواخر البدائية وأوائل الحضارية ، فما كان له أن يلم بأكبر مما ألمّ ، ولا كان له

بعد التوفيق ألا يفضل الطريق كما ضل .

فالحقائق الكبرى في صورتها الدينية الكاملة ، إنما ينهض بحملها إلى البشر أصحاب الأديان من الرسل والنبیین - الذين اصطفاهم لذلك رب العالمين ، ولكن إيماننا بالإنسان الذى خصه الله عن الحيوان بالجذوة المقدسة المستمدة من القبس الإلهى المسمى بالعقل .. ذلك الإيمان هو الذى حدانا إلى محاولة اجتياز ظلمات ذلك الماضى السحيق ، فى محاولة غير يائسة لبدء موضوعنا من البداية متدرجاً مع العقل المترقى ، حتى نقف عندما نحن عليه من العلم بالروح (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

الروح عند الفراعنة

تزخر النصوص المصرية القديمة بعقيدة المصرى القديم فى بدء الخلق ، وكيف حدث الخلق^(٦) ، وهناك مدارس دينية عديدة لكل منها مذهبها الخاص ، ولكن أهم هذه المدارس هى مدرسة (منف) ، التى جعلت (بتاح) العظيم هو الخالق ، وطريقته فى الخلق تتلخص فى أن (بتاح) العظيم هو قلب الآلهة ولسانهم ، ويعنى ذلك أن (القلب) هو العقل أو الفهم فى حين أن اللسان هو رمز النطق ، والنطق هو الكلمة وفى الكلمة (الخلق) . وهم يقولون فى ذلك إن (بتاح) هو القلب فى كل صدر ، وهو اللسان فى كل فم ، سواء فى ذلك جميع الآلهة وجميع الناس وجميع الماشية وجميع الزواحف وسائر الأحياء ، إن بتاح يفكر فيما يشاء ويأمر بما يريد ، إن الآلهة هى صور لبتاح ، وهى التى أوجدت بصر العين وسمع الأذن وتنفس الأنف لتصل

(٦) من مقال للدكتور/ عبد المنعم بكر بمجلة الهلال العدد ١١ نوفمبر ١٩٧١ .

جميعاً إلى القلب ، والقلب هو الذى يصدر كل قرار ، واللسان هو الذى يعلن فكر القلب ، إن كل كلمة مقدسة خرجت إلى الوجود عن طريق ما ، فكرة القلب ونطق بها اللسان .

وإذا أردنا التعرف على حياة الناس ، وما هي عناصر هذه الحياة ومقوماتها ، سنجد أيضاً أن المصرى القديم قد ترك الكثير من النصوص التى تفسر لنا عقيدته فى ذلك ، ولو أننا نعتزف أن هذه النصوص تحوى فى كثير من الأحيان غموضاً دفع العلماء إلى كثير من الجدل والاختلاف فى الرأى .

إن عملية الخلق المادى للإنسان تسند عادة إلى الإله (خنوم) ، فهو الذى يشكل الإنسان من طين وعصافه تماماً كما يشكل الإنسان آنيته الفخارية ، ولذلك صوّروا (خنوم) جالساً أمام عجلة الفخارى ، يقوم بتشكيل الإنسان ، أى يخلقه خلقاً مادياً وبعد ذلك يقوم بتشكيل جُسيم آخر ، هو ما أطلق المصريون عليه اسم (كا) ، ثم تنفث الآلهة (حفت) التى (صورها المصرى برأس ضفدع وجسم أنثى) روح الحياة فى هذين التمثالين الفخاريين ، وهكذا يتم الخلق . ولقد رمز المصرى القديم إلى روح الحياة بعلامة (عنخ) ، التى تتعارف على تسميتها (مفتاح الحياة) .

إلا أن المصرى منذ أخذ بفكرة الخلود بعد الموت ، بدأ يكوّن لنفسه صورة لطبيعة الإنسان كمخلوق حى ، لا يلبث أن يموت ، ويطلب لنفسه سعادة دائمة فى حياة خالدة تعقب الموت ، والواقع أنه لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم ، ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا على أساس أن الناس الذين استقروا فى وادى النيل الأسفل (أى فى مصر) ، قد نعموا بحياتهم وسعدوا بها إلى درجة جعلتهم يحاولون جاهدين الإبقاء عليها حتى بعد الموت

من البلى ، إلى درجة لا تتوفر في بقعة أخرى من بقاع العالم ، هذا مع العلم أن المصرى باستمرار كان يختار جباناته (مقابره) في بطن الصحراء ، بعيداً عن الأرض المزروعة التي كان النيل يغطيها بمياه فيضانه مرة كل عام ، ولمدة تزيد على ثلاثة أشهر ، ولا بد أن حالة الحفظ التامة للأجساد البشرية ، التي كان المصرى الأول يكشف عنها في كل مرة يقوم فيها بحفر قبر جديد ، قد زادت اعتقاده في بقاء تلك الجثث البشرية إلى الأبد ، وألهبت خياله بتصورات مختلفة عن عالم الموت ، وأخذ يعتقد في أن الموت ليس إلا صورة من صور الحياة ، يفقد الإنسان فيها مقومات الحركة فقط ، ومن ثم نراه يتصور أن الموت لا يصيب إلا الجسد الخارجى ، في حين تبقى عناصر أخرى هي التي تتمتع بالحياة في دنيا ما بعد الموت .

وأهم ما ذكرته النصوص من عناصر الإنسان ومقوماته هي :

١ - جسم مَادَى (خَت) : صندوق يحوى عناصر ستبقى بعد الموت .

٢ - الروح (بَا) .

٣ - القرين (كا) : النفس أو النفسية .

٤ - نورانية تنكشف في الآخرة (آخ) .

٥ - قلب مدرك (أيب) .

٦ - اسم شخصى (رن) .

١ - ويقول (بتاح حوتب) من الأسرة الخامسة عن طبيعة الجسد وهو يعظ

ابنه : إن العاقل هو الذى لا يستمع إلى نداء الجسد ، - وإذا ضل القلب وأطاع نداء جسده فإنه يكون قد أحل صِغَارَه محل حُبِّه ، ويصبح عقله نَعْساً ويسود وجهه بما جرّته عليه نفسه ، أما من أتبع نداء الرّب فقد عزّت نفسه ، والقلب لا يشعر بالدفء إلا من فضل الرّب وحده ، ومن أطاع جسده كان

عدوّ نفسه . (فالجسد يعبر عن الجسد المادى وما يحويه من شهوة وشور) .
 ٢- و (البا) هى العنصر الذى نترجمه تجاوزاً (الروح) ، ولا يرد ذكره
 مطلقاً إلا فى الرسوم على جدران المقابر وتوابيت الموتى ، وقد صورته المصرى
 القديم على شكل طائر له رأس إنسان وذراعا ، وتراه يرفرف على مومياء
 صاحبه فى تابوتها ، وهو يقدم لأنفها صورة شراع منشور ، وهو الرمز المصرى
 (للهواء) ، ويحمل فى يده الأخرى علامة (عنخ) أى الحياة ، ومن الملاحظ
 أن (البا) لا تظهر إلا عند موت الإنسان ، وكل النصوص المصرية تنص على
 محاولة جعل المتوفى (با) عند موته . ونرى الكاهن الجنائزى يخاطب المتوفى الذى
 يرقد فى تابوته قائلاً :

إن عظامك لا تفنى ولحمك لن يبلى وأعضاءك ليست بعيدة عنك : إن آلهة
 السماء تعيد لك رأسك ثانية ، وتجمع لك أعضاءك ثانية وتحضر قلبك لجسمك
 ثانية ، قم لخزبك هذا الذى لم يحف وجعتك التى لن تفسد . إذ بهما تصبح
 (با) .

٣- (الكا) : إذا اعتمدنا على النصوص ذات الطبيعة الدنيوية مثل
 التراجم الخاصة والتعاليم الخلقية والأسماء الشخصية ، نجد أن المعنى لا يستقيم
 إلا إذا ترجمنا (الكا) على أنها النفس أو النفسية ، وبتاح حوتب حين ينصح
 ابنه يقصد (بالكا) نفسية الشخص الحى (لا تتبر) وقت متعتك فكريه على
 (الكا) - أى النفس - إفساد وقت متعتها . و (إذا تقاعد المرء على أن يرضى
 خلصاءه قال الناس هو (كا) أنانية أى هو نفس أنانية) . كذلك فإن الأسماء
 الفرعونية (كا وعب) تعنى نفسا طاهرة و (كامنخ) أى نفسا فاضلة
 و (ميريوكا) بمعنى محبوب النفس . وقد عبر المصريون عن (الكا) بصورة
 ذراعين مرفوعتين إلى أعلى ، ونحن نجد من بين نصوص مذهب (هليوبوليس)

التي تتحدث عن الخلق الأول الذى قام به (آتوم) : (آتوم الذى أوجد نفسه بنفسه ، وعاش فريداً أمداً بعيداً حتى ذراً من نفسه ذكراً وأنثى ، ثم مد ذراعيه حولها (أحاطها بساعديه) بمقدرة (الكا) . واعتقد المصريون أن (الكا) تبقى فى جسم صاحبها ما دام حياً فهي تولد معه وتعيش معه .

وفى اعتقادنا أن هذا التصور لا يزال باقياً عندنا حتى الآن . فعندما يجرى طفل ويقع على الأرض نجد أمه تسارع إليه قائلة : (اسم الله عليك وعلى أختك الى أحسن منك ..) فإن كانت ترى أن الطفل لم يصب بسوء إلا أنها تخشى أن تكون الأخت (الكا) قد أصيبت بأذى . وقديماً اعتقد المصري أن (الكا) ستنفصل عن الجسد فوراً بعد الموت ، ولكنها ستبقى بجانبه وهى العنصر الذى سيعيش إلى الأبد ، إلا أن هناك ضمانات متعددة تتحكم فى نوعية هذه الحياة ومدى السعادة التى ستزخر على (الكا) ومن هذه الضمانات :

- (أ) تحييط الجثة حتى تحتفظ بصورتها الدنيوية لتتعرف عليها (الكا) .
- (ب) المقبرة تجهز بحجرة دفن تحتوى تابوتاً ضخماً من الحجارة للمحافظة على الجثة ، وسميت المقبرة عند المصريين (منزل الأبدية للكا) .
- (جـ) تكديس المأكول والمشرب والأثاث .
- (د) إقامة تماثيل تعرف باسم تماثيل (الكا) لكى تتجسدها عند تقدمه القربان .

(هـ) وقف مساحات شاسعة من الأرض المزروعة لصرفها أو ريعها على تقدمه القربان ، ومن الطريف أن المصريين القدماء تخيلوا وجود جنة سماوية ، إلا أنها كانت طوال عصر الدولة القديمة وفقاً على الملوك .

٤- (الآخ) : عنصر معنوى بحت يعبر عن فضائل كثيرة (البهاء - الجلال - الصلاح - النبيل - القداسة) ... (الآخ للسماء والجسد للأرض) .

ولقد وصف أحد فصول كتاب الموتى (بردية آتى) نعيم الآخرة بصفات معنوية ، كما صور الفارق الكبير بين ظلمة المقبرة في باطن الأرض ووحشتها ، وبين راحة النفس التي تنتظر الصالحين فيها (حقاً إنها بغير ماء ولا هواء) ، عميقة مظلمة وقصية لا حدها ولا نهاية ، ومع ذلك فيعيش الصالح فيها سعيد النفس ، فهي أرض لن تمارس فيها شهوات الجنس ، ويصبح الإنسان فيها (آخا) لا يحتاج إلى ماء ولا هواء ولا متعة الجنس ، ويوهب فيها راحة القلب بدلاً من الطعام والشراب .

٥ - (الآيب) القلب : عضو مادي في الجسم كذلك عبر به عن معاني العقل والضمير والإرادة والوجدان .. (إن قلب الإنسان هو حياته ونعيمه وسلامته) و (أن ما تراه العينان وتسمعه الأذنان ويشمه الأنف يرقى جميعه إلى القلب) .

والقلب هو الشاهد الذي يعتمد القاضى الأكبر (أوزوريس) على أقواله فيحكم على صاحبه ، إما بدخوله الجنة أو إلقائه في النار ، واعتادوا تصوير القلب في كفة الميزان وريشة العدالة في كفته الأخرى ، ومن زادت أعماله الحسنة كان هو الذى يدخل جنة (أوزوريس) .

٦ - (الاسم : رن) : اعتبر المصرى القديم اسمه الشخصى جزءاً هاماً من كيانه ، يتميز به في دنياه ويتأكد به خلوده وسعادته في أخراه ، فاهتم بتخليد اسمه على آثاره حتى يردده الأحياء بعد وفاته .. واعتقد أن ما يلحق باسمه من شر يلحق أيضاً بصاحبه .. وأن الإنسان يستطيع الإضرار بأعدائه أحياء كانوا أو موتى ، عن طريق الإضرار بأسمائهم بالمحو أو بالسحر . فقد كان الاسم من أهم عناصر صاحبه ، حتى أن (تحوتمس الثالث) عندما أراد الانتقام من (حتشيسوت) محاً اسمها من فوق جميع آثارها .. وكذلك صنع إخناتون عندما أراد أن ينتقم من آمون ..

خلاصة القول عن

الحياة الآخرة والنفس عند الفراعنة^(٧)

لعل أروع ما فى العقيدة المصرية القديمة ، اعتقادهم الحياة الآخرة ، وأنها الباقية بعد هذه الدنيا الفانية . فقد كانت هذه الدنيا فى نظرهم فترة قصيرة ، وبعدها حياة لها أمد غير محدود . بل إنَّ دنيانا ليست إلّا ممراً إلى ذلك الخلود ، وقد قام اعتقادهم بالحياة الآجلة بعد هذه العاجلة على أساسين .

أحدهما : إن هذه الدنيا معترك يتنازع فيه الشر والخير والبر والفاجر ، وكثيراً ما نرى فى هذا المعترك الشر يتصر على الخير . والفساق على الأبرار . فلو لم يكن هناك يوم كله للخير . وكله على الشر ، يحاسب المسىء على إساءته ويكافأ المحسن بإحسانه ما استقام العدل الإلهى . فمن العدالة الإلهية إذن أن يكون يوم آخر ، يكون للأبرار على الفجار ، وللأطهار لا للأشرار ، وأن تكون الحياة الباقية ليستصر فيها الخير ، ويتتصف فيها من الشر .

ثانيهما : اعتقادهم فى النفس الإنسانية فهم يعتقدون وجود نفس تنفصل عن الجسم ، وإن كانت تحلّ فيه . وأن تلك النفس ذات أربع شعب : إحداهما : الروح وهى أساس القوى فى الإنسان .

والثانية : العقل والإرادة .

والثالثة : صورة من الأثير أو مادة أدق على هيئة الجسم تماماً .

والرابعة : الجوهر الخالد السامى الذى يشترك فيه الإنسان مع الآلهة ، وهو

(٧) عن كتاب مقارنات الأدبان - الديانات القديمة - الشيخ محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى .

سرّ الوجود والعلوّ . وهذه الشعبة من شعب النفس متصلة بعالم الآلهة ما دام الإنسان على قيد الحياة ، فإذا مات اتّصلت به اتّصالاً وثيقاً فأما الروح فهي التي تظل تتردد على الإنسان في قبره إلى أن يحتاز الحساب . ويصل إلى مرتبة الثواب . وعندئذ تعود إليه فيشعر بما يشعر به الأحياء .

ولقد كانوا يعتقدون أن النفس لا تعيش إلا إذا كان الجسم سليماً ، وسلامته هي التي تجعله صالحاً لعودة الروح إليه بعد أن فارقت بالموت ، ولذا بذلوا أقصى الجهد في سبيل المحافظة على الجسم . وجعله صالحاً لحلول النفس فيه بعد الموت . وقد بعث ذلك فيهم الحيلة لأن يخترعوا تخطيط الموتى وبقاء المومياء على هيئة من التماسك وعدم التحلل لكي تعود النفس إلى غلافها . ولقد اجتهدوا مع ذلك في إقامة تماثيل للموتى تشبه أجسامهم تمام الشبه . لكي تحل فيها النفس إن كان الجسد غير صالح . وقد عدّوا التماثيل للميت الواحد ، لأنه عسى أن يكون أحدهما غير صالح فيكون الآخر صالحاً ، ولكي تكون الروح في فسحة من الأماكن ، فتنتقل من هذا إلى ذاك .

وكانوا يعتقدون أيضاً أن الميت أو روحه في العالم الآخر يحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء في هذه الدنيا من طعام وشراب . وأن ما يقدم من ذلك في الدنيا قرباناً على أرواح الأموات يفيدهم في الآخرة . ولذلك تكون روح الميت في أشد الألم إذا لم تقدم القرابين من طعام وشراب ، وما إلى ذلك من مطاعم الأحياء في الدنيا .

ولهذه المعاني والخواص التي وصفوا النفس الإنسانية بها ، وللعادلة الإلهية التي تسود الأكوان ، اعتقد قدماء المصريين أنه لا بد من حياة أخرى فيها النعيم المقيم للأخيار ، والعذاب الأليم للأشرار ، ثم إنه قبل أن يصل الميت إلى الثواب أو العقاب لا بد من الحساب ، والحساب يكون أمام محكمة تتألف من اثنين

وأربعين قاضياً يرأسها (أوزيريس) نفسه ، وتسأل المحكمة الشخص عما قدم من خير ، وما قدمت يده من شر . وقد خاض المؤرخون في بيان الفضائل التي كانت تعد فضائل في نظر المصريين في هذا المقام ، وقوام هذه الفضائل سلبى ، دعامته عدم إلحاق الأذى والضرر بغيره من الناس ، وإيجابى دعامته نفع الناس وإطعام القانع والمعتر ، وإذا انتهى الحساب أمر المحاسب أن يمر على الصراط ، وهو طريق ممدود فوق الجحيم ، فإذا اجتازه الشخص نجح وارتقى إلى مرتبة الآلهة ، وإذا سقط من فوقه انتهى إلى واد فيه الأفاعي والحيات التى تتولى عقابه بقسوة ، حتى ينال الجزاء الأوفى على ما قدمت يده .

ونرى من هذا أن الأبرار من الأموات يرتفعون إلى مرتبة الآلهة ، ولهذا سرى عندهم عبادة الموتى ، وأضافوا إليهم صفات الألوهية وخواصها في نظرهم ، بل إنهم كانوا يعتقدون أن أرواح موتاهم تتصل بعالم الأحياء وتنبئهم بأسرار المستقبل ، فتحذروهم مما عساه يكون في سبيلهم من أخطار ، وتبشرهم بما عساه ينالهم من خير ، وقد ملئت أساطيرهم بشيء كثير مما يؤيد اعتقادهم فيما يزعمون .

كتاب الموتى :

- هو كتاب مشتمل على آداب وفضائل ، وعلى ما تلقته الروح لتحسن الإجابة أمام محكمة الحساب ، وهو يعد الكتاب الأعلى عند قدماء المصريين . يتعبدون بتلاوته وهم أحياء ، ويوضع معهم في قبورهم وهم أموات يزعمون أن أحد الآلهة قد كتبه بيده ، وقد جاء عن منزلة الكتاب في أحد أبوابه « أن الكتاب يعلى شأن الميت في أحضان (رع) ، وَيَحْبُوهُ السَّقُّ لَدَى (توم) ، ويجعله عظيماً لَدَى (أوزيريس) ، ومرهوب الجانب لَدَى الآلهة . وكل ميت وضع له

هذا الكتاب تخرج روحه نهاراً مع الأحياء ، وتصعد إلى الآلهة ، ولا يعترضها عارض من أحد ، تدنيه الآلهة منها ، وتلمسه لأنه شبهها ، ويقفه هذا الكتاب على ما حدث منذ البدء . هذا الكتاب خفى . وهو حق لم يعلم به أحد . إنه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت . إنه لا يراه أحد سواك . ومن علمك إياه فلا تزدد عليه شيئاً من خواطرك وخیالك . بل قم بما يدعوك إليه وسط بهو التحنيط . إنه لا يصل إليه عامي . إنه غذاء الميت في عالم الدنيا . وقوت روحه في الأرض ، يجعله حيّاً دائماً فلا يعلو عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

والكتاب مشتمل على جميع الكلمات السحرية التي تستعمل لعلاج الأمراض ، ويشتمل على الصلوات والأدعية ، وعلى ما يجب للميت من تحنيط ، وطقوس دينية ، ويحكى ما يقوله الميت الذي أقيمت له الطقوس التي يدعو إليها الكتاب ، فيقول « عندئذ يقول : تحية لك يا أبى أوزيريس لقد حنطت لحومى هذه ، ولن يتحلل جسمى ، فأنا كامل غير محسوس مقتدياً بك يا أبى أوزيريس ، حبّداً الإله في صورة رجل لا يتحلل جسمه .

وفي الكتاب فصل قيّم بما ينبغى أن تقوله الروح أمام محكمة الآلهة في اليوم الآخر ، وقد سمّاه شامبليون اعترافاً سلبياً ، وإليك بعضه : « يا سادة الحقيقة ، إننى حامل الحقيقة ، إننى لم أخنُ أحداً ، ولم أغدر بأحد ، ولم أجعل أحداً من ذوى قرابتي في ضنك ، ولم أقم بدنيّة في موئل الحقيقة ، ولم أمزج عملي بشراً قط ، وجافيت الضرّ والأذى ، ولم أعمل باعتبارى رئيس أسرة ما ليس من عمل ربها ، ولم أكن سبباً في خوف خائف ، ولا إغواز معوز ، ولا ألم متألم ، ولا يؤس بائس ، لم أقدم على ما لا يليق بالآلهة فلم أجمع أحداً ، ولم أبك أحداً ، ولم أقتل نفساً ، وما حرضت أحداً على قتل أو خيانة ، ولم أكذب . ولم أسلب المعابد ذخائرها ، ولا المومياء طعامها . ولم أرتكب أمراً لا يليق مع كاهن

فى كهنوته . ولم أغل فى الأسعار ، ولم أطفف الكيل والميزان . ولم أسرق الماشية من مرعاها ، ولم أطفئ الشعلة فى ساعتها . ولم أخدع الآلهة فى قرابينها المختارة . فأنا نقى ، أنا نقى ، أنا نقى » .

وجاء فى الكتاب أيضاً ما تقوله المحكمة عن الميت الذى تزكّيه أعماله « ليس فيه شرو ولا خطيئة ولا فساد ولا دنس ، وليس عليه اتهام . ولا فى أعماله ما يثير الاعتراض ، فقد عاش من الحق وتغذى بالحق ، وإن فعّاله لتشرح الصدور ، وهى مما يطلبه الرجال ، ويسرّ الآلهة ، وقد أخلص للآلهة محبته . وأعطى الخبز من كان خاوياً ، والماء من كان صادياً ، واللباس من كان عارياً . وأعار الزورق لمن ليس عنده » .

ويقول جوستاف لوبون^(٨) فى التعليق على هذا الكلام : « ألا يظن من يقرأ هذا الكلام أنه يسمع صوت قرون سحيقة ، تتكلم من قبل بوذا والمسيح ، معلنة قانونها اللطيف للإحسان والنفع العام » .

وفى الحق أنه مهما تكن فى الديانة المصرية القديمة من أوهام وعقائد فاسدة ، ولا تستمد من المنطق قوتها . فإن الآداب التى اشتملت عليها والفضائل التى تدعو إليها . خصوصاً الجانب السلبي منها . كانت معيّناً خصباً ، قبست منه الديانات غير المنزلة وحكمة الحكماء شيئاً كثيراً . لأنها لم تخل من خير يقتبس وحكمة تقتنص . ولله فى خلقه شئون .

(٨) مؤلف كتاب : مقدمة الحضارات الأولى .

الروح عند الهندوس^(٩)

فى آسفا يعلم الناس الكثر عن الروح ، وعن عالم الروح ، وعن إمكان الاتصال بين عالمى الروح والمادة . ويعتبر أقدم الديانات فى العالم أجمع الآن هى الديانة الفيدية ، وهى الشكل الفطرى الأول للدين الهندوسى المأخوذ عن كتب الإله « فيدا Vedas » الأربعة المكتوبة باللغة السنسكريتية ، والمنسوبة إلى وحى نزل من السماء على براهما . وهذه الكتب هى ساما ، ورج ، وياجور ، وأثارفا . وتشرح الفيدات طبيعة براهما الإله الخالق الذى هو « أتما » أو النفس الخالدة فى الإنسان ، وتصور الكون كنسيج متطور مع كيان الله ، كما تجعل امتزاج الفرد مع الله صورة لامتزاج النفس مع الروح .

والفيدتنا تلخص الفيدات الأربعة ، وقد أعجبت كثيراً من مفكرى الغرب وفلاسفته . وقد وصفها المؤرخ فكتور كوسان قائلاً : « إننا حينما نطالع يامعان فلسفة الشرق - وخصوصاً الهندية منها - فإننا نقف على كثير من الحقائق العويصة التى تكرهنا على أن ننحنى إجلالاً للفلسفة الشرقية ، ونرى فى هذا المهمل للجنس البشرى موطناً لأسمى ضروب الفلسفة ... » كما يقول فيها شبيجل : « إن أسمى فلسفة أوروبية وهى مثالية التفكير ، كما وضعها الإغريق تبدؤ - متى قورنت بالحياة والنشاط الزاخرين للفلسفة الشرقية المثالية - كبصيص ضوء مقابل فيض كامل من ضوء الشمس .. » .

وهى مؤسسة على عقيدة خلود الروح ، والعودة إلى التجسد أو رجعة

(٩) الإنسان روح لاجسد للدكتور رموف عبيد .

الروح ، والإيمان بإله واحد ، وبالسماء التى تصعد إليها الأرواح الصالحة فيتلقاها « ياما » الذى يرفعها إلى الجنة حيث تنعم بكل اللذائذ الأرضية التى تكون قد اكتملت وأصبحت أبدية . وقد وصف أحد هذه الكتب السماء الفيدية بأنها « المقام المقدس والمقر النهائى للآلهة الخالدة ، وموطن الضوء الخالد الذى هو الأصل ، والقاعدة فى كل ما هو كائن . وحيث تتحقق الرغبات بمجرد أن تنشأ » . وهذا الوصف هو تقريباً ما تصف به الكتب الروحية الحديثة عالم الأثير ، مع أن كتب فيدا هذه تتجاوز فى قدمها حتى تاريخ الفراعنة الأقدمين ، مما يحمل على الاعتقاد بأن وسطاء الهندوس ، قد تلقوها بدورهم عن طريق الإلهام من أرواح راقية ، تقيم فى عالم الأثير بحسب الوصف الحديث .

والديانة البرهمية غاصة بالحقائق الصحيحة الكثيرة فى حياتها الأرضية والساوية ، وبالنصائح الخلقية التى يؤدى اتباعها إلى خلاص الروح فى حياتها معاً ، وإلى استحقاق النعيم فى عالم الملكوت ، كما تؤمن بأن الروح الإنسانية نفحة إلهية ، وأن الموت يعطى الروح جسداً شفافاً نورانياً ينتقل إلى الملائ الأعلى ، وأن هذا الجسد وإن كان مادياً فى مظهره ، إلا أنه من طبيعة غير ترابية ، بل أرقى من أجسادنا الفانية ، وفى علم الروح الحديث ما يتفق مع هذه المعانى أيضاً . وتؤمن المذاهب السائدة فى البوذية بوجود جنات حول جبل « ميرو » الذى سفحه من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة ، ومقسم إلى عدة طبقات ، فى كل طبقة أهلها من الصالحين على حسب درجاتهم ، وفوقها جنات أخرى كثيرة ، حتى تنتهى إلى جنة علوية فى السماء ، يحيا فيها الأبرار فى سعادة مطلقة .

يعد مذهب اليوجا الهندى بوجه خاص من المذاهب الشرقية الهامة فى الفهم

العميق للروح ، إلى حد أنه يثير دائماً اهتمام الباحثين الروحيين في الغرب والشرق عند معالجة موضوع الأرواح . والإيمان بالروح وبالخلود يبلغ ذروته عند أتباع هذا المذهب بوجه خاص ، بما يستتبعه الإيمان من وجوب اتباع أنظمة صارمة من الزهد والتقشف وضبط النفس ، للوصول إلى المواهب الروحية القوية ، حتى أن جبابرة الروح في الهند ممن يحققون الخوارق الواسطة التي تحير ألباب علماء الغرب ، يكثر من أتباع هذا المذهب ، الذين لا يصرفهم شيء من أعراض الدنيا الزائلة عن مشاغلهم الروحية .

ويروى المؤرخون أن الإسكندر الأكبر عندما ذهب إلى الهند فاتحاً ، أراد عندما وصل إلى تاكسلا بشمال الهند أن يرى (دندامس) المعلم اليوجي الهندي العظيم ، فبعث إليه (أونسكريتوس) أحد طلبة مدرسة (ديوجينيس) الإغريقية ليأتيه به . وقال (أونسكريتوس) بعد أن عثر على (دندامس) في مخبئه في إحدى الغابات « تحية وسلاماً ، أى معلم البراهمة .. إن الإسكندر ابن الإله العظيم (زفس) ، وسيد الخلق أجمعين ، يطلب منك أن تذهب إليه . فإن فعلت أجزل لك العطاء ، ولكن الويل لك إن أبيت فسوف تدفع رأسك ثمناً لهذا الإباء » .

وتلقى الحكيم اليوجي هذه الدعوة الإرهابية برباطة جأش ورد عليها ردّاً طويلاً ساخراً تقتطف منه ما يلي : « إن الإسكندر ليس إلهاً ، إذ هو لا بد ذاتي الموت ، وكيف يكون مثله سيداً للكون في حين أنه لم يتربع بعد على عرش السلطان الداخلي ، ولم يدخل للآن حياً إلى الهاوية ، ولا يعلم سير الشمس في أقطار الأرض الوسطى ، ولم تسمع الدول المتاخمة ولو قدراً يسيراً عن اسمه ؟ » ..

ثم استطرد الحكيم الهندوسي قائلاً « وإذا أطاح الإسكندر برأسى فلن يقوى

على تحطيم نفسى . ورأسى الذى يصمت سوف يبقى ويخلف الجسد كدواء ممزق على الأرض التى جبل منها . وكروح أصعد حينئذ إلى الله الذى سَوَّانا جسداً . ووضعنا على هذه الأرض لكى نثبت له فى وجودنا عليها ما إذا كنا نحيا فى طاعته ، والذى يتطلب منا حينما نقف أمامه أن نقدم حساباً عن أعمالنا ، إذ أنه ديان جميع المعاصى ، كما أن أثاث المظلوم ستصبح عقاباً للظالم .

دع الإسكندر يهرب بهذا الوعيد أولئك الذين يطمعون فى الثراء أو يخشون الموت ، اللذين هما سلاحان مفلولان بالنسبة لى . فالبرهميون لا يتعشقون الذهب ولا يهربون الردى . اذهب وقل للإسكندر : إن (دندامس) ليس بحاجة إلى شىء من مالك ، وبالتالي يرفض أن ينجى إليك . أما إذا كنت فى حاجة إلى (دندامس) فتعال أنت إليه » .

وتلقى الإسكندر بانتباه عميق جواب اليوجى على لسان (أونسكريتوس) وأحسَّ برغبة متزايدة فى رؤية (دندامس) الذى كان برغم عريه وتقدمه فى السن الخصم الوحيد الذى وجد فيه مدوخ الأمصار نداءً حقيقياً^(١٠) ، وهو فى الواقع الروحى أكثر من ند بكثير .

وعموماً فهناك مبادئ ثلاثة تؤثر أعمق الأثر فى العقلية الهندية^(١١) :

المبدأ الأول : تجوال الأرواح : فالهنود يعتقدون أن الأرواح جائلة متنقلة فى أطوار شتى من الوجود ، وفى طريقها إلى هدفها الأخير تنتقل من جسد إلى جسد سواء أكان إنساناً أم حيواناً - وهذا المبدأ يعرف عادة بتناسخ الأرواح .

(١٠) « فلسفة الهند فى سيرة يوجى » للحكيم برمهنا يوجا ننذا ترجمة الأستاذ زكى عوض الحامى ٤١٢ - ٤١٤ .

(١١) عن كتاب : مقدمة فى أصول التنظيم الاجتماعية والسياسية للدكتور أحمد عبد القادر الجمال طبعة أولى سنة ١٩٥٧ - مع بعض التصرف .

المبدأ الثاني : الأعمال : يعد هذا المبدأ متمماً لمبدأ تجوال الأرواح . وهو لا يعلل فقط حقيقة أدوار الميلاد المتكررة التي تتنقل فيها الأرواح ، بل يبين أيضاً شرائط هذا الميلاد وما يستتبع ذلك من عدم المساواة الصارخة في المصير البشرى . يقوم هذا المبدأ على أن كل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتماً ، وأن كل شيء يقابله الإنسان في كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التي يأتيها في الوجود السابق وهي بمثابة كفارة .

وقد عرف الهنود الآريون كما عرف العبرانيون فيما بعد ، أن الجزاء في هذه الحياة الحاضرة لا ينسجم مع الإنسان وأخلاقه ومولده وثورته وسعادته وآلامه - كلها - ججاع الجزاء الذي تستحقه أعماله التي أتاها في وجود سابق صالحة كانت أو شريرة .

المبدأ الثالث : الانطلاق : ومعناها محاولة النفس الإفلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها ، فالحياة الشخصية في عرف القوم شر وخداع ، أما الحياة الحرة فهي استجلاء طُلعة : (براهما) التي لا تكتسب إلا بالاندماج فيه . وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج في الكائن الأسمى .

الروح عند الصين واليابان^(١٢) - الكونفوشيوسية والبوذية

وهذين الشعبين يختلفان عن الشعب الهندي في النظر إلى مسألة الروح ، فالهندي يتميز بالانغماس في الأشياء الروحية والتفكير العميق في الله ، فالدين هو الذي يُشرع في الهند ، أما في الصين واليابان فإن العقل هو الذي يشرع لهما ،

(١٢) المصدر السابق .

فالأديان الثلاثة الشائعة عندهما هي الكونفوشيوسية والبوذية والتأورزية .. وقد يعتنق الفرد الأديان الثلاثة في وقت واحد ، ولكن الدين في الصين قبل عصر كونفوشيوس (أى قبل القرن السادس قبل الميلاد) كان يقوم على ثلاثة أصول هي : عبادة الإله الأسمى - عبادة الأسلاف - عبادة الأرواح .

وكان للإمبراطور وحده حق عبادة (شغتاى) الإله الأسمى - نائباً - عن شعبه .. أما الدين الحقيقي لشعب الصين فكان عبادة الأسلاف ، والأرجح أن هذه العبادة كانت أولاً ضرباً من ضروب تكريم الميت بعد الوفاة . أما ما يهمنى من هذه العبادات الثلاث فهو عبادة الأرواح . وهى عبادة لم تغب قط عن بلاد الصين .

كما لم تفصل أبداً عن أسمى ما فيها من عبادات ، فإلى جانب عبادة الإمبراطور للإله (شغتاى) ترى لوحات تمثل الأباطرة السابقين ، ولوحات غيرها تمثل الشمس والقمر والنجوم والغيوم والأمطار والرياح ، موضوعة إلى جانب لوحة الإله العظيم أو فى مقام منخفض عنها .. وهو أمر نعرف منه كثيراً عن حقائق الروح والخلود والصلوات بين العالمين .. لكن كونفوشيوس كانت تعاليمه الخمسة هي : رعاية العلاقة بين الأمير والرعية - العلاقة بين الأب والابن - علاقة الأخ الأكبر بالأخ الأصغر - علاقة الزوج بزوجه - علاقة الصديق بصديقه .

ومن أقواله : « لم تتمكن حتى الآن أن تؤدى واجبنا نحو الإنسان فكيف تؤدىها نحو الأرواح ؟ » لذلك نجد أنه قد أبى أن يصرح بشيء عن الحياة بعد الموت ، حتى لا يخوض فى أمور لا يديرها .

وفى اليابان نجد أن البوذية منتشرة بها وتمثلة فى طوائف عديدة ، وقد تطورت تلك الطوائف وهى طائفة الشنتوية التى تعد أكبر وأنشط الطوائف

البوذية اليابانية ، وهى تعتبر بوذا « جوهراً إلهياً حلاً فى الكون وممثلاً فى
أوضاع مجسمة شتى » .

* * *

وفى الصفحات التالية رأينا أن نقدم للقارئ ما كتبه المرحوم الشيخ محمد
أبوزهرة فى كتابه مقارنات الأديان عن آراء بوذا فى النفس والروح ومذهبه فى
ذلك الوقت الذى يدين به أكثر من سدس سكان العالم . يقول المرحوم
الشيخ :

آراء بوذا والإلهيات : (١٣)

ثبت أن بوذا كان عاكفاً على دراسة واحدة هى التى جعلها عماد نظره ،
وقوام بحثه ، والأساس الذى بنى عليه ديانته ، أو بعبارة أدق مذهبه الخلقى ،
وتلك الدراسة كان موضوعها تخفيف ويلات الإنسانية ، والقضاء على الشقاء
فى هذه الحياة ، واجتثاثه من أصله .
ولكن قوماً من الباحثين ادعوا أنه أنكر حقيقتين ، وهما : الألوهية ،
والنفس الإنسانية .

أما الأول فقد زعم بعض المؤرخين أنه روى عن بوذا أنه أنكر وجود إله
أنشأ الأكوان . ويقولون أنه كان يقول : وما الإله ؟ أهو العناصر نفسها ؟ لأن
كان ذلك ، ما كان فى الأمر جديد غير وضع اسم على شىء ، ويقول أنصار
ذلك . إنه كان يعتقد أن فى العالم فقط روحاً عاماً متغلغلاً فى كل شىء
وأن الذى نعتقه أن بوذا لم يتعرض للبحث فى الألوهية بسلب أو إيجاب ،
وأن مذهبه إصلاحى اجتماعى خلق أكثر منه دينى ، ولذا لم يتعرض للاهوت ،

(١٣) من كتاب مقارنات الأديان للشيخ محمد أبو زهرة .

ولعل العبارة التي وردت في بعض الروايات كانت في أثناء حيرته وهو منهمك في الأدغال والأحراش ، هائم على وجهه يطلب الحقيقة ، بل إن العبارة يبين من لحنها واستفهامها أنها عبارة شاك متحير لا عبارة منكر جاحد . إن أولئك الذين يعتمدون على تفكيرهم الخاص في الوصول إلى الحقيقة يعترهم مثل ذلك الاضطراب .

والمذهب لا يؤخذ من قول المفكر عند حيرته ولا من عبارة تلقف عنه ، بل المذهب ما يستقر عليه الشخص ، ويتجه إليه ، ويدعو الناس لاعتناقه ، ولم يدع أحد أن ذلك كان جزءاً من مذهبه وآرائه ، دعا الناس إليه ، بل إن متحلي نحلته كانوا جميعاً يؤمنون بقوة مسيطرة على العالم ، ولم يمنعهم ذلك من أن يجمعوا بين عقيدتهم ومذهبه ، وإذا كان من متبعيه من نخله أوصاف الإله ، فذلك دليل يظن أنه ليس من دعايته إنكار الإله .

وأما إنكار النفس ، فقد ورد أيضاً منحولاً له ، ولكن ذكرته أكثر المصادر ، فهو أقوى سنداً من الإنكار الأول ، وأصدق نسبة ، ولكنه لا يتلاءم مع جملة أفكارهم ، وخلاصة ما ينسب إليهم ، ومما ينسب إليهم بلا ريب في نسبته (التناسخ) والتناسخ لا يفهم إلا إذا كان للنفس كون قائم مستقل عن الجسم ، وليست خاصة له ، ولا ظاهرة من ظواهره . وبيان ذلك أن التناسخ يقتضى أن يكون شيئاً منتقلاً من جسم إلى جسم ، حتى يصعد في مدارج الرقي أو يكفر عن الخطايا بالتزول في جسم أدنى ، ونحو ذلك وغير جائز أن يكون ذلك الشيء جسيماً ، لأنه لا معنى لانتقال جسم حي في جسم آخر حي ، إلا إذا كان أحدهما خاصة ليست في الأول ، وهي غير الحياة لأن كليهما فيه الحياة ، فلا بد أن يكون ذلك معنى نفسياً .

ولهذا رأى بعضهم لكى تتلاءم فكرة التناسخ مع فكرة إنكار النفس ، أن

يقول : إن النفس غير موجودة ، ولكن هناك رغبة هي التي تنتقل من جسم إلى جسم ، ومن حي إلى حي ، تبعاً لقانون التناسخ ، وهذا فرض لا يمنع الاعتراض الوارد ، والتناقض الواقع ، لأن هذه الرغبة هي خاصة للجسم ، أو هي شيء غير الجسم ؟ فإن كانت غير الجسم ، فهي النفس سواء أسموها رغبة أو نفساً ، وبذلك يعود هذا على أصلهم بالنقض ، ويؤدي كلامهم إلى نقيض ما يدعون ، ويهدمون بيد ما يبنونه باليد الأخرى .

وإن كانت الرغبة خاصة من خواص الجسم ، ولا زمة من لوازمه ، فكيف تنتقل إلى جسم آخر ، وهي خاصة من خواص غيره ؟ ذلك يقتضى أن ينتقل الجسم مع رغبته الخاصة به ، لأنه من غير المعقول أن يوجد ملازم من غير ملزومه والخاصة من المختص بها .

لهذا كله نقول : إنكار بعضهم للنفس يتنافى مع اعتقادهم التناسخ الثابتة نسبته لهم ، والتوفيق بينهما يؤدي إلى أمور لا يقبلها العقل ، أو يؤدي إلى هدم أحد الأمرين : اعتقاد التناسخ أو إنكار النفس .

المذهب البوذي العملي :

الجزء الخصب في البوذية هو مذهبها في الأخلاق وإصلاح المجتمع وتخفيف ما فيه من شقاء ، فلقد لاحظ بوذا أن هذه الحياة تحوطها الأكدار والآلام من كل جانب ، بل إنها آلام تتبعها أحزان تشقق المرائر ، وتجعل كل إنسان في نغص دائم وبلبال مستمر ، ولاحظ أن منشأ تلك الآلام التي طم سيلها في هذه الحياة - اللذات والأمانى التي تبعثها الرغبات التي استحوذت عليها الملاذ والشهوات .

فاللذات في عقباها آلام ، وإن تطلعت النفس إليها وتمتبتها كان في الحرمان

منها آلام أيضاً . فلولاً انبعثت اللذات ما كانت الآلام ، ولولا استواء الأمانى
التي تبعثها اللذات ما كانت آلام الحرمان ، لذلك كان لابد لمحو الآلام القضاء
على أصلها ، والنبتة التي نبتت فيها ، وذلك يكون بالقضاء على اللذات وآمالها
وأمانها ، ولا يتم هذا إلا إذا راض الشخص إرادته على هجر اللذات جملة ،
ومجاهدتها ليكون للإنسان القدرة التامة ، فلا يناله الحرمان من لذة بمضض
الأم .

لهذا كله كان العباد الذى أقام عليه بوذا مذهبه فى السلوك القويم للإنسان أن
يمجاهد الشخص الشهوات ، ويروض إرادته والعود أخضر على اللذات والصبر
على الحرمان منها ، فلا يكون ألم .

ولكى يصل الشخص فى يسر ومن غير عنف ، إلى تلك الغاية السامية ،
وهى رياضة الإرادة لكى يتحمل الحرمان من غير ألم يصحبه ، يجب عليه
سلوك الجادة المستقيمة والممر الوسط ، وذلك بأن يكون فى حياته كلها مقيدا
نفسه بثمانية أمور فى كل شأن من شئون الحياة ، وتلك الثمانية هى :

(أ) الاتجاه الصحيح المستقيم ، بأن يتجه إلى أى أمر يريده اتجاهاً صحيحاً
مستقيماً خالياً من كل سلطان للشهوة واللذة ، وما تبعته من أمانٍ وأحلام
فاسدة ، فيجتهد عند الاتجاه إلى أى أمر فى أن يخلص إرادته من شائبة اللذات أو
الشهوات ، وما يتصل بها من آمال تبعثها وأحلام تثيرها ، وفى الجملة ينقى نفسه
من كل ما يتصل باللذة عند الاتجاه .

(ب) الإشراف الصحيح المستقيم ، وذلك أن الإنسان عند الاتجاه إلى أمر
من الأمور اتجاهاً مستقيماً خالياً من شوائب اللذات ، تعثره نورانية تجعله
يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء من غير أن يرنق نظره أى درن من أدران
اللذة ، ولا يرين على عقله ما تثيره من أهواء .

(ج) التفكير الصحيح المستقيم : وذلك أن العقل إن خلا من شوائب اللذة ، ونال الإشراق الصحيح كان تفكيره مستقيماً ، وكانت العمليات العقلية التي يقوم بها في التفكير في هذا الأمر مستقيمة لا تؤثر فيها نزعة هوى ، ولا جموح شهوة ، ولا اضطراب الأمانى والأحلام في قلبه .

(د) ولا شك أن هذه المستقيمات الثلاثة السابقة : الاتجاه المستقيم والإشراق المستقيم ، والتفكير المستقيم يترتب عليها أمر رابع مستقيم ، وهو اطمئنان العقل والقلب إلى فكرة خاصة من بين ما يعرض لها من الأفكار والآراء والأنظار . وذلك هو الإيمان المستقيم ، أو الاعتقاد المستقيم الذي يصحبه ارتياح واطمئنان ، وبه يصير القلب في روح وريحان من النعم المعنوى .

(هـ) والذي يتمم الأمور الأربعة السابقة لفظ مستقيم ، وذلك بأن يكون نطق الإنسان بما انتهى إليه من فكره مطابقاً تمام المطابقة لاعتقاده ، ولما ارتاح إليه ، وعمر قلبه بالسرور به .

(و) السلوك المستقيم : وذلك هو الأمر السادس الذي لا بد منه لسلوك الممر الوسط ، والسلوك المستقيم ما يكون مطابقاً لكل ما قام بالقلب من اعتقاد ، فيكون العمل على وفق العلم ، فلا مجافاة بينها ، ولا مناقضة ، بل يكون كل منها مؤكداً للآخر أو متمماً له .

(ز) الحياة الصحيحة : بأن يكون قوامها هجر اللذات هجراً تاماً ، وأن يكون كل ما يجري فيها متطابقاً مع السلوك القويم ، والعلم الصحيح ، ولا يشذ فيها شيء عن مقتضى هذا السلوك ، وأحكامه .

(ح) الجهد الصحيح : وذلك بأن تكون كل الجهود التي يبذلها الإنسان في سبيل أن تكون الحياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك ، والعلم والحق ، ومنع كل ماله صلة باللذات ، أو من شأنه أن يثير دواعيها ، ويحفز إليها .

هذه هي الأمور التي لو تمت على وجه مستقيم سار الشخص على الجادة ،
ونسلك الممر الوسط الذي يوصل إلى حياة سعيدة ، خالية من الآلام خلوها من
دواعيها ، وهي الشهوات واللذات .

وإذا كان في هذا الكلام شيء من الخير ، فهو في مقاربتة في بعض نواحيه
إلى ما يرمى إليه الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشيء
لا يحبه إلا لله » بأن يحب الشيء خالياً في محبته له من كل شوائب الأغراض
والأهواء قاصداً بمحبته وجه الله سبحانه وتعالى ، وذلك في جملة ما يقرب منه في
الاتجاه الصحيح ، وإن كان معنى الحديث أسمى ، وأدق ، وأحكم .

وإذا كان ما تقدم هو لب الفضائل البوذية ، وما تدعو إليه من مجاهدة
اللذات وبواعثها ورياضة الإرادة على تركها جملة ، فالرذائل ترجع إلى أصول
ثلاثة.. وهي :

(أ) الاستسلام للملاذ : فإنه يجعل الحياة كلها في ألم مستمر ، وفوق ذلك
يعكس نظر الأشياء في العقل والقلب ، فكل نظريكون مغشياً بغشاوة من الشهوات
والرغبات والأحلام الفاسدة ، والأمانى الكاذبة التي تبعث إليها اللذات الملحة .

(ب) سوء النية في طلب الأشياء : وذلك من استمكان اللذات في
النفس ، فإن الغرض الفاسد يتحكم في طلب الإنسان للأشياء ، فلا يصير
واضح المقصد بين الغاية لما له من مآرب يطلبها ويستترها ، وغايات تدفعه
ولا يبالها ، ويدفعه إلى الكتان رغبة نيلها ، وتوقع الاعتراك بينه وبين غيره فيها ،
لذلك يسود سوء النية ، فهو إذن وليد استمكان اللذة في القلب ، واستيلائها
عليه ، وهو أيضاً أصل لكثير من الرذائل كالغش والكذب والنميمة وغير ذلك .

(جـ) الغباء وعدم إدراك الأمور على الوجه الصحيح : وفي أكثر الأحيان
يكون ذلك منشؤه من رين الشهوات على النفس ، وسدها سبيل الإدراك

الصحيح ، فيصبح العقل لا يرى إلا ما تعكسه عليه ، ويمتنع على النفس الإشراف الذى ينشأ من التجرد من الملائ ، والإلهام الذى يكون من الشهوات . وقد ذكر فى كتب البوذية عشر رذائل ، جاء النهى عنها فى تلك الكتب على صورة وصايا ، وهى لو أخذ الشخص نفسه بها ، ورعاها حق رعايتها ، كان فى الأخذ بها استيلاء تام على الإرادة ، وتلك الوصايا .

(أ) لا تقتل أحداً ، ولا تقض على حياة حى .

(ب) لا تأخذ ما لا يقدم إليك ، فلا تسرق ولا تغتصب .

(ج) لا تكذب ، ولا تقل قولاً غير صحيح .

(د) لا تشرب خمرأ ، ولا تتناول مسكراً ما .

(هـ) لا تزن ، ولا تأت أى أمر يتصل بالحياة التناسلية إذا كان محرماً .

(و) لا تأكل طعاماً نضج فى غير أوانه .

(ز) لا تتخذ طيباً ، ولا تكلل رأسك بالزهر .

(ح) لا ترقص ، ولا تحضر مرقصاً ولا حفل غناء .

(ط) لا تقن فراشاً وثيراً ، فلا تقن أرائك فخمة ، ولا وسائل ولا حشايا

وثيرة .

(ي) لا تأخذ ذهباً ولا فضة .

هذه هى الوصايا العشر التى يأخذ بها البوذى ليروض إرادته على ترك الملائ ، والعكوف على المجاهدة وتهذيب الذات ، وتخفيف ويلات الحياة ، ومنها ترى أنهم يبحثون على عدم أخذ الذهب والفضة ، كأنها الأمر الذى تضل عنده الأفهام ، وتستيقظ حوله المطامع وكأنها مدخر اللذة ، لاستعانة الناس بها فى اجتراح اللذات ، واجترار الشهوات ، ولهذا النهى عن اقتناء الذهب والفضة قال العلماء : إن البوذية تحث على عدم الملك ، وتطالب البوذى

ألا يملك شيئاً ولا يقتنى شيئاً ، فهو يطلب طعامه يوماً بعد يوم ، ولا يدخر من يومه إلى غده .

ولقد كان هذا سبباً في أن ينقسم البوذيون إلى قسمين :
أحدهما : البوذيون الدينيون الذى أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لا يحدون عنها قيد أنملة ، وقيدوا أنفسهم بأنواع من الأطعمة لا يعدونها ، ويحرمون كل شئ غيرهما ، ولا يلبسون إلا خشن الثياب ولا يرضون إلا جشب العيش ، لما راضوا أنفسهم عليه ، من ترك كل لذات الحياة وراءهم ظهرئياً ، ليستولوا عليها ويمتنعوا عن آلامها .

ثانيهما : البوذيون المدنيون : وأولئك هم البوذيون الذين لم يطبقوا تطبيق المنهاج الشاق الذى أخذ به الدينيون منهم ، فاختاروا لأنفسهم طريقاً وسطاً ليس فيه إفراط غير البوذيين في اللذات ، ولا شدة البوذيين الدينيين بل هو وسط بين النجدين ، أخذوا الأخلاق البوذية من تواضع وإيثار ، وحب للفداء وصدق وأمانة وحلم وعلم وصفاء ، ونالوا بعض الملاذ التي لا تعقب ألماً ، ولم يندفعوا فيها حتى يصابوا بألم عند الحرمان^(١٤) ، وفي الوقت الذى سلكوا فيه هذا المسلك آووا إخوانهم الدينيين ، وأعانواهم على طريقتهم ، وأمدهم بالأسباب التي تعاونهم على الإيغال في مذاهبهم ، معتقدين أن من آمن ببوذا ، وتحلى بما يدعو إليه من أخلاق وآوى رجال دينه ، وأعانهم ثم تناول بعد ذلك بعض متع هذه الحياة ، فإنه يصل إلى طريق الخلاص ، ويرقى إلى مرتقى السعادة والنجاة .

ما بين البرهمة والبوذية : يتبين مما مضى أن البوذية لم تكن بالبحث عما وراء

(١٤) ولقد اكتفى المدنيون بأن يطعموا من النواهي العشرة المتقدمة الخمسة الأولى فقط وهي النواهي عن السكر والزنا والقتل ، والسرقه ، والكذب ، أما الخمسة النواهي الأخرى فهي خاصة بالتدنيين .

الطبيعة ، فلم تتجه إلى الدراسات التي تتصل بالألوهية ، وحدود سلطانها بل كل عنايتها كان لإصلاح الإنسانية بإنقاذها من الآلام ، وإبعادها عن ويلاتها .
رياضة الإنسان على هجر اللذات ، وتربية الإرادة على إهمالها وعدم العناية بها على ما تقدم ، وهذا كما ترى فارق بين البوذية والبرهمية ، فإن البرهمية كانت فيها العناية الكبرى بالجانب الإلهي . والتقرب للمعبود ، والفناء فيه ، وكل ما فيها من نسك فهو لهذه الغاية ، فإذا اتحدت البوذية والبرهمية في النسك والزهد في الملاذ وهجرها ، فالغاية مختلفة ، فغاية البرهمي الزلفي والتقرب للمعبود وإعطاؤه ما يستحق من عبادة ، أما البوذي فغايته من النسك رياضة الإرادة على الحرمان ، وتعويدها السيطرة على الرغبة في الملاذ ، لكيلا تشقى بطلبها ويحز فيها الحرمان .

ولقد كان أبلغ ما أحدثته البوذية من أثر في المجتمع الإنساني ، إلغاؤها نظام الطبقات واعتبارها بنى الإنسان سواسية كأسنان المشط يتفاضلون في المواهب ، ويتساوون في الحقوق ، لا فرق بين شخص وشخص بنسبه أو طبقته ، ولكن الفرق بينهما بالموهبة والقدرة والعمل . محابوذا إذن الفرق بين الطبقات وتلاقى الناس في مذهبه عند الوحدة الإنسانية ، من غير اعتبار للاختلاف العنصري ولا فضل لأحد إلا بالمعرفة وسيطرة الإرادة الإنسانية سيطرة تامة ، لا تقوى اللذات على الغلب عليها .

كتب البوذية : كتب البوذيين ليست منزلة ، ولا يدعون ذلك هم ، بل هم لا ينسبون ما فيها إلى جانب إلهي ، بل هي عبارات منسوبة إلى بوذا أو حكاية لأفعاله أو نقل لما أقره من أعمال أتباعه ونصوص تلك الكتب مختلفة بسبب انقسام البوذيين في نحلهم ، فبوذيو الشمال لديهم نصوص ليست عند أهل الجنوب ، وأكثرها قد اشتمل على أوهام كثيرة ، تتعلق ببوذا ، أو حلول الإله

فيه ، ونصوص بوذي الجنوب هي الأصح نسباً ، والأصدق قولاً والأبعد عن الأوهام ، وهي التي نعتمد على بيانها .

تنقسم تلك الكتب إلى ثلاثة أنواع :

أولها : يشتمل على مجموعة قوانين البوذية ومسالكتها ، وقد جمعت تلك المجموعة سنة ٣٥٠ ق . م ، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

قسم يحوى العقوبة المفروضة على ما يقع من البوذى من ذنوب ومخالفات ، ويحوى نحو سبع وعشرين ومائة فقرة .

وقسم يحوى التعاليم التي يجب اتباعها لتربية النفس على ما يدعو إليه البوذيون ، وفيه قرارات المجالس البوذية التي انعقدت فيما بين سنتي ٣٨٠ و ٣٢٠ ق . م وفيه أيضاً بيان بما يتبع لقبول طالبي البوذية واجتماعات البوذية ، وتفصيل حياة البوذى .

وقسم فيه خلاصة القسمين الماضيين ، لكونه فى متناول الجماهير ، وفيه خلاصة للسلوك القويم الذى يدعو إليه البوذيون .

ثانيها : مجموعة الخطب التي ألقاها بوذا ، ووصاياه ، وهي مجموعات مختلفة تضم كل مجموعة طائفة من المسائل المتقاربة فى الفكر ، وفى هذه الخطب وصايا بوذا ، ودعواته التي وجهها إلى الناس وكثير من الأحكام التي تتصل بالبوذية مما يجب على البوذية سلوكه ، وكل هذه الخطب والوصايا تنسب لبوذا .

ثالثها : الكتاب الذى يحوى بيان أصل المذهب ، والفكرة التي نبع منها ، وبعبارة أدق فيه الفلسفة التي قامت عليها الديانة البوذية ، والأصل الذى استنبطت منه تعاليمها ، وفيه بحوث تدور حول الخير والشر ، واللذة والألم ، وفى الجملة نرى فى كتب البوذية كلاماً خصباً قيماً فيه بيان للأخلاق والسلوك القويم ، وقد ترجمت إلى اللغات الحية وكانت مادة لدراسات فلسفية خلقية .

خلاصة القول عن النفس ، خلودها ، وتناسخ الأرواح عند البراهمة

النفس في نظر البراهمة^(١٥) : جوهر خالد صاف عالم مدرك تام العلم والإدراك ما دام منفصلاً عن الجسد ، فإذا فاض على الجسد واتصل به اعتكر صفائوه ، ونقص علمه ، ولذا يقول باسديو كما نقل البيروني « إذا تجردت النفس عن المادة كانت عالمة ، فإذا تلبست كانت بكدرتها جاهلة ، وظنت أنها الفاعلة ، وأن أعمال الدنيا معدة لأجلها . فتمسكت بها ، وانطبعَت المحسوسات فيها ، فإذا فارقت البدن كانت آثار المحسوسات فيها باقية ، فلم تنفصل عنها بالتمام ، وحنّت إليها وعادت نحوها .

وهذه النظرية التي تقرر أن النفس عالمة قبل اتصالها بالجسم تقارب نظرية أفلاطون في المثل العليا في النفس ، وربما كانت أصلاً لها ، فالعلم لا يقع في قبضة أحد ، بل هو ينتقل في البلاد والأمم تنتقل الرياح والأمطار فيها ، لا تقف دونه الحاجزات ، ولا تسد الطريق عليه سدود من حدود وحصون .

والنفس عندهم خالدة باقية لا يعرفونها الفناء . ولا يتطرق إليها البلى ، ولقد صرحت بذلك كتبهم ، وهذا ما نقله البيروني يشهد بما نقول : قال باسديو لأرجن يحرضه على القتال . وهما بين الصفين : إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ، ولا نحن بموتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه ، فإن الأرواح غير مائنة ولا متغيرة ، وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى

(١٥) الشيخ محمد أبو زهرة - مقارنات الأديان - الأديان القديمة .

الشباب والكهولة ، ثم الشيخوخة التي عقباها موت البدن ، ثم العود له . وقال له أيضاً : « كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة ، ولا إلى تلف وعدم ، بل هي ثابتة قائمة ، لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ، ولا ريح تُوسسها ، لكنها تنتقل من بدننا نحو آخر كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق ، فما عملك لنفس لا تبید . »

ومن هذا النص يفهم أن عقيدتهم في النفس أنها لا تبید ، وأنها تنتقل من جسم إلى جسم ، ومن ذلك جاء اعتقادهم في تناسخ الأرواح ، وهو الطابع الذي امتازت به الديانة البرهمية ، حتى لقد قال في ذلك البيروني : « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية ، والأسبات علامة اليهودية ، كذلك فإن التناسخ علم النحلة الهندية من لم يتحلله لم يك منها » .

وقد قامت عقيدة التناسخ عندهم على دعائم ثلاث :

الدعامة الأولى : اعتقادهم خلود الأرواح .

الدعامة الثانية : اعتقادهم أن الروح بعد مزاولة الجسم تكون في حنان دافع إلى الأجسام ، لما انطبع فيها من المحسوسات ، وأثر فيها من الماديات ، وإن كان ذلك التأثير قد عكس صفاءها ، وكدر نقاءها .

الدعامة الثالثة : أن النفس في بقائها في الجسم تحيط علماً بالجزئيات وإن كان علمها بالصورة الكلية ثابتاً لها ، وهي في تنقلها من جسم إلى جسم تستفيد من كل جسم علماً جديداً بجزئيات لم تكن تعلمها ، فليس من المعقول أن تحيط بكل الجزئيات علماً يبقاها أمداً قصيراً في جسم واحد ، ولذلك « احتاجت إلى تتبع الجزئيات واستقراء الممكنات ، وهي وإن كانت متناهية عددها كثير والإتيان على الكثرة وإحصاؤها علماً يحتاج إلى فسحة في الأمد ، ولذلك

لا يحصل ذلك العلم للنفس إلا بمشاهدة الأشخاص والأنواع ، وما يتناوها من الأفعال والأحوال ، حتى يحصل لها في كل واحد تجربة ، وتستفيد بها جديداً في المعرفة » (١٦) .

لهذا كله كانت الأرواح تتنقل في الأجسام ، وتنقل مندرجة في الرق من جسم إلى جسم حتى تصل إلى الكمال المطلق ، وتكون في صف الروحانيات المتجردة : وهي الملائكة وتكون غير محجوبة عن التصرف في السموات والأرض ، وتدبير الكون .

وإذا كانت الروح قد ارتكبت خطيئة في أثناء حلولها في أحد الأجسام أركست في حيوان دون الذي كانت فيه ، لتكفر عن خطيئتها ، وتطهر من سيئاتها ، ثم تسير قدماً إلى الرقي ، لا يعوقها عن بلوغ أوجه إلا خطايا تتأثم بها ثم تتطهر . وتستمر كذلك حتى تصل إلى الملكوت الأعلى مع الملائكة في أعلى عليين ، وتتجرد عن الغلاف الجسمي ، وقد يكون تدرجها إلى أدنى ، فتتهوى إلى جهنم على حسب الأقوال عندهم .

ولعقيدة التناصح التي استولت على الفكر الهندي وأثرت فيه - كانوا يعتقدون أن الروح الواحدة تحل في عدة من الأجسام ، وأن الشخص رُبما تكون روحه قد حلت في مئات الأجسام قبله ، ويحكى البيروني عن ملك من ملوكهم ، « أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته في موضع لم يحرق فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعاً كذلك ، فأعياهم ، حتى وجدوا صخرة من البحر ناتئة ، فظنوا أنهم ظفروا بالبغية ، فقال لهم باسديو : إن هذا الملك أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون ، فإنما قصد إعلامكم وقد قضيت حاجته » .

(١٦) ما للهند من مقولة للبيروني .

الحياة الآخرة :

من عادات الهنود الدينية أن أجسام أكابرهم تحرق بعد الموت ، وذلك لأن النار في اشتعالها تعلقو شعلتها إلى أعلى بخط عمودى على أفق الأرض ، والعمود أقرب المستقيمات بين السطوح والخطوط ، ولذا تتجه الروح بهذا الاحتراق إلى أعلى ، سائرة باتجاه عمودى ، فتصعد إلى السماء فى الملكوت الأعلى فى أقرب زمن . هذا سبب من أسباب حرق أجسام كبارهم بعد موتهم . وهناك سبب آخر ، هو أن فى الاحتراق تخلصاً للروح من غلاف الجسم تخلصاً تاماً ، وذلك أن فى الجسم نقطة بها يكون الإنسان ، وهى متلبسة بالجسم متصلة به ، فلا تخلص منه إلا باحتراق أمشاجه وصورته ذرات صغيرة بالاحتراق ، فعندئذ تخلص تلك النقطة وهى معنى الإنسان ، وتخلصها تخلص الروح من الجسم ، وتعلق عنه لتصل بجسم آخر أو لتسمو إلى درجة الملائكة ، إن كانت قد وصلت إلى درجة الخلاص .

وإذا تخلصت الروح من الجسم كان أمامها ثلاثة عوالم : أولها العالم الأعلى ، وهو عالم الملائكة ، تصعد إليه الروح إن كانت بعملها تستأهل الصعود إليه ، والخلاص من الجسم ، والسمو إلى الملكوت الأعلى ، والعالم الثانى من عالم الناس ، وهو عالمنا الحاضر معشر الآدميين ، والنفس تعود إليه بالحلول فى جسم إنسانى آخر لتكتسب عمل خير ، ولتجتنب عمل شر ، إذا كانت أعمالها فى الجسم الأول لا ترفعها إلى مراتب التقديس فى أعلى عليين ، ولا تنزل بها إلى أسفل سافلين فى العالم الثالث وهو عالم جهنم، وهذا العالم يكون لمرتكبى الخطايا الواقعين فى الذنوب، وليس هناك جهنم واحدة، بل لكل أصحاب ذنب جهنم خاصة بهم، فالمدعون على غيرهم حقوقاً كاذبة وشهود الزور لهم جهنم

خاصة بهم ، وسافك الدم وغاصب حقوق الناس والمغير عليهم وقتل البقر لهم جهنم خاصة بهم ، وقتل البرهمن وسارق الذهب لهم جهنم خاصة ، والذي يرد قول أستاذه ولا يرضاه ، ويستخف بالناس ويستهن بالكتب المقدسة أو يكتسب بها في الأسواق لهم جهنم أيضاً خاصة ، وهكذا لكل صنف من الآئمين جهنم بمقدار يتناسب مع ذنبهم ، ومقدار ما فيهم من فسوق على الدين وخروج من حظيرته .

ثم هل جهنم دائمة وكذلك الجنة ؟ منهم من يرى أن الجنة نزلها دائم ، وأن الجحيم كذلك ، وأنها للجنة أبداً أو للجحيم أبداً ، على مقدار ما قدم الشخص من عمل ، فإن كان العمل في الحياة لا يرفع إلى الجنة ولا ينزل إلى الجحيم أعيدت الروح إلى جسم آخر ، لتعمل ما يعلها أو يردبها .

ومنهم من يرى أن طريق الاكتساب هى الإنسانية وحدها ، وأن التردد فيها مكافأة قاصرة عن درجة الثواب والعقاب الأخرى ، أما الجنة فإنها فى علوها تكون للنعم الذى يستحقه من قدم عملاً حسناً ، ويكون البقاء فيها إلى أمد محدود ، وإذا كان العمل الإنسانى إنمأً وخطيئة تردت روح الشخص فى الحيوان والنبات وعقاباً لها على ما اجتاحت من سيئات وقدمت من خطايا ، وبقيت فى ذلك أبداً حتى تتطهر مما اجتاحت ، وليست جهنم إلا هذا التردى عند هؤلاء ، فالجنة والجحيم ليستا أبديتين عند هؤلاء ، بل هما مؤقتتان بهذا التأقيت ، بعدها تصعد الروح درجة إلى العالم العلوى أو تنزل إلى المرتبة الإنسانية .

وكلا الرأيين يسير على مناهج تناسخ الأرواح ، وإن اختلفت أنظارهم فيه ، ومهما يكن من خلاف فى هذا المقام فالملتفق عليه أن البعث فى العالم الأخرى إنما هو للأرواح لا للأجساد . فالروح إما فى روح وريحان ، وإما فى شقوة وجحيم على نحو ما بينا . « انتهى كلام الشيخ أبو زهرة » .

الروح عند الإغريق والرومان (١٧)

إذا انتقلنا إلى الإغريق وجدناهم في أزهى أيام نهضتهم الفلسفية العظمى يكثرون من الحديث عن الأرواح ويصفونها بالآلهة . ومن هنا كثرت أساطيرهم عن آلهة الحكمة ، وآلهة الجمال ، وآلهة الحب والخمر والصيد والحرب ... وتحدث أكبر فلاسفتهم وشعرائهم ومؤرخيهم عن الأرواح كحقيقة واقعة لا تثير شبهة . ومنهم بوجه خاص سقراط وأرسطوطاليس وأفلاطون وسوفوكليس وهوميروس ويوريديز وفرجيل وبلوتارك وهيرودوت وبطليموس وهوراس ويوسفوس وماكرسيموس أوف تير وتاليس (١٨) ... وغيرهم .

وكانت لنحلتنا الأورفية والفيثاغورية تؤمنان بخلود النفس ، وتعتقدان أنها جوهر إلهي نزل وسكن في الجسد ، أو بالأدق سجن فيه ، ولا بد أن تقضى النفس مدة العقوبة قبل أن تغادر الجسد (١٩) .

وكان سقراط يؤمن بخلود النفس ، وعندما حكم عليه بالموت صرح لاثنين من أتباعه هما سيمياس (Simias) وسييس (Cébes) قائلا : « نعم إني أعترف أنه لولا اعتقادي أنني سوف أذهب أولا صوب آلهة أخرى حليلة ورحيمة ، ثم بعد ذلك نحو رجال ماتوا هم أفضل من رجال هذه الحياة الدنيا ، لكان من الخطأ الفاحش ألا تثور نفسي ضد الموت ... » . وهذه الواقعة رواها أفلاطون

(١٧) عن كتاب الإنسان روح لاجسد للدكتور رموف عبيد .

(١٨) كان تاليس يقول إن العالم مشحون بالأرواح والشياطين ، وأنهم يتجولون بين أيدينا ومن خلقنا وأنهم يرونا برغم أننا لا نراهم ، وتاليس هذا من فلاسفة القرن السابع قبل الميلاد .

(١٩) راجع عن النحلة الأورفية كتاب « في عالم الفلسفة » للدكتور أحمد فؤاد الأهواني .

عن سقراط في محاوره فيدون .

كما يروى أفلاطون عن سقراط أن أستاذه كان يعتقد أن الفيلسوف الحق هو ذلك الذى لا يشغله عن التفكير في الموت شاغل ، إذ أن الموت هو وسيلة تحرير الفكر ، وأن النفس لن تستطيع أن تدرك شيئاً على حقيقته إلا إذا قطعت كل صلة تصلها بالجسد ، فهو عائقها عن المعرفة الحقة ، وهو عاجز عن تفهم معانى العدل والخير والجمال « إذ طالما بقيت لنا أجسادنا . وظلت نفوسنا مختلطة شديد اختلاط بذلك الشيء الردىء ، فإننا ندرك موضوع رغبتنا إدراكاً كافياً ، وإن هذا الموضوع لهُوَ الحقيقة ... » (٢٠)

ولذا كان سقراط يؤمن أن الفيلسوف الحق هو ذلك الذى ينبغي أن يطلب الموت ، ويعتقد العامة أن اتصال النفس بالجسد حياة وانفصالها عنه موت ، ولذا يخافون الموت مع أن حياتهم في حقيقتها موت . وموت الفلاسفة في حقيقته حياة ، لأن الإنسان العامى يتعلق بمطالب الجسد ويغفل مطالب النفس وهما العلم وطلب المعرفة . فهو ذو نفس ميتة ولو كان على قيد الحياة ، أما الفيلسوف فيعد نفسه للحياة عن طريق الموت وذلك بأن يعمل على استقلال النفس عن البدن ومطالبه بالزهد فيها وبالبحث عن المعرفة . لا عن طريق الحواس الخداعة ، بل عن طريق العقل والفكر ، والبحث عن الوجود الحقيقى في الحق والخير والجمال والشكل والصحة .

كما كان سقراط كثيراً ما يبرهن على خلود النفس بعد الموت ، وعندما صدر الحكم الظالم بإعدامه قال « إني لمغبط بهذا الموت كل الاغبط لأن الإله (يقصد روحه المرشدة التى كان يصفها بهذا الوصف على طريقة الإغريق) لم يعطنى إشارة سيئة عندما برحت دارى ، ولا عندما اعتليت هذه المنصة كما

أتولى الدفاع عن قضيتي ، ومن عادة الإله أن يعطيني هذه الإشارة السيئة كلما هددني شرماً . وأخذ سقراط قرب احتضاره يبين لأتباعه كيف أن للأشياء عوداً على بدء ، فالحياة يتبعها الموت والموت تتبعه الحياة .

وكان سقراط يعتقد أيضاً أن لكل روح روحاً تحفظها وتلهمها ما قد ينفعها في دنياها ، وعليه فمن الجائز أن يقوم الأحياء بمخاطبة الأرواح في أثناء وجودهم في هذا العالم . كما كان يؤكد أن روحاً كانت تخاطبه وترشده في أمور دنياه منذ كان طفلاً صغيراً . وكان يسمع صوتها ويأتمر بأمرها حتى بعد أن أصبح رجلاً كبيراً^(٢١) . وكان سقراط يعتقد أيضاً بأن إلهاً خيراً يعين الناس عندما يكونون في شك من أمر مستقبلهم ، ولذا كان ينصح أصدقائه باستشارة الوحي ولا سيما وحي « دلفي » عندما كان معبدها مع معبد « دودونا » من أهم مراكز التنبؤ عند الإغريق ، بفضل تفوهات الغيبوبة التي كانت تصدر عن كاهنات المعبد^(٢٢) .

وتولى أفلاطون بعد سقراط إضافة الأدلة الفلسفية الكثيرة على خلود النفس ، مثل برهان الحياة والحركة ، وبرهان الضدين ، وبرهان التذكر ، والبساطة والتركيب ، والبرهان الخلقى ، بما يضيق المقام عن ذكره ، ويكفى مثلاً أنه في برهان الضدين يقول : « إن صلة الحياة بالموت لشديدة الشبه بتلك العلاقة التي توجد بين اليقظة والنوم . فكما أن المرء ينتقل من اليقظة إلى النوم ، ومن النوم إلى اليقظة ، كذلك ينتقل من الحياة إلى الموت ، ومن الموت إلى الحياة . والانتقال من أحد الضدين إلى الآخر أمر لا مفر منه ، إذ لو كان الانتقال في اتجاه واحد فقط لاختل التوازن في الطبيعة .

(٢١) راجع كتاب بونيمر « الروح ومظاهرها خلال التاريخ » .

(٢٢) راجع كتاب « التنبؤ بالغيب قديماً وحديثاً » للأستاذ أحمد الشنتاوى ص ١٨ - ٢٢ .

ويرتّب على ذلك أنه من الواجب أن تظل نفوس الموتي حية في مكان خاص حتى تكون منبعاً ومبدأ لكل حياة جديدة. ولولم يكن هناك انتقال من الموت إلى الحياة لانهى كل ما في الوجود إلى العدم ، كما هي الحال تماماً لو استقر المرء في نومه إلى ما لا نهاية » (٢٣) .

ومحاورة فيدون -- وهي من أمتع ما كتب أفلاطون - تمثل ليلة إعدام سقراط ومحورها خلود النفس . ويشير إليها أفلاطون في الخطاب السابع قائلاً : « فإذا كانت النفس إلهية خالدة فليس لها أصل نشأت عنه ولا تخضع للفساد ، وإذا كانت النفس إلهية فعلياً أن تتعلق بها وحدها ، لأن الفلسفة هي الشبه بالإله بقدر الطاقة الإنسانية . ولكن الإنسان ليس نفساً فقط ، بل هو نفس وبدن ، ولكل منهما مطالب ، ولذلك يكون الإنسان مادام على قيد الحياة ومتصلاً بالبدن حكيماً محباً للحكمة أى فيلسوفاً فقط ، وإذا انفصل عن البدن عند الموت بلغت النفس الحكمة . فالموت للرجل الصالح مطية لحياة أفضل لأنها حياة النفس » (٢٤) .

وكان أفلاطون يعتقد أيضاً أن الموت هو الوسيلة التي بها يتيسر للفيلسوف أن يفكر جيداً » وذلك لأن حياة الفيلسوف عند أفلاطون هي حياة متجهة دائماً إلى تأمل الصور أو المثل ، ولا يتيسر تأمل الصور تأملاً حقيقياً ما دامت النفس سجيناً في البدن ، فلا بد من الخلاص من البدن - أى لا بد من الموت - حتى يكون في مقدور المرء أن يتأمل الصور دون أن يشوه عليه هذا التأمل مشوه . فكأن الموت في نظر أفلاطون إذاً جسراً ومعبراً يتقلّبنا من حياة النفس في البدن

(٢٣) عن كتاب « في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام » للدكتور محمود قاسم طبعة ٣

ص ٥٤ .

(٢٤) عن كتاب « أفلاطون » للدكتور أحمد فؤاد الأهواني ص ٩٢ .

إلى عالم الصور . فهو ابتداء أولى من أن يكون نهاية ، لأنه ابتداء للحياة الروحية الحقيقية ، حياة النفس ، حياة تأمل الصور ، هو على وجه العموم باب يفتح على الأبدية ... » (٢٥) .

كما كان أرسطو يتحدث عن العقل فيرى شيئاً خالداً مستقلاً عن الجسد . وكان يعتقد بالتالي بوجود عالم عقلي مغاير لعالم الحس والمادة « ولا يستطيع المرء القول بأن هذا العقل يفكر تارة ولا يفكر تارة أخرى . فتى فارق الجسد فإنه يصير على غير ما كان عليه ... وهو وحده الذى لا يموت وهو الخالد .. فى حين أن العقل قابل للفساد » (٢٦) .

وهذا الرأى يوافق ما يقول به علم الروح الحديث من أنه وإن كانت الذاكرة تبقى بعد الموت ، إلا أنها لا تبقى فى كل جوانبها بل يلحقها نوع من التغيير يمس جوانبها السطحية ولا يمس الذكريات العميقة الدفينة فيها . أو بعبارة أخرى أن الذاكرة تبقى على حالها بقدر اتصالها ببقاء الشخصية بعد الموت ، ولا تبقى بقدر بعدها عن هذه الشخصية . لذلك كانت أحسن البينات على ثبوت بقاء الشخصية هو ما يحىء عرضاً ، أما امتحان الروح فى ذكرياتها الأرضية فقد ينجح أو لا ينجح بحسب قوة هذه الذكريات ، وعمق ما تركته من أثر فى العقل الباطن . وفى هذا الموضوع بحوث كثيرة أضاءت بعض جوانب ما قد يتبقى من الذاكرة بعد الموت ، وما قد يندثر منها ، بعد انسلاخ الجسد الأثيرى - وهو موطن العقل والذاكرة - عن الجسد المادى .

وقد تحدث فى هذا الشأن أيضاً إسكندر الأفروديسى - وهو من شراح أرسطو - فذهب إلى أن العقل الفعال « ليس من أجزاء النفس ولا من

(٢٥) عن « الموت والعبرة » للدكتور عبد الرحمن بدوى طبعة ١٩٦٢ ص ١٥ ، ١٦ .

D. Anima III 340-A-20-25. (٢٦)

وظائفها ، بل هو الإله الذى يتمثل فى نفوس البشر ، ويحل محلهم فى تفهم معانى الأمور وصنع المعقولات .. وهو غير قابل للفساد ، بل هو كائن إلهى خالد ، بل هو الذى يخلق العقل بصفة خاصة » .

وفعل مثله تمستويس (Themistuis) وهو أيضاً من شراح أرسطو ، الذى كان ينكر أن أرسطو كان يرى أن العقل الفعال هو الله الذى يفكر فى نفوس البشر ، لأن هذا العقل جزء منا ، أو هو حقيقتنا بعبارة أوضح . كما كان يرى أن العقل المادى بدوره غير قابل للفساد ، وينسب إلى أرسطو أنه يتحدث فحسب عن فناء العقل المشترك الذى يكون به الإنسان مكوناً من نفس وجسد ، والذى هو محل الانفعالات كالغضب والشهوة (٢٧) .

وهذا الفهم الإغريق لخلود الروح ، ولقيمه المعرفة فى سعادتها ، وللتمييز بين موت الجاهل وموت العالم ، ولوجود عالم عقلى مغاير لعالم المادة ، وصل إليه أحسن فلاسفة الإغريق بالفطرة السليمة وحدها ، أو بالأدق بالإلهام الراقى وحده ، ولم يفعل علم الروح الحديث أكثر من إثباته بأدلة تجريبية على ما سبلى فى عدة مواضع ، وبخاصة فى الموضع الذى خصصناه للكلام فى وصف عالم الروح ، وفى الثواب والعقاب .

وكان الرومان يعرفون الروح أيضاً ويتحدثون عنها ، لكن بطريقة لا تعد شيئاً إلى جانب عمق طريقة الإغريق . لأن حضارة الرومان كانت محض حرب واستعباد للشعوب . فسرعان ما تقوضت أركانها غير مخلفة وراءها سوى المآسى والدماء ، على حين، خلفت حضارة الإغريق تراثاً روحياً فلسفياً ، لا يزال العالم يستضيء بنوره حتى الآن ، ولا يزال يهر أبصار الفلاسفة والمفكرين برغم قدم العهد به .

ومع ذلك فهي هومثلا شيشرون Ciceron (٢٨) خطيب الرومان ومشرعهم المعروف يقول في خطبة له « أليست غالبية السموات مملوءة بالبشر؟ هؤلاء الآلهة أنفسهم نشأوا هنا في الأسافل ثم صعدوا إلى السماء » هذا وقد عالج شيشرون هذا الموضوع في مؤلفه ، عن « طبيعة الآلهة » (٢٩) التي يقصد بها الأرواح على النحو الذي كان معروفاً عند الإغريق ، والذي يبدو أنه انتقل إليهم من مصر. ويسلم شيشرون في مؤلفه هذا بأن الإيمان بالآلهة أو بالأرواح شائع لدى جميع الفلاسفة ، بل لدى الجاهل والأमीين أيضاً ، وأنه مغروس في عقولنا أو بالأدق فطري فينا .

الروح في العقيدتين الموسوية والمسيحية

كان الدين الموسوي زمان ظهوره ثورة روحية . وصاحبها ينقل الرسالة عن الرب لقومه ، وهكذا رسمت تعاليم معينة محددة يتعين مراعاتها ، وهي تجعل من الرسالة حقيقة واقعة وليس هناك حلقة مفقودة هي الروحانيات والخيالات ، بل الرسالة دعوة واقعية ، ينقل داعيها الرسالة من الرب ويبلغها لقومه (٣٠) . والإنسان في نظر اليهودية له إرادة حرة مختارة ، وهي ترفض كل وسيط بين الله والإنسان ، فأهم ما ورد في الرسالة الموسوية هو فكرة التوحيد . والفرد فيها

(٢٨) نكتفي بإيجاز رأي شيشرون باعتباره كما سبق القول خطيب الرومان ومشرعهم .

On the Nature of the Gods. (٢٩)

(٣٠) يروي الأستاذ Beck أستاذ العلوم العبرية بجامعة برلين في كتاب أديان العالم بعض العبارات المقدسة في العبرية يفيد المعنى ومنها : « وهكذا خاطبني الخلود قائلا : لا تقل إلى صغير السن لأداء الرسالة ، ستذهب إلى كل مكان أبعث بك إليه وستقول ما أمرك بقوله » .

وحدة في ذاته وعليه أن يخدم ربه بكل قواه ، فخالق العالم هو أقوى ما في الوجود وهو فوق كل العوالم . كذلك فإن الخلود حقيقة ثابتة ، وتعتبر إحدى الصلوات الإسرائيلية القديمة عن ذلك فتقول ما معناه : « ربى إن الروح التي منحتني إياها طاهرة نقية وهى نفخة منك فى نفسى » (٣١) .

وفى المثل الموسوية ما يفيد أن الرب يخلق الروح طاهرة ، ثم تتلوث بعد ذلك بالذنوب والمعاصي . أما حين نتحدث عن الروح فى العقيدة المسيحية فنقول : إن العقائد القديمة كانت محلية تتعدد فيها الآلهة الوثنية ، حتى حاول الأباطرة تحويلها إلى عبادة الدولة ممثلة فى الإمبراطور . لكن اليهودية كان لها مع المسيحية شأن آخر عند نشأتها فن فئة الفريسيين (إحدى الفئات الانفصالية اليهودية) كان أكثر أتباع المسيح كبولس وغيره ، وفى فترات الظلم والاضطهاد كان أمل الفريسيين فى مجيء المسيح يتزايد .. فقد كانوا يرجون تدخل من الرب يمحى السلطة الرومانية الغاشمة ، ويقمى ملكوت الله الذى تبعث فيه اليهودية من جديد ، تحت حكم ملك من نسل داود .. وجاءت المسيحية بنظرية جديدة سفهت كل قيم الأشياء الأرضية إذا قورنت بالأشياء السماوية .. وما لبثت هذه العقيدة الجديدة بعد ثلاثة قرون ، أن كسبت قانوناً أصدره الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٣ م ، أباح فيه لجميع رعايا الإمبراطورية - ومن بينهم المسيحيون - أن يعبدوا من يشاءون .. وما أن حل القرن الخامس حتى غدت الإمبراطورية مسيحية لحماً ودماً .. ولكن المطامع والأهواء جاءت مع الفوز ، فزعمت الدولة أن من حقها الإشراف على الكنيسة ، وأنها فى ذلك لا تطلب إلا ما كان

(٣١) كتاب مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية والسياسية - د . أحمد عبد القادر الجلال . ص ١٠٩

هامش .

لها من حق على العبادة الوثنية (٣٢) ، وانتهى النزاع بانتصار الكنيسة. لكن ذلك لم يدم طويلاً إذ انقسمت المسيحية إلى كنيستين : الشرقية ومركزها اليونان ، والغربية ومركزها روما .

وفي سنة ٣٢٥ م عقد مؤتمر ديني انتهى إلى القول بتأليه يسوع ، ونال البابوات ما كانوا يحملون به من سيطرة وأفانين الطمع والخصومات ، فكانت حركة الإصلاح الديني إلى أن تألف دستور الكنيسة في مؤتمر ترانت الديني سنة ١٥٥٠ م .

ويقول حبيب سعيد في كتابه مقدمة عشرون قرناً .

« جاء الدين النصراني بآمال واسعة ، فقد وعد الضعفاء والمحرومين والبائسين في هذه الدنيا بجنة ذات نعم أبدى ، حيث يتساوى الفقير والغنى ، فبينما كانت الحياة الدنيوية أهم ما يعنى به الإغريق والرومان ، صارت الحياة الآخرة الغاية الوحيدة لآمال النصراني الذي كان يعد الدنيا ممراً للحياة السماوية ، لذلك ملكت السعادة الأبدية أفكاره .. ولكي ينال النصراني هذه السعادة ويتجنب جهنم فقد رضى بأسوأ زهد .. رضى بالفقر والرهابية » . وهذا الرضا بالفقر والرهابية هما علامتا فشل المسيحية عند التطبيق العملي ، لأنها بذلك تتطلب من البشر فوق ما يطيقون احتماله ، ولأن كبت النزاع الفطرية على هذه الصورة أمر مستحيل ، كما أن قتل الغرائز وإرهاق الجسد بالحرمان والتعذيب الدائم خلاصاً من الضغوط الملحة ليس له إلا أحد أمرين أن ينقطع الإنسان مترهباً بعيداً عن الحياة والأحياء .. وما هكذا يريد الله ولا بهذا تعمّر الأرض ، أو أن يسقط الإنسان من طول المقاومة فينحرف إلى غير عودة ..

(٣٢) من مقدمة عشرون قرناً ، للأستاذ حبيب سعيد .

ذلك أن المسيحية في تطبيقها العمل مخالفة لطبيعة الحياة والأحياء (٣٣) : فالجسد في المسيحية كما في الهندوكية محترم مهين ، ولا يتزع لغير الشر ولا يتبع عن إطاعة شهواته إلا الشقاء الأبدى ، ومن ثم فإن طريق السعادة الأوحد وهو قهر الجسد وكبت الشهوات .. فالطريقة المثلى للتطهر من غريزة الجنس في المسيحية هي عدم الزواج ، والانقطاع عن هذه الشهوة التي تهبط بالروح .. لذا فإن الصبي المسيحي ينشأ وفي نفسه عقد تستنكر الجنس وتستقذره . فإذا بلغ مبلغ المراهقة بدأ الصراع ثم لا يكف أبداً . حتى لو تزوج الفتى وبدخله كل هذه العقد .. وأى كارثة كانت تصيب الإنسانية لو أن كل البشر اعتزلوا الحياة وسجنوا أنفسهم خلف الصوامع والأديرة .. إذاً لانقطعت الحياة بانقطاع النسل .. كذلك فإن التعاليم المثالية تقول : « إذا ضريك أحدهم على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » . و« إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك ، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى بذنك كله في جهنم » . وجميل حقاً أن تنتشر هذه التعليمات ولكن أين هي في الحياة .. وأين هي من سلوك البشر؟ حقاً إنهم يستجيبون لها ولكن في حدود الكنيسة ، حتى إذا انطلقوا للحياة انطلقوا بشراً ، لا يدير أحدهم خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن ، ولا يقلع أحدهم عينه ويلقيها عنه لأنها تعثره ، ولا يرضى بأن يهلك عضو واحد من أعضائه تكفيراً عن إثم من الآثام . ومع إيماننا بالمسيحية كدين سماوى نزل على نبي من أنبياء الله هو عيسى عليه السلام ، فإننا نقول أن نسبة الروحانية الغالبة فيها إنما لأنها كانت (حقنة) مضادة للمادية اليهودية الرومانية ، عليها تتعادل معها فتصلح النفوس .

(٣٣) الإنسان بين المادية والإسلام - محمد قطب - بتصرف .

البَابُ الثَّانِي

الروح في الفكر العربي والإسلامي

الروح فى الفكر العربى والإسلامى

وإذا كانت فكرة الروح قد شغلت العقل الإنسانى كله منذ فجر التاريخ ، فقد شغلت بصفة خاصة سكان البلاد العربية ، حيث كانت مهد النبوات ومهبط الرسالات ، فقد كان العربى القديم وهو سارٍ فى الصحراء بين السماء والمجولة والرمال الممتدة يتأمل فى انفعال حار عميق ، طبيعة الحياة فى هذا الكون : ليل ونهار .. ظلام ونور .. كواكب تتلألأ ثم تختفى .. وجود وفناء .. حياة تدب فى الأشياء فتزدهر وتكتمل ثم يدهمها العدم فتبتدد وتلاشى .. فيهتف : لا يمكن أن يوجد كل هذا عبثاً وبلا غاية .. فلا بد من قوة كبرى وراء هذا الكون .. قوة عليا لا يدركها فناء ولا يشوبها نقص ، تتحكم فى كل هذه الكائنات وتهيمن عليها وتسيرها على هذا النحو الدقيق ، ويبدو أن فكرة الإيمان بدأت على هذا النحو ، ثم اهتدى العقل الإنسانى بعد ذلك إلى أن كل هذه الكائنات من صنع الله ، وأن البشرية كلها نفحة من روح الله ، وأن هناك جوهرًا مجردًا يكمن فى باطن الأشياء ويمنحها الحياة .. فإذا تركها دبَّ إليها الفناء .. هذا الجوهر المجرد الذى يسرى فى كل هذه الكائنات هو الروح . وتطورت البشرية عبر تاريخها الطويل وعرفت الرسالات السماوية ، وأبدعت الحضارات وتحكمت فى الطبيعة وسخرتها لصالح الحياة ، ولكن معرفتها بهذا العالم المحجوب ظلت أقل من القليل .. لذا كان من الطبيعى أن تشغل هذه الفكرة المحجوبة العقل العربى ، وأن تؤثر فى الضمير وتلهب الخيال وترك بصماتها فى الفن والأدب .

ومن روائع ما سجل من نثر وشعر حول الروح والنفس نورد في الصفحات التالية سطوراً قديمة من موعظة قس بن ساعدة الإيادي .. بليغ العرب في الجاهلية .. وأبياتاً من قصيدة النفس للرئيس ابن سينا .. ثم قصيدة الشاعر أحمد شوقي أمير شعراء مصر في العصر الحديث .

من موعظة قس بن ساعدة الإيادي قبل الإسلام^(١)

« أيها الناس : اسمعوا وعوا .. من عاش مات .. ومن مات فات .. وكل ما هو آت آت » .

« ليل داج .. ونهار ساج . وسماء ذات أبراج »
« ونجوم تزهـر . وبحار تزخر . وأرض مدحاة »
« وجبال مرعاة .. وأنهار مجرة »
« إن في السماء خبراً . وفي الأرض لعباً »
« ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون »
« أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ »
ثم أنشد :

« في الداهيين الأولين من القرون لنا بصائر »
« لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصائر »
« ورأيت قومي نحوها تمضي . الأكابر والأصاغر »
« أيقنت أنني لا محالة حيث صار القوم صائر »

* * *

(١) الأوائل : أبي هلال العسكري - مطبعة دار أمل - طنجة المغرب الأقصى .

ففيما ذكرناه من كلام قس بن ساعدة الإيادي سواء منه النثر أو الشعر ،
نلمس الاهتمام بما وراء الحياة من أسرار وأخبار ، كان العربي قبل الإسلام
يحسها ، وكأنه يلمسها بيديه حين يؤكد « إن في السماء لخبيراً » ثم إن قسا
يتحدث عن البعث بعد الموت في بلاغة حين يسأل : « أرضوا فأقاموا ؟ » أم
تركوا هناك فناموا » والمفروض طبعاً أن اليقظة تجيء بعد النوم ، كما سيأتي البعث
بعد الموت .. وهو يتكلم عن حتمية الموت يقيناً فيقول : « أيقنت أني لا محالة
حيث صار القوم صائر » . وكأنه يقرأ ما جاء بعد ذلك في القرآن (كل نفس
ذائقة الموت) . أو (كل من عليها فان) .

* * *

ومن قصيدة النفس للرئيس ابن سينا^(٢)

- ١ - هبطت إليك من المحل الأرفع
- ٢ - محجوبة عن كل مقلة عارف
- ٣ - وصلت على كُروِّ إليك وربما
- ٤ - أنفت وما أنست فلما واصلت
- ٥ - وأظنها نسيت عهداً بالحمى
- ٦ - تبكى إذا ذكرت دياراً بالحمى
- ٧ - وتظل ساجدة على الدمن التي
- ٨ - إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها
- ٩ - حتى إذا قرب المسير إلى الحمى
- ١٠ - سجعت وقد كُشِفَ الغطاء فأبصرت
- ١١ - وغدت مفارقة لكل مخلف
- ١٢ - وغدت تغرد فوق ذروة شاهق
- ١٣ - إن كان أرسلها الإله لحكمة
- ١٤ - فهبوطها إن كان ضربة لازب
- ١٥ - وتعود عالمة بكل خفية
- ١٦ - وهي التي قطع الزمان طريقها
- ١٧ - فكأنه برق تألق للحمى

(٢) ابن سينا : هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ، أوسع أطباء المسلمين شهرة ، وأبعد فلاسفتهم ذكراً ، وهو فارسي الأصل ، حفظ القرآن ودرس الرياضيات والطبيعة والمنطق وعلم ما وراء الطبيعة ، ثم وجه عنايته كلها لدراسة الطب فدأعت شهرته كطبيب .. ومن كتبه القانون في الطب الذي نخلد ذكره في أوروبا . والشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات وتوفى سنة ٤٢٨ هـ .

النفس (٣)

لأحمد شوقي *

الملقب « أمير شعراء مصر »

هذى المحاسن ما خلقن لبرقع	ضمي قناعك يا سعاد أو ارفعي
ستر الجلال وبعد شأو المطلع	الصاحيات الضاحكات ودونها
زيديه حسن الحسن المتبرع	يادمية لا يستزاد جالها
للضارعين وعطفة للخشع	ماذا على سلطانه من وقفة
إن العروس كثيرة المتطلع	بل ما يضرك لو سمحت بجلوة
إن الحجاب ليهين لم يمنع	ليس الحجاب لمن يعز مناله
من مظهر ولسره من موضع	أنت التي اتخذ الجمال لعزه
وأدق منك بنانه لم تصنع	وهو الصناع يصوغ كل دقيقة
فأقنى البديع على مثال المبدع	لمستك راحته ومسك روحه
يضمنو ومهتوك المسوح مصرع	الله في الأحبار من متالك
عاصي الظواهر في سريرة طبع	من كل غاؤ في طوية راشد
سرج بمعتك الرياح الأربع	يتوهجون ويطفأون كأنهم
والجاهلون على الطريق المهيح	علموا فضاق بهم وشق طريقهم
وتولت الحكماء لم تستمع	ذهب (ابن سينا) لم يفز بك ساعة
شمس النهار بمثله لم تطمع	هذا مقام كل عز دونه

(٣) النفس : بمعنى الروح .

* أحمد شوقي : أمير شعراء مصر في العصر الحديث ولد سنة ١٨٦٨م في رحاب القصور الخديوية .

(فمحمد) لك . و(المسيح) ترجلا
ما بال (أحمد) عى عنك بيانه
ولسان (موسى) المحلّ إلا عقدة
لما حلت بآدم حلّ الحى
وأرى النبوة فى ذراك تكرم
وسقت (قريش) على لسان (محمد)
ومشت (هموسى) فى الظلام مشرقا
حتى إذا طويت ورثت خلاها
قسمت منازل الحظوظ فترلا
وخلية بالنحل منك عميرة
وحظيرة قد أودعت غرر الدمى
نظر (الرئيس) إلى كمالك نظرة
فراة منزلة تعرض دونها
لولا كمالك فى (الرئيس) ومثله
الله ثبت أرضه بدعائم
لو أن كل أخى يراع بالغ
ذهب الكمال سدى وضاع محله
يانفس مثل الشمس أنت أشعة
فإذا طوى الله النهار تراجعت
لما نعت إلى المنازل غودرت
ضجت عليك معالما ومعاهداً
آذنتها بنوى فقالت ليت لم
ورداء جئان لبست مرقم
كم بنت فيه وكم خفيت كأنه
أسامت من دياجة فترعته
فزعت وما خفيت عليها غاية

وترجلت شمس النهار (ليوشع)
بل ما (لعيسى) لم يقل أو يدع
من جانبك علاجها لم ينجع
ومشى على الملاء السجود الركع
فى (يوسف) وتكلمت فى الموضع
بالبابلى من البيان المتع
وحدثه فى قلل الجبال اللمع
رفع الرحيق وسره لم يرفع
أترعن منك ومترلا لم تترع
وخلية معمورة بالشيع
وحظيرة محرومة لم تودع
لم تخل من بصر اللبيب الأروع
قصر الحياة وجال وشك المصراع
لم تحسن الدنيا ولم تترع
هم حائط الدنيا وركن الجمع
شأو (الرئيس) وكل صاحب مبضع
فى العالم المتفاوت المتنوع
فى عامر وأشعة فى بلقع
شقى الأشعة فالتقت فى المرجع
دكا ومثلك فى المنازل مانع
ويكت فراقك بالدموع الهمع
تصل الجبال وليتها لم تقطع
بيد الشباب على المشيب مبرقع
ثوب الممثل أو لباس المرفع
والخز أكفان إذا لم يتزع
لكن من يرد القيامة يفزع

ضرعت بأدمعها إليك وما درت
أنت الوفية لا الزمام لديك مذ
أزمت فأنهلت دموعك رقة
بان الأحبة يوم بينك كلهم
أن السفينة أقلت في الأدمع
موم ولا عهد الهوى بمضيع
ولو استطعت إقامة لم تززع
وذهبت بالماضى وبالتوقع

الروح عند عدد من مفكرى المسلمين

ولسنا هنا بصدد الإحاطة بكل ما كان لفكرة الروح من تأثير على جوانب الفكر العربى والإسلامى ، وإنما سنحاول فقط أن نعرض لمحات من آراء عدد من مفكرى المسلمين فى هذه المسألة ، هم الفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، والرازى باعتبارهم ممن يمثلون العقل العربى على أرفع مستوى ، كما أنهم لم يقتصروا على الثقافة العربية وحدها .. بل كان لهم إلمام واسع بعلوم الأوائل (كما كانت تسمى فى زمانهم ثقافة اليونان والهنود والفرس) إلخ ، ثم نعرض لرأى الدكتور عبد الحليم محمود والكاتب / عباس محمود العقاد .

١ - الفارابى (٢٥٩هـ / ٣٣٩هـ) :

تناول أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى هذه القضية فى أهم مؤلفاته ، وهى عنده جوهر بسيط مبين للجسد .. وهى مرادفة للنفس .. وهى نفس فاضلة ونفس جاهلة .. فالأولى تعمل الخير دائماً ، حتى تنطبع عليه ويصبح سجية لها ، وهذه هى النفس الخالدة المطمئنة فى رحاب الله .. ويقول فى كتابه (الغرة المرضية) : إن الروح الذى لك من جوهر عالم الأمر ولا يتعين بإشارة ولا يتردد بين سكون وحركة ، ولذلك تدرك المعلوم الذى فات والمتنظر الذى هوآت وتسبح فى عالم الملكوت وتتقش من خاتم الجبروت^(٤) والفارابى

(٤) الغرة المرضية للفارابى .

لا شك يذكرنا بأفلاطون وأرسطو وآراء الإغريق حول هذا الموضوع ، فهو يسبح في جو قريب من الأجواء التي كانوا يسبحون فيها .. والنفس الخالدة عند الفارابي هي التي تبلغ مرتبة العقل المستفاد ، وتصبح في غنى عن المادة قادرة على الاتصال بالعقل الفعال ، ويهتم الفارابي بهذا العقل الفعال ، فهو (الروح الأمين) أو روح القدس ، الذي يهب الصور للعقل الإنساني .

٢ - ابن سينا :

هو أبو علي الحسين عبد الله بن سينا ، فارسي الأصل توفي سنة ٤٢٨ هـ . وابن سينا كالفارابي وفلاسفة المؤمنين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، وحاولوا التوفيق بينها وبين قيم الإسلام الفكرية ، وربما كان تأثره في هذه القضية أشد ، فهو يصطنع تعريف أرسطو المشهور للنفس فيعرفها بأنها كمال أول لجسم طبيعي إلى ذى حياة بالقوة^(٥) .

وبهذا التعريف يحدد ابن سينا نظريته لطبيعة النفس والروح ، فهي صورة للجسد وبداية لوظائفه الحيوية ، ثم هي مرتبطة به توجد بوجوده وتنفى بغيائه ، وقد كان ابن سينا يرى هذا الرأي في مرحلة من مراحل حياته ، ولكنه عاد بعد ذلك واهتدى إلى تصور مخالف فالنفس (جوهر مجرد مخالف للبدن مستقل عنه) . ثم هو يرى أن العقل قوة من قوى النفس ، والناس عنده صنفان صنف مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية إلى أن يشتعل حدساً .. وهؤلاء يتلقون الوحي عن العقل الفعال ويعلمون كل شيء وتتكشف لهم المعقولات دفعة واحدة ، ويصف ابن سينا طريق هؤلاء بأنه ضرب من

(٥) د . فؤاد الأهواني ابن سينا ص ٦٢ .

النوبة . واهتمام ابن سينا بهذا الموضوع ناشئ عن نظريته في السعادة .. سعادة النفس .. فهي حالة توصف بها بعد مفارقتها للجسد .. ولا يتأهلها إلا هؤلاء الذين تخلصوا من شواغل البدن . وخلصوا على عالم القدس والسعادة وانتقشوا بالكمال الأعلى وخلصت لهم اللذات العليا وصنف بخلاف ذلك .. كذلك يقسم ابن سينا النفوس إلى نفوس بله ، ونفوس قدسية . فالأولى التي لم تكتسب الشوق إذا فارقت البدن غير مكتسبة للهيئات البدنية الردية صارت إلى سعة من رحمة الله ، فإن اكتسبتها تتعذب عذاباً شديداً يفقد البدن . أما الأنفس القدسية ، فإنها تتبرأ عن مثل هذه الأحوال وتتصل بكمالها بالذات وتنغمس في اللذة العقلية ، فالسعادة عند ابن سينا أن تتخلص النفس من شهوات البدن وتعيش حياة عقلية عليا .

٣- الغزالي (٤٥٠ هـ / ٥٥٥ هـ) :

أما حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي (صاحب إحياء علوم الدين) فقد كان ظاهرة من أبرز ظواهر الفكر الإنساني ، جاء في الفكر الإسلامي كالإعصار ، فحرك كل شيء واقتلع في طريقه كثيراً من الأشجار التي كانت قد غرستها الفلسفات الدخيلة في التربة الإسلامية ، ودمر كثيراً من أفكار الفلاسفة وعزلهم عن التأثير في الوجدان العربي لأعوام طويلة^(٦) .

وموقفه من عالم الروح من أصدق المواقف وأعمقها فهو صورة فريدة للفكر الإنساني العظيم .. الثقافة عنده مجاهدة ، والفكر عنده إشراق ، ووجود المعرفة عنده علم وسلوك .. ولقد توصل إلى كل أولئك من خلال تجربة ثقافية وروحية من أعماق التجارب التي مرت بمفكر في العالم .. عانى خلالها المشقة الفادحة

(٦) أبو حامد الغزالي في ذكره المتوية التاسعة ص ١٠٧ .

التي أوهنت جسمه وأرهقت روحه وكادت تصل به إلى الجنون . ولذلك فهو عندما يتحدث عن الروح أو النفس أو القلب وكلها مترادفات عنده ، فإنما يتحدث عن تجربة شخصية ومعاناة حقيقية ، فهو يقول في كتابه (كيمياء السعادة) :

(الإنسان من عالم الخلق من جانب ومن عالم الأمر من جانب .. فكل شيء يجوز عليه المساحة والمقدار والكيفية ، فهو من عالم الخلق .. وليس للقلب مساحة ولا مقدار ، فهو من عالم الأمر) .

والغزالي يقصد بعالم الأمر عالم الغيب ، فالقلب عنده أو الروح من عالم الغيب ، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية من ذلك المكان جاء وإلى ذلك المكان يعود ، وللقلب باب يطل على الباطن يحصل الإنسان من خلاله كل المعارف دفعة واحدة في حالة من حالات (الكشف) .

ويؤكد الغزالي أن أرباب القلوب يكشفون بأسرار الملكوت ، تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورد عليهم من حيث لا يعلمون ، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة .. وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة ، كما يكون في المنام وهذا أعلى الدرجات . ويرى الغزالي أن الروح محجوبة في هذا العالم المادى الصارم ، والأرواح الخيرة تجاهد وتجادل حتى تتخلص من هذا السجن ، ويزول الحجاب بالموت ، وتصعد هذه الأرواح الطاهرة لتتم في رحاب الله . واهتم الغزالي اهتماماً كبيراً بفكرة الثواب والعقاب في العالم الآخر .

ومصير الروح في هذا العالم ولقد ألحت هذه الفكرة على عقول الفلاسفة المسلمين وبعض الفلاسفة الماديين ، لأنها كانت تتصل بقضية البعث بعد الموت والحشر ، وهل تحشر الأجساد والأرواح وتعود كل روح إلى جسدها ؟ أو أن

الحياة فى العالم الآخر تقتصر على الأرواح ؟ أو أن كل شىء ىنحل وىعود إلى التراب وتنتهى دراما الحياة فلا بعث ولا حشر كما ىقول المادىون ؟ ولقد اشتبك الغزالى مع كل الفلاسفة الذىن خاضوا فى هذا الأمر بعنف وفند آراءهم ، وسخر من تصوراتهم . ىقول : (اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنوناً كاذبة ، فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ، وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد ، وأن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً ، وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق ، بل تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغىر حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات تستعملها حتى إنها لتبطل بالىد ، وتسمع بالأذن ، وتبصر بالعىن . وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب هنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة .. فكل ما هو وصف للروح بنفسها ىبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فىتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد . والغزالى ىقرر أن الإنسان ىنكشف له بالموت ما لم ىنكشف له بالحياة ، كما ىنكشف للمتىقظ ما لم ىكن مكشوفاً له فى النوم (والناس نيام فإذا ماتوا انتهبوا) وأول ما ىنكشف له ما ىضره وىنفعه من سىئاته وحسناته ، وقد كان ذلك مسطوراً ، فى جمىع أعماله ، فلا ىنظر إلى سىئة إلا تحسر عليها تحسراً يؤثر أن ىخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك ىقال له كفى بنفسك الیوم علك حسیباً ..) أما هؤلاء الذىن عاشوا فى الدنيا ىزرعون للآخرة فهم الذىن ىتخلصون لذات النعم ، وىؤكد الغزالى أن أعظم اللذات الخالدة للشهداء

الذين قتلوا في سبيل الله ، لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله .. وهكذا تختلط في تصور الغزالي لعالم الروح المومضات الصوفية بالتأملات النفسية بالنظرات العلمية .. وهو لهذا من أهم مفكرى العرب والمسلمين الذين تناولوا هذا الموضوع الجليل بالدرس والتحليل .

٤ - ابن رشد (٥٢٥ هـ / ٥٩٥ هـ)^(٧) :

أراد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، أكبر شراح أرسطو وأبعد فلاسفة الإسلام شهرة ، أن يوفق بين تعريف النفس لأرسطوطاليس وتعريفها لدى الرئيس ابن سينا ، فقال إنها صورة للبدن وجوهر مستقل في نفس الوقت . فهي صورة للبدن بمعنى خاص وهو أنه لا وجود للبدن دونها ، ولا يمكن للعقل تصوره إلا بها ، كما أنه لا وجود للتمثال إلا بصورته . ومن هذا يتبين لنا أن الفيلسوف القرطبي أخذ عن أرسطو عبارته في تعريف النفس فقال : إنها (هي) التي تجرى منها مجرى الصورة لا مجرى الهيولى (المادة) . ولكنه لم يكن أرسطوطاليسيا بمعنى الكلمة ، فقد فسر أرسطو على نحو يقربه إلى حد كبير من آراء المسلمين في طبيعة النفس ، وقال في تلخيص كتاب النفس^(٨)

إنه يجب التفرقة بين نفوس ثلاث هي :

١ - النفس النباتية .

٢ - النفس الحيوانية .

٣ - النفس الإنسانية أو العاقلة .

أما النفسان الأوليان فليستا مفارقتين للبدن ولا يمكن أن تنفصلا عنه بحال

(٧) عن كتاب في النفس والعقل للدكتور محمود قاسم .

(٨) مخطوط في مكتبة باريس الأهلية تحت رقم Mns fonds hébeu, 1009.

ما ، فهي توجدان بوجود النبات أو الحيوان وتفتنيان بفنائهما ، أما النفس الإنسانية : فإنها من جنس آخر ، وابن رشد يميل إلى تفسير مذهب أرسطو في النفس على نحو يتفق مع القول بروحانيتها ، ويدل على ذلك أنه يعرفها بأنها الجوهر الذي هو الصورة ، ومن يقول مثله بأنها جوهر يعترف ضمناً بأنها قائمة بذاتها ، وبأن الإنسان مركب من جوهرين : أحدهما نفسه ، والآخر بدنه . والذي دعا ابن رشد إلى تفسير أرسطو على هذا النحو أنه فطن إلى ما يحجره تعريف أرسطو للنفس من صعوبات ، لأنها لا تتفق مع روح الإسلام وعقائده . ويرى ابن رشد أن حل هذه الصعوبات ليس باليسير ، فالكلام في أمر النفس غامض جداً ، وإنما اختص الله به من الناس العلماء الراسخين في العلم . ولذلك قال سبحانه مجيباً في هذه المسألة الجمهور عندما سألوه بأن هذا الطور من السؤال ليس من أطوارهم في قوله سبحانه : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ولكن ابن رشد استطاع أن يوفق بين تعريف أرسطو للنفس الذي ينكر خلودها ، وبين رأى الرئيس ابن سينا الذي ينكر أن النفس صورة للبدن ، أي يفصل بين معنيين .. الكمال والصورة ، إذ قال ابن رشد إن النفس وإن كانت صورة للبدن كما يقول أرسطو ، إلا أنها صورة من جنس خاص ، فإنها ليست كباقي الصور التي لا تنفك عن أجسامها ، فلا يمكن تصورها مستقلة عنها وقائمة بذاتها ، بل إنها جوهر مستقل ، وهي في الوقت نفسه صورة للبدن حلت فيه لحكمة إلهية ، وهي إلى جانب ذلك ذات روحية غير جسمية ، فابن رشد جعل النفس ذاتاً مستقلة تدبر الجسم ، وهي في نفس الوقت صورته .

٥ - الرازي :

وقد أجمل الإمام الرازي أسباب الإعضال في مسألة الروح فقال : (إنهم سألوا عن الروح وأنه صلوات الله وسلامه عليه أجاب على أحسن الوجوه . وبيانه أن المذكور في الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال يقع على وجوه . أحدها : أن يقال ماهيته ؟ هل هو متحيز أو حالّ في المتحيز ، أو موجود غير متحيز ولا حالّ فيه ؟

وثانيها : أن يقال أهو قديم أم حادث ؟

وثالثها : أن يقال هل هو يبقى بعد فناء الأجسام أو يفنى ؟

ورابعها : أن يقال ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟

وبالجملة : فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة وليست في الآية دلالة على أنهم عن أى هذه المسائل سألوا . إلا أنه تعالى ذكر في الجواب (قل الروح من أمر ربي) . وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين :

إحدهما : السؤال عن الماهية ، أهو عبارة عن أجسام موجودة في داخل البدن متولدة عن امتزاج الطبايع والأخلاط ؟ أم هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب ، أو عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام ، أو عن موجود يغير هذه الأشياء ؟ فأجاب الله تعالى بأنه موجود مغاير لهذه الأشياء . بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله : كن فيكون . فهو موجود يحدث من أمر الله ، وتكوينه وتأثيره في إفادة الحياة للجسد ، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته الخصوصية نفيه مطلقاً ، وهو المقصود من قوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

وثانيتهما : السؤال عن قدمها وحدوثها ، فإن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل

كقوله تعالى : (وما أمر فرعون برشيد) . فقوله : من أمر ربى ، معناه من فعل ربى ، فهذا الجواب يدل على أنهم سألوه عن قدمه وحدوثه ، فقال : بلى هو حادث . وإنما حصل بفعل الله وتكوينه . ثم احتج على حدوثه بقوله : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) يعنى أن الأرواح فى مبدأ الفطرة خالية من العلوم كلها ، ثم تحصل فيها المعارف والعلوم ، فهى لا تزال متغيرة من حال إلى حال ، والتغير من أمارات الحدوث . وتلخيص الإمام الرازى للمعضلة شامل لجوانبها المتعددة ، كما بدت للمفكرين من الفلاسفة الأقدمين وبخاصة علماء الكلام . ولا نظن أن المحدثين جاءوا بغرض من الأغراض فى تفسير الروح لم يسبقهم إليه الأقدمون . مع ملاحظة الفارق فى بحوث علم الحياة ووظائف الأعضاء بين علماء اليوم وعلماء الزمن القديم . فنن المفكرين الأقدمين من قال إن الروح أجسام لطيفة سارية فى البدن سريان ماء الورد فى الورد . باقية من أول العمر إلى آخره لا يتطرق إليه تخلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من تلك الأجزاء إلى سائر الأعضاء . ومنهم من قال : إنه جزء لا يتجزأ فى القلب . أو قال إنه جسم هوائى فى القلب ، أو قال إنه جسم هوائى فى الدماغ . أو قال إنه قوة تلى الدماغ وهو مبدأ الحس والحركة . أو قال إنه أجزاء نارية وهى المسماة بالحرارة الغريزية . أو قال إنه الدم المعتدل تقوى الحياة باعتداله وتنفى بفنائه . أو قال إنه جسم بخارى تكون من طاقة الأخلاط وبخاريتها كتكون الأخلاط من كثافتها .

وهو الحامل للقوى الثلاث وهى قوة الروح الحيوانى ، وقوة الروح النفسانى ، وقوة الروح الطبيعى .. ومنهم من قال بأن الروح جوهر مجرد يتفاوت فى التجرد والصفاء ، فهو فى العارفين الخالصين أصفى منه فى غيرهم من ذوى الأرواح .

ومنهم من قال غير ذلك ولم يخرج عن فحوى فرض من تلك الفروض ، كما أحصاها التهانوى صاحب كشف اصطلاحات الفنون في مادة الروح^(٩) .

الروح والنفس ورأى بعض الصوفية

١ - القشيري (٣٧٦ هـ / ٤٦٥ هـ) :

يحدثنا عبد الكريم أبو القاسم القشيري ، بأن المراد بالنفس عند القوم هو ماكان معلولا من أوصاف العبد ، وماكان مذموماً من أخلاقه وأفعاله (كالمعاصي والمخالفات والأخلاق الدنيئة التي إذا عالجها بالمنازلة والمجاهدة انتفت عنه) .

ويذكر القشيري فوق هذا الذي يحدد معناها بمتعلقاتها تعريفاً يمكننا أن نقول عنه : إنه يحدد معناها بجوهرها وطبيعتها الحقيقية ، فن المحتمل عنده أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القالب الذي هو الجسم ، وأنها محل للأخلاق المذمومة ، كما أن الروح لطيفة في هذا القالب وأنها محل للأخلاق الحمودة ، وأن جملة الروح والنفس والبدن تكون إنساناً واحداً بعضه مسخر لبعض . ويلاحظ القشيري إلى جانب هذا أن حقيقة الروح مختلف فيها عند المحققين من أهل السنة : منهم من يقول إن الحياة تسرى في القوالب ما دامت الأرواح مودعة فيها ، لأن الأرواح لطيفة ربانية ، ولالأرواح ترق في حال النوم ومفارقة للأبدان ثم رجوع إليها . والإنسان روح وجسد . ومن قال إن الأرواح قديمة غير مخلوقة فقد أخطأ خطأ عظيماً^(١٠) .

فإذا نظرنا إلى هذه الآراء المختلفة نظرة فاحصة رأينا أنها تتفق من وجه

(٩) سبق الإشارة إليه في مدخل الكتاب .

(١٠) الرسالة القشيرية ص ٤٤ / ٤٥ ألفها سنة ٤٤٣ هـ .

وتختلف من وجه ، ورأينا أن الاختلاف بينهما قوى إلى حد يؤدي إلى الخلط والاضطراب للذين يؤديان بدورهما إلى أن نقف من المسألة موقف الحيرة والتردد ، لا ندري هل الروح هي النفس أو غيرها ، وهل يصح أن نطلق خصائص الروح على النفس أو لا يصح :

فأما وجه الاتفاق فيظهر لك إذا لاحظت أن ابن حبيب وابن عباس والمحققين من أهل السنة مجمعون على أن الروح هي الحياة أو مصدر الحياة على أقل تقدير ، وأما وجه الخلاف فيبدو من أن ابن حبيب ينظر إلى النفس على أنها شهوية تلتذ وتألم ، وابن عباس ينظر إليها على أنها عاقلة تدرك وتميز وتحكم ولا يقف الاتفاق والخلاف عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى شيء آخر . فابن حبيب وابن عباس متفقان على أن النفس وحدها تتوفى في حال النوم ، ويخالقها في ذلك بعض المحققين من أهل السنة ، إذ يذهبون إلى أن الروح هي التي تفارق البدن وترقى في حال النوم .

٢ - الجرجاني : (١١)

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف فقد حاول الجرجاني التخلص من الخلط ، في تحديد طبيعة الروح والنفس في تعريفاته ، حيث كشف لنا عن حقيقة النفس والروح فقال عن الأولى ما نصه :

« هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية . وسماها اللطيف الخبير الروح (الحيوانية) : فهو جوهر مشرف للبدن ، وعند الموت ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن وباطنه ، وأما في وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه . فثبت أن النوم والموت من جنس واحد ،

(١١) التعريفات للجرجاني مادة روح ص ٧٦ / ٧٧ ومادة ص ١٦٤ / ١٦٥ .

لأن الموت هو الانقطاع الكلى ، والنوم هو الانقطاع الناقص . وثبت أن الخالق جل وعلا دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب : الأول إن بلغ ضوء النفس إلى جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو اليقظة ، وإن انقطع ظاهره عن باطنه فهو النوم أو بالكلية فهو الموت » .
وقال عن الروح ما نصه :

« الروح الإنسانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان الراكبة على الروح الحيوانى نازل من عالم الأمر تعجز العقول عن إدراك كنهه ، وذلك الروح قد يكون مجرداً وقد يكون منطبقاً فى البدن » .

٣ - ابن الفارض (٥٧٧ هـ / ٦٣٢ هـ) :

لم يكن عمر بن أبى الحسن بن الفارض الحمدي الأصل المصرى المولد الصوفى الشاعر ، متحريراً الدقة ، والوضوح فى لفظتى النفس والروح إلى الحد الذى تتمكن معه من معرفة حقيقة مذهبه ، فنحن نقرأ بعض شعره فنحس أن النفس عنده هى الروح ، أو أن الروح هى النفس حيث يستعملها كمترادفين لمعنى واحد . ثم نقرأ فتبين أن النفس غير الروح والروح غير النفس . إذ ينتهى بنا إلى أن النفس بشرية مشوبة بشوائب الحس ورغبات البدن على عكس الروح ، فإنها إلهية من عالم الأمر ، فالنفس أقل مرتبة فى حبها ومعرفتها عن الروح ، لأن النفس محل الشهوات والحظوظ الباطلة والأمانى الحائلة ، أما الروح فإنها محل الحب الإلهى الذى منحتة فى عالم الأمر ومركز الشهود الذى تدرك فيه الذات الإلهية إدراكاً عينياً لا مدخل للحواس فيه^(١٢) .
ومن هنا يكون لابن الفارض مذهبان متناقضان فى مسألة هامة كهذه .

(١٢) ابن الفارض والحب الإلهى : د . محمد مصطفى حلمى - الطبعة الأولى ١٩٤٥ .

ومثال ذلك (في قصيدته الغائية) :

مالي سوى روجي وباذل نفسه في حب من يهواه ليس بمسرف
وفي قصيدة أخرى :

أغار عليها أن أهيم بحبها وأعرف مقداري فأنكر غيري
فتختلس الروح ارتياحاً لها وما أبرئ نفسي من توهم منية
فهو إن كان في القسم الأول من شعره شاعراً أكثر منه صوفياً .. فهو في
قصيدته الثانية الكبرى صوفي بكل معاني الكلمة . وإذا نحن استثنينا من شعره
الآيات التي يقع فيها الخلط بين النفس والروح رأينا أن القاعدة العامة عنده هي
التفرقة بينهما ، فهو يذهب إلى أن النفس مركز للصفات الحسية والشهوات
البدنية والأخلاق المذمومة مما يحول بينها وبين الاتصال بالحق وشعورها بالتحاذاها
معه وشهودها له .

فإذا أردنا بعد معرفتنا لطبيعة النفس عند ابن الفارض أن نتعرف طبيعة
الروح ، وكيف كان الشاعر يثبت لكل من الطبيعتين ما يميز إحداهما عن
الأخرى ، رأينا أن أنحص ما تمتاز به الروح سبقها في الوجود على البدن ، فهي
موجودة في عالم الأمر قبل أن يوجد البدن في عالم الشهادة ، وهي مستقلة في
حبها للذات وفي معرفتها لها استقلالاً تاماً عن البدن وحواسه .. ومما يدل على
هذه التفرقة عند ابن الفارض قوله :

وبعد فحالي فيك قامت بنفسها وبنيتي في سبق روجي بنيتي

وقال في هذا المعنى :

منحت ولاها يوم لا يوم قبل أن بدت عند أخذ العهد في أوليتي
فملت ولاها لا بسمع مناظر ولا باكتساب واجتلاب جيلة
وهمت بها في عالم الأمر حيث لا ظهور وكانت نشوق قبل نشأتني

كذلك ليس أدل عنده على التفريق بين النفس والروح من قوله :
فبالنفس أشباح الوجود تنعمت وبالروح أرواح الشهود تهت
ولكن ما عسى أن يكون مكان البدن من النفس والروح وما ينكشف لهما من
المعارف عند ابن الفارض ؟

ينظر ابن الفارض إلى البدن نظرة لا تقل في قيمتها النفسية عن نظرة علماء
النفس :

فالبدن عنده محل الإحساسات ، والروح محل المعاني الخفية المقابلة
للمحسوسات الظاهرة . وبعبارة أخرى نقول مع ابن الفارض إن حواس البدن
تدرك بواسطة النفس المتعلقة به صور الأشياء في عالم الشهادة . على حين أن
الروح بفضل تجردها عن البدن وحواسه تدرك معاني هذه الصور في عالم
الغيب .

ونستخلص من كل ما تقدم أن الإنسان في نظر ابن الفارض روح ونفس
وبدن ، وأن لكل من هذه الأشياء الثلاثة ما يميزه عن الآخر ، سواء في
موضوعه أم في طبيعته . وليس معنى هذا أن في الإنسان جزءاً مستقلاً عن غيره
من الأجزاء ، سمى بالروح واختص بإدراك المعاني الخفية ، وجزءاً ثانياً مستقلاً
سمى بالنفس واختص بتدبير البدن ، وجزءاً ثالثاً سمى بالبدن واختص بإدراك
الصور المحسوسة ، بل الإنسان المؤلف من هذه الأجزاء عبارة عن وحدة بعضها
مسخر لبعض ومتصل ببعض . فالإنسان عنده وحدة على الرغم من
الإحساسات المختلفة التي تحسها نفسه بطريق الحواس المتعددة .

ونعرض إتماماً للفائدة من الكتب النادرة - ما تلقيناه من كنوز السلف عن
« حقيقة الإنسان والروح الجوال في العوالم » للإمام العلامة جلال الدين
محمد بن سعد الدين أسعد الصديق الدواني المتوفى سنة ٩٠٨ هـ . وقد عرف

الكتاب وترجم للمؤلف وعلق عليه الخقق الكبير الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً - وقد عني بنشره ووقف على طبعه (الطبعة الأولى في شهر شعبان ١٣٦٦ هـ الموافق يونية ١٩٤٧ م) السيد / السيد عزت العطار الحسيني وقد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) .
« الحمد لله الذي جعل الروح سرّاً من الأسرار الخفية ، استأثر بعلمه وتعليمه لذاته العلية ، والصلاة والسلام على أشرف البرية نبينا محمد سيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين » (١٣) .
أما بعد : فإن شره العقول حمل الإنسان على الخوض في كل مكان ، في مباحث الروح التي صعبت مسالكها ، وعلت مداركها ، ولعلماء الإسلام قديماً وحديثاً بحوث مستفيضة في ذلك معروفة ، بل لفلاسفة الغرب اشتغال طويل عريض في المدة الأخيرة بمباحث النفس وأحوالها ، وبدراسة الروح الإنساني وما إلى ذلك بمثابة ، محاولين إدخال الأرواح البشرية تحت سلطان تصرفهم المادى ، بتجارب يتخللون إمكان إجرائها في إحضارها ومخاطبتها ، شأنهم في مغامراتهم في جميع التجارب المادية ، وستبدى الأيام عن مرد أمر هؤلاء الباحثين المندفعين بشره العقول .

والإنسان بطبعه إذا خلا بنفسه لا يخلو من التفكير في شئون الروح ، وعجائب أسرار الله فيه فيرغب في الاطلاع على ما قاله أساطين أهل العلم في

(١٣) كلمة الناشر.

تلك المسائل العويصة . لتعرف صلة الروح بالجسد ، ووجه انقطاع تلك الصلة عند حلول الموت إلى غير ذلك من الشئون الروحية ، رغبة منه في ازدياد العلم من هذه الناحية على وعورة هذه المسالك . ولقد شغلتنى هذه الأفكار مدة غير وجيزة ، وما زالت تشغلنى إلى الآن ، وهذا ما جعلنى أوالى السؤال والبحث عندهم من أثق بهم من أهل العلم والفضل ، عن علماء الإسلام الذين كتبوا فى هذا الموضوع وعن الكتب المدونة فيه المطبوع منها والمخطوط ، ومن استرشدت برأيهم صاحب الفضيلة العالم الجليل السيد محمد رشيد الحواصلى الدمشقى ، فأرشدنى حفظه الله تعالى إلى رسالة مخطوطة عنوانها « حقيقة الإنسان » للإمام جلال الدين الدوانى ، موجودة عند الأستاذ الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، وكيل المشيخة الإسلامية فى الخلافة العثمانية سابقاً ، ونزيل القاهرة الآن أمد الله فى عمره وأنها لرسالة على صغر حجمها تشفى غلة الباحث إلى أمد بعيد ، وتفتح أفقاً جديداً فى هذا الموضوع الخطير . فقصدت ساحة مولانا الكوثرى وطرقت بابه لما لى من الدالة على فضيلته ، ورجوت منه أن يتكرم علىّ بالرسالة المذكورة ، ويسمح لى بنشرها لتغذية المكتبة العربية الإسلامية ، وأن يتكرم بكتابة مقدمة لها وترجمة لمؤلفها مع التعليق عليها فأجابنى حفظه الله تعالى وأبقاه إلى رغبتي ، كما هى عادته فى نشر العلوم وثقيف العقول فكتب لها مقدمة وجيزة ، وعلق عليها تعليقاً علمياً مفيداً ، وهاهى ذى الرسالة أقدمها لقراء العربية ، ورجال العلم ، والفلسفة راجياً أن تنال تقديرهم .

والله سبحانه وتعالى أسأل التوفيق فى الدنيا والرحمة والغفران فى الآخرة .

الناشر

السيد عزت العطار الحسينى

حقيقة الإنسان

رسالة بديعة للعلامة جلال الدين محمد بن سعد الدين أسعد الصديقي الدواني ، بتشديد الواو ، نسبة إلى دوان على وزن شداد . موضع في كازرون بأرض فارس قرب شيراز ، وهو ممن جمع بين العلوم الشرعية والعلوم الفلسفية ، وكان يرحل إليه من أقاصى البلدان لتلقى العلم منه .

وحقيقة الإنسان كما هو موضوع هذه الرسالة له ناحيتان ناحية الهيكل الجسماني وهو بطبعه يتهافت على الملذات السفلية ، وناحية الروح وهو لطيفة ربانية حثيثة الطيران إلى المعالي ، ويعجز أكثر العقول عن درك كنه حقيقة الروح ذلك الأمر الرباني العجيب ، وللروح والنفس والقلب والعقل إطلاقات في اصطلاحات أهل العلم ، قد تتلاقى أو تتفارق وليس هذا موضع إيضاح ذلك ، وقد عنى الغزالي في عجائب القلب بشرح تلك الاصطلاحات . وأفراد الإنسان على منازل متفاوتة في صلتهم بالناحيتين ، فمن غلب عليه الانهالك في الملاذ الجسمية فهو ملحق بالأنعام ، قال الله تعالى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل) ، ومن خلص من سلطان الملاذ الجسدية وغلب عليه جانب تلك اللطيفة الربانية ، فهو ملحق بالملائكة على مدارج متصاعدة ، ومن تجاذبه الجانبان من غير أن يتغلب فيه أحد الجانبين على الآخر فهو المجاهد لنفسه وقد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وقد اختلف أهل العلم في الروح الذي اعتبرناه لطيفة ربانية ، ثم بها سلطانه على الكون هل هو جسم لطيف يحل في الجسم الكثيف الإنساني - وهو

مذهب الجمهور - أو جوهر مجرد لا مكاني ، لا يوصف بالحلول والدخول ولا بالخروج والانفصال وغير ذلك من أوصاف الأجسام ، بل يوصف بالتعلق به تعلق تدبير ويقطع الموت تعلقه به ذلك التعلق ، والناس في تفهم ذلك على أنحاء فالعامى لا يتصور موجوداً كهذا في حين أن الخاصة لا ينكرونه وإن دقت مداركه ، ولهم في تجرد الروح أدلة ليس الجمهور على قبولها ، ومن مال إلى تجرد الروح أبو منصور الماتريدى والحليمى صاحب (شعب الإيمان) والراغب الأصفهاني ، والغزالي ، والرازي ، والبيضاوي ، وكثير غيرهم ، ومن أحسن من تكلم في ذلك البطليوسي في الحقائق .

ومن أدلة القائلين بتجرد الروح الذى هو النفس الناطقة أن معلوماته لا تقف عند حد ، فلو كان الروح جسماً لكانت معلوماته واقفة عند حد لتعذر ارتسام ما لا نهاية له من الصور في جسم محدود ، وتفهم تجرد الروح يعين كثيراً على فهم تنزه الإله جل شأنه من الزمان والزمانيات والمكان والمكانيات ، وهذا ما لا يرقى إليه فهم العامى أصلاً فالواجب الاكتفاء بالتنزيه العام في إثبات الصفات العليا من غير خوض في ذلك وهذا كاف للجميع في النجاة . لكن شره العقول يحمل الإنسان على الخوض فيما لا قبل له به فيضل بسبب الخوض كثير من البشر في وادى الخيرة ، بل قال الغزالي في (النفخ والتسوية) : الناس قسمان عوام ونخوص ، أما من غلبت على طبعه العامية فلا يقبل كون الله سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه ، فضلاً عن أن يقبل ذلك في الروح الإنساني ، وأطال الكلام في ذلك إلى أن قال : ومن كانت العامية غلبت عليه - كأكثر الكرامية والحنبلية - جعل الإله جسماً إذ لا يعقل موجوداً إلا متجسماً مشأراً إليه . ومن ترقى عن العامية قليلاً نفى الجسمية ، وما أطاق أن ينفي عوارض الجسمية فأثبت الجهة ، وترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة فأثبتوا موجوداً لا في جهة

لكنهم أحالوا أن تكون هذه الصفة لغير الله ، حتى نفى جمهورهم تجرد الروح -
ثم أفاض الغزالي في ترجيح ما ارتآه في هذا الصدد .

قال البدر العيني في شرح البخارى (٢ - ٦٠١) عند الكلام في الروح :
هو جوهر لطيف نورانى ، يكدره الغذاء والأشياء الرديئة الدنيئة ، مدرك
للجزئيات والكمليات حاصل في البدن متصرف فيه ، غنى عن الأغتذاء ، برىء
عن التحلل والتماء ، ولهذا يبقى بعد فناء البدن إذ ليست له حاجة إلى البدن ،
ومثل هذا الجوهر لا يكون من عالم العنصر بل من عالم الملكوت ، فمن شأنه
ألا يضره خلل البدن ، ويلتذ بما يلائمه ويتألم بما ينافيه ، والدليل على ذلك قوله
تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم) الآية ،
وقوله ﷺ : إذا وضع الميت على نعشه رفرف روحه ويقول : (يا أهلى
ويا ولدى) . فإن قلت كيف يفسر الروح وقد قال تعالى : (قل الروح من أمر
ربى) قلت معناه من الإبداعات الكائنة يكون من غير مادة وتولد من أصل
أ . هـ . وفى فيض البارى (٣ - ٤٢٥) عند الكلام في حياة الشهداء : واعلم
أن الحديث أسند الأكل والشرب إلى النسمة دون الجسد ، فإنه فى التراب فدل
على أن النسمة غير الجسد ، وكذلك غير الروح ، لأن الروح لا يسند إليها
الأكل والشرب ما لم تتصل بجسد مادى أ . هـ .

ومن اطلع على ما ألف فى الروح من الكتب ، ثم طالع رسالة الدوانى هذه
يجدها على صغرها بديعة الأسلوب جمّة الفوائد ، تطرق بجرأة سكّت عنها
آخرون ، وتعرض لبيان الروح الجوال فى العوالم بمغادرته الجسم فى أثناء النوم ،
وللروح المحتفظة بصلة الهيكل الجسمانى الكثيف بالجسم اللطيف الذى ذكرناه
بالروح الجوال ، وتصرفات الروح الخارقة للعادات وغير ذلك مما يفتح أفقاً
واسعاً للباحثين ، وينير كثيراً من نواحي هذا البحث العويص المتشعب على

مذاق خاص مزيج بالتصوف والفلسفة يهتم به كثير من الناظرين . ففى نشرها فوائد للروحانيين ، والله ولى النفع ، ومنه التوفيق والتسديد .

محمد زاهد الكوثرى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق آدم على صورته^(١٤) ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد الذى ظهر بحقيقته ، وعلى آله وصحبه خزانة علومه وسلاك طريقته بشريته . وبعد :

فهذه رسالة فى حقيقة الإنسان ، وما ركبه الله تعالى فيه ، واجب حفظها للأذكياء لكثرة فوائدها . ووفرة عوائدها ، وهى من مواهب الحق عز وجل ، تعبت فى تأليفها مدة خمسة أعوام لكونى أحببت أن أثبت معجزات الأنبياء ، وكرامات الأولياء ، بالدليل العقلى لأجل إلزام الخصماء . وهذا لا يسير إلا بعد معرفة خواص الإنسان ، ومعرفة حقيقته . وما هو مركب منه ، والله الهادى لا إله غيره .

(١٤) الضمير راجع لآدم فيكون المؤلف حمد الله سبحانه على خلق آدم ونبهه فى أحسن تقويم ، على الشكل المختار لهم والصفات المتخيرة لآدم وبنيه ، لكون ذلك كله أبداع ما خلق عليه مخلوق مما يمكنه من وجوه التصرف ، وفيه إشارة إلى حديث البخارى ومسلم عند ذكرهما طول آدم فى أول الخلقة ، وجزم الخطأ برجوع الضمير إلى آدم لقربه ولاستحالة التخاطب على الله ، وكذا فى حديث آخر فى اجتناب ضرب وجه الخادم لكون وجه هذا المضروب كوجه آدم أبى كل إنسان ، بحيث يجب عليه بره واحترامه . وأما حديث (على صورة الرحمن) فى بعض الروايات فتغيير من بعض الرواة على فهمه المعوج ، وليس بلفظ الرسول ، وقد رد ابن خزيمة فى (كتاب التوحيد) هذه الرواية بعلى إرسال الثورى على خلاف الأعمش ، وعننعة الأعمش ، وعننعة حبيب بن أبى ثابت وهما مدلسان ، والمدلس إذا عنعن ترد روايته ، والله سبحانه هو مصور كل ذى صورة وليس بذى صورة على خلاف اعتقاد المجسمة كما هو مشروح فى دفع الشبه لابن الجوزى والسيف الصقيل للتقى السبكى والأسماء والصفات للبيهقى .

اعلم أن الإنسان مركب من ثلاثة أشياء . من جسم كثيف . وجسم لطيف .
روح ، وإن شئت زيادة إيضاح . فاعلم أن جسمك الكثيف هو الجسم الراقد
في الفراش حالة النوم ، وجسمك اللطيف هو الجسم الذى يسير فى النوم ،
والروح هو الرابطة بين الجسم الكثيف والجسم اللطيف وهو الاستعداد^(١٥)
المودع فيه المسمى بالروح . ويحصل الموت بافتراق الجسمين إلى يوم القيامة كما
ستقف عليه .

ثم اعلم أن الفناء للجسم الكثيف دون الجسم اللطيف والروح ، فإن قلت
هل الفناء على الجسم الكثيف دونها عام فى جملة الأجسام من الكفار ،
والمؤمنين ، والأولياء وغيرهم أم لا ؟ قلت نعم عام فى جميعها إلا ما استثنى
الشارع من أجسام الأنبياء والشهداء ، وبعض الأولياء . فإن قلت ما الدليل على
بقائهما ؟ قلت : أما الكفار فقد ورد عن النبي ﷺ أنه مر بقلب بدر^(١٦)
فخاطب أموات الكفار بقوله : (إني وجدت ما وعلنى ربى حقاً ، فهل وجدت
ما وعدكم ربكم حقاً) ، فقل للنبي ﷺ : أنخاطب عظاماً أمرت فقال
ﷺ : (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول لكنهم لا يحيون » .

وأما المؤمنون فقد ثبت أيضاً أنه ، ﷺ ، خاطبهم وسلم عليهم وثبت أيضاً
فى الحديث الصحيح النبوى علم الميت بمن يزوره ، فى قبره وفرحه بزائره ، وردّه
سلامه ، وتأذيه ممن يجلس على قبره . وفى البخارى^(١٧) أن أحد الصحابة جلس

(١٥) يريد ما به الاستعداد ، لا الاستعداد نفسه إذ لا شأن للعرض هنا .

(١٦) حديث قلب بدر أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما بألفاظ متقاربة فى المعنى .

(١٧) كلاب أخرج الترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنها قال ضرب بعض
أصحاب النبي ﷺ ، خبائه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك ، حتى
سمعها فأتى النبي ﷺ ، فأخبره فقال رسول الله ﷺ : هى المانة هى المنجية تنجى من عذاب القبر .

على قبري ، ولم يعلم أنه قبر فسمع قراءة الميت سورة الملك من داخل قبره .
وبالجملة فما ذكرنا من عدم فناء الأجسام اللطيفة ، والأرواح ، وعلم
الأموات جميعاً بزوارهم ، وسماعهم أقوالهم ، ومحاطباتهم بل تميزهم بقوة العلم
والسماع عن الأحياء صحيح ثابت ، بحيث يخشى على منكره الكفر . وناهيك
دليلاً على ما قلنا قوله تعالى .

(ولا تحسن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) ،
والأحاديث التي سبقت وما ورد في كتب الصحاح . فإن قلت : إذا كان
أموات المؤمنين والكفار متساوين في هذا الأمر فما الفرق بين أموات هؤلاء
وهؤلاء ، قلت كما أن عالم الشهادة الذي هو عالم الدنيا فيه المسجون والمطلق ،
والمنعم ، والمعذب ، وذو المناصب الرفيعة ، والأراذل ، والجنان ، والمزابل ،
كذلك عالم البرزخ فالمؤمنون ، والأنبياء والأولياء يعلمون بالزوار ويسمعون
كلامهم من مقاماتهم الجليلة ، وهم منعمون بأنواع النعم على قدر مراتبهم . وأما
الكفار والعصاة فإنهم يسمعون من مقاماتهم السافلة السيئة المتنتنة النجسة ، وهم
معذبون بأنواع العذاب على قدر مراتبهم . فإن قلت فأين مقر هذه الأجسام
اللطيفة وأين مقر الأرواح ؟ فاعلم أننا سمينا في هذه الرسالة الاستعداد (١٨) المودع
في الأجسام الكثيفة لقبول الأجسام اللطيفة وحلولها فيها روحاً لكون العقل
والنقل يحكمان بحياة النائم ، وأنه ليس بميت وذلك بما يشاهد من تنفس النائم
وحركة نبضه في حال نومه ، وإن كان جسمه اللطيف مفارقاً لجسمه الكثيف

(١٨) أى ما يحصل به إشراق الاستعداد على الجسم الكثيف لقبول حلول الجسم اللطيف فيه على أن
يكون من قبيل ذكر السبب ، وإرادة السبب ستراً لمراه عن غير أهله فيكون المراد به الروح الإنساني المعبر
عنه بالأمر الرباني ، واللطفية الربانية المدركة العالمة المعدادة جوهرراً مجرداً تنصرف في النسمة التي هي الجسم
اللطيف ، وفي الجسم الكثيف في آن واحد ولذا تعد النسمة مطية للروح الإنساني .

سائراً في عالم البرزخ بسبب ركود حواسه بالنوم الحاصل من الأبخرة المرطبة للجسم والدماغ ، أو بسبب الإغماء الحاصل من فساد المزاج فهذا الروح لا يعلم مقره ومكانه^(١٩) . وعلم ذلك عند الله تعالى .

وأما الجسم اللطيف الحال في الجسم الكثيف ما دام الكثيف مستعداً لحللول اللطيف فيه المفارق له في حالة النوم إلى وقت الانتباه ، وفي حال الموت إلى وقت سؤال الملكين في القبر ، وبعد السؤال إلى الحشر فهو يسمى بالروح أيضاً في لسان الشرع : وجميع ما ورد من حياة الشهداء وعدم موت المؤمنين وانتقاله من دار إلى دار ، وخلقه للأبد لا للموت ومقر أرواح الشهداء والمؤمنين ، ومقر أرواح الكفار فالمراد به هذا الجسم اللطيف الحال في الكثيف وهو المسمى بالروح في قوله ، ﷺ ، في شهداء أحد « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكّل من ثمارها ، وتأوى إلى فناديل من ذهب معلقة في ظل العرش^(٢٠) .

وأنت خير بأن النبي ، ﷺ ، لو أراد بالأرواح الكائنة في الأجسام الكثيفة التي سميناها بالاستعداد المودع فيها لحللول اللطيف فيها لجاز التناسخ^(٢١) من هذه الأجسام اللطيفة ، وكذلك يدل على ما قلنا الحديث الذي رواه عمر ابن عبد العزيز ، وهو ما أخرجه الحافظ أبو نعيم أنه قال : « إنما خلقتم للأبد لكنكم تنقلون من دار إلى دار » .

وأنت خير بأن هذا الجسم الكثيف يفنى ويصير تراباً ، فتعين أن يكون المراد

(١٩) لأن الجمهور على أنه جسم لطيف أيضاً ، وسبق أنه جوهر مجرد عند طائفة .

(٢٠) أخرجه محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أمية عن أبي الزبير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢١) وهو باطل في الشرائع الإلهية ، وما به الاستعداد هو مدار الحياة فيتنى التناسخ بانتفاء قصد هذا الروح الإنساني الذي هو مدار الحياة .

بها الأجسام اللطيفة . لا يقال إن الروح الذى سميتوه بالاستعداد المودع فى الكثيف هو المنتقل من دار إلى دار وهو المراد - والله أعلم - بقوله عز وجل : (قل الروح من أمر ربي) .

إذا علمت ذلك فاعلم أن مقر أرواح المؤمنين التى هى أجسامهم اللطيفة هو السماء السابعة ، على ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ، ﷺ ، أنه قال (٢٢) : « أن أرواح المؤمنين فى السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم فى الجنة » . وروى أم بشر رضى الله عنها - وهى صحابية - قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ونسمة الكافر فى سجين » (٢٣) .

فإن قلت كيف يعلم الميت الزائر ويسمع كلامه وهو فى السماء السابعة وجسمه الكثيف صار تراباً ، وكذا الكافر كيف يسمع وهو مسجون فى سجين ، قلنا : هذا محل بروز جواهر هذه الرسالة ، فكانت معدن الجواهر فاسمع لما نقول وانظر إلى ما أودعه الله تعالى فى الإنسان من الخواص التى تحير العقول . ثم تظن أن الله تعالى لما جعل الإنسان مركباً من جسم كثيف وهو الجسد . وجسم لطيف وهو السائر فى حالة النوم ومن روح هو الرابطة بينهما جعل الكثيف مربوطاً بعادات بحيث لا يقطع المسافة إلا بالخطى ، ولا يستعلى إلا بالصعود ، ولا يشبع إلا بالأكل ، ولا يروى إلا بالشرب ، ولا ينفق إلا بالكسب إلى غير ذلك من العادات . وجعل الجسم اللطيف مربوطاً بجرق العوائد بحيث لا يستحيل عليه شئ فتراه إذا فارق هذا الكثيف فى حالة النوم ، يطير فى الهواء ، ويمشى على

(٢٢) أخرجه الديلمى وليس بذلك .

(٢٣) ولفظ ابن منده : أن أرواح المؤمنين نسمة تسرح فى الجنة حيث شاء ، وأن نسمة الفاجر فى

سجين .

الماء ، ويجتمع بالأنبياء ، ويقطع من المشرق إلى المغرب في لحظة ، ويصعد بالطيران إلى العرش ولا يستحيل عليه شيء مما هو معروف من حال النائم ، ثم إنه إذا رأى نفسه عند العرش وأيقظه أحد يرجع ويحل في الجسم ، ويستيقظ النائم مقدار طرفة عين ، ولا يحصل للجسم الكثيف انزعاج عند حلوله فيه بل يستيقظ ولا يعلم كيفية حلوله ، هذا مع بعد المسافة من العرش إلى الأرض . وكل هذه الأشياء إنما لا يستحيل عليه لكونه لطيفاً ، وهكذا الأجسام اللطيفة من الملائكة وغيرهم .

إذا علمت ذلك فاعلم أن الأنبياء ، والأولياء لما تحققوا بعدم استحالة خرق العوائد على الأجسام اللطيفة لطفوا أجسادهم الكثيفة أيضاً بأنواع الرياضات ، والمجاهدات ، ومخالفة النفس وترك الشهوات حتى تلطفت أجسادهم الكثيفة ، وصارت مضاهية لأجسامهم اللطيفة وظهرت منهم المعجزات ، والكرامات ، وجميع خوارق العوائد لعدم استحالة شيء على الأجسام اللطيفة .

ثم اعلم أن الأموات يعلمون بزوارهم ، ويسمعون كلامهم (٢٤) ، ويتأذون بمن يجلس على قبورهم بأجسامهم اللطيفة وإن كان ثمة مسافة . وقد أخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » (٢٥) .

(٢٤) قال سعد الدين التفتازاني في شرح المقاصد (٢ - ٣٢) : « الظاهر من قواعد الإسلام أنه يكون للنفس بعد المفارقة إدراكات جزئية ، وإطلاع على بعض جزئيات أحوال الأحياء سبب الذين كان بينهم وبين الميت تعارف في الدنيا ، ولهذا ينتفع بزيارة القبور والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات في استئزال الحيرات واستدفاع الملمات ، فإن للنفس بعد المفارقة تعلقاً ما بالبدن وبالتربة التي دفن فيها ، فإذا زار الحي تلك التربة وتوجهت تلقاء نفس الميت حصل بين النفسين ملاقة وإفاضات .

(٢٥) في سنده يحيى بن ريمان وعبد الله بن سميان وهو ابن زياد .

« وأما الذين لا تأكل الأرض أجسادهم فلهم أحوال وأسرار تحير العقول^(٢٦) ، ولا يجوز كشفها وإفشائها . ومن كان ذا ذهن وذكاء يتفطن لها بما رمزنا في هذه الرسالة والله تعالى أعلم » .
تمت رسالة حقيقة الإنسان للإمام جلال الدين الدواني رحمه الله تعالى .

(٢٦) بل أرواح هؤلاء الكمل كالسيوف المغمدة ما دامت في أجسادها ، وعند انسلاخها من الأجساد تصبح كالسيوف المجردة في قوة المضاء كما هو مشروح في موضعه ، وترى ابن القيم يعزو إلى ذلك الروح هزم جيوش فليراجع كتاب الروح له .

البَابُ الثَّالِثُ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ

يسألونك عن الروح

يتساءل الناس .. ما الروح ؟ وما النفس ؟ ويتساءل الناس عن الغيب وعن الساعة .. لأن الروح من عالم الغيب ، ولأن الساعة موعدهم (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) .

ولقد تساءل الناس من قبل عن هذه المفاهيم على مر العصور ، وشهد كل جيل فريقاً من قادة الفكر يعرض لهذه القضايا ، حتى تنهى إلينا تراث كثير الركام شديد الزحام ، لا يكاد الباحث فيه يستبين وجه الحق بشيء يقينى .. ومن ثم يعمد الباحث بدوره إلى هذه القضايا فيبدئ فيها ويعيد .. ولسنا ممن يريدون أن يحكم العقل فى أمور الغيب التى يتلقاها المؤمنون من مصدر علوى مفارق لقدرات البشر .. ولسنا ممن يمجدون مصدر المعرفة الصحيح وهو الوحى .. ولكننا ممن شغفهم حب الله وبهرهم خلقه فقبلوا فيه النظر تقرباً إليه وتودداً .. وعملاً بقوله (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ..) فاللهم ها نحن أولاء ننظر فاهدنا وعلمنا من علمك ..

مادة «روح» في القرآن الكريم في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم^(١)

- تريحون : (ولکم فیہا جمال حین تریحون وحین تسرحون) ٦ / النحل
- رواحها : (ولسلمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) ١٢ / سبأ
- روح : (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ٨٧ / يوسف
- (فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم) ٨٨ ، ٨٩ / الواقعة
- روح : (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) ٢٥٣ / البقرة
- (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) ١٧١ / النساء
- (اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) ١١٠ / المائدة
- (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) ٢ / النحل
- (نزل نزل روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا) ١٠٢ / النحل
- (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) ٨٥ / الإسراء

(١) للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .

(نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من
المنذرين .) ١٩٣ ، ١٩٤ / الشعراء

(يليق الروح من أمره على من يشاء من عباده
لينذر يوم التلاق) ١٥ / غافر

(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح
منه) ٢٢ / المجادلة

(تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره
خمسین ألف سنة) ٤ / المعارج

(يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ٣٨ / النبأ
(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل
أمر) ٤ / القدر

روحاً : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) ٥٢ / الشورى

روحنا : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً) ١٧ / مريم

(والتي أحصنت فرجها فنفضنا فيها من روحنا) ٩١ / الأنبياء

(ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها .

فنفضنا فيه من روحنا) ١٢ / التحريم

روحه : (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) ٩ / السجدة

روحي : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له

ساجدين) ٢٩ / الحجر

(فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له

ساجدين) ٧٢ / ص

ريح

: (كمثل ريح فيها صرأصاب حرت قوم ظلّموا

أنفسهم) ١١٧ / آل عمران

(حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح

طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف

وجاءهم الموج من كل مكان) ٢٢ / يونس

(ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح

يوسف) ٩٤ / يوسف

(أعلّهم كرماد اشتدت به الريح في يوم

عاصف) ١٨ / إبراهيم

(فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما

كفرتُم) - ٦٩ / الإسراء

(ولسليان الريح عاصفة تجري بأمره) ٨١ / الأنبياء

(فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان

سحيق) ٣١ / الحج

(ولسليان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) ١٢ / سبأ

(فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث

أصاب) ٣٦ / ص

(إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على

ظهره) ٣٣ / الشورى

(بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) ٢٤ / الأحقاف

: (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) ٤١ / الذاريات

(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) ٦ / الحاقة

- ريحا : (ولئن أرسلنا ريحاً فأواه مصفرةً لظلوا من بعده
يَكْفُرُونَ) ٥١ / الروم
- (إذ جاء تكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً
لم تروها) ٩ / الأحزاب
- (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس
مستمر) ١٩ / القمر
- (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات) ١٦ / فصلت
- ريحكم : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم
واصبروا) ٤٦ / الأنفال
- الرياح : (وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين
السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) ١٦٤ / البقرة
- (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدي
رحمته) . ٥٧ / الأعراف
- (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء
فأسقيناكموه) ٢٢ / الحج
- (فاختلف به نبات الأرض فأصبح هشيماً
تذروه الرياح) ٤٥ / الكهف
- (وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدي
رحمته) ٤٨ / الفرقان
- (ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته) ٦٣ / النمل
- (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات
وليذيقكم من رحمته) ٤٦ / الروم

(الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقطه فى السماء)
 ٤٨ / الروم
 (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت)
 ٩ / فاطر
 (فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون)
 ٥ / الجاثية
 ريحان : (والحبّ ذو العصف والريحان) ١٢ / الرحمن
 (فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم)
 ٨٨ ، ٨٩ / الواقعة

معنى كلمة (الروح) فى القرآن الكريم

إذا نحن سعينا إلى كتاب الله عز وجل للتعرف إلى حديث الروح فيه نجد أن القرآن الكريم قد استعمل كلمة الروح فى أكثر من معنى :

(١) استعملها للدلالة على ذلك السر الإلهى الذى يودعه الله تعالى جسم الإنسان فيحيا به ، فقال فى سورة السجدة : (وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) وقال فى سورة الحجر : (وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) . وقال عن مريم فى سورة الأنبياء : (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابناً آية للعالمين) . وقال فى سورة التحريم : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من

روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) .

(ب) واستعمل القرآن الكريم كلمة (الروح) للدلالة على (جبريل عليه السلام) وسماه (الروح الأمين) و (روح القدس) فقال في سورة البقرة : (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) . وقال في سورة المائدة : (إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) . وقال في سورة النحل : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) .

وقال أهل التفسير إن روح القدس هو جبريل ، وهو روح الوحي ، الذى يؤيد به الله تعالى أنبياءه فى عقولهم ومعارفهم ، وسمى روح القدس لأن التعليم الذى يكون به مقدس ، أو لأنه يقدس النفوس أى يطهرها . وفى سورة الشعراء : (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين) . وقال أيضاً عن جبريل وهو يتحدث عن مريم فى سورة مريم : (فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً) .

(جـ) واستعمل القرآن الكريم كلمة الروح للدلالة على بعض الملائكة ، أو على صنف منهم له مكانة وشرف ، فقال فى سورة المعارج : (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) وقال فى سورة النبأ : (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) . وفى سورة القدر : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) . (د) واستعمل القرآن كلمة الروح للدلالة على القوة والتأييد من الله ، فقال فى سورة المجادلة : (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) . وقال فى سورة النساء : (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) . أى ذو روح ، أى ذو قوة وهبه الله إياها فاستطاع بفضل من الله

أن يصنع بها المعجزات .

(هـ) واستعمل القرآن الكريم كلمة الروح للدلالة على وحي الله ، أو على كتابه المجيد ، وهو القرآن الكريم ، فقال في سورة النحل : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) . وقال في سورة غافر : (رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذريوم التلاق) . وقال في سورة الشورى ، وهو يريد القرآن الكريم : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) . وقال في سورة الإسراء : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) . ولعل هذه الآية الكريمة هي أكثر الآيات القرآنية ذكراً على الألسنة للدلالة على الروح بمعنى السر الإلهي الذي يودعه الله في الانسان ، فتكون به الحياة والحركة مع أن المراد بالروح في هذه الآية بمعنى السر الإلهي حسبما يلوح من سياقها - هو القرآن الكريم حيث جاءت هذه الآية وسط آيات تقول : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً . قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً . ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً . ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً . إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً . قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) .

هكذا مضت الآيات في مسيرتها وهي في أولها ووسطها وآخرها تتحدث عن

القرآن أو تشير إليه ، وهذا يرجح أن المراد بالروح الوارد هنا هو القرآن الكريم ، لأنه شبيه بالروح في إحياء النفوس ، ولأنه سبب الحياة الأخروية السعيدة الباقية .

ويؤيد الإمام الوازي في تفسيره أن المراد هنا بالروح هو القرآن المجيد ، فيقول فيما يقول : تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) . وقوله : (ينزل الملائكة بالروح من أمره) . وأيضاً السبب في تسمية القرآن بالروح أن به تحصل حياة الأرواح والعقول ، لأن به تحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته ومعرفة كتبه ورسله ، والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف وتتمام تقرير هذا الموضوع ذكرناه في تفسير قوله تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره) . ثم يضيف قوله : اللائق بهذا الموضع هو القرآن لأنه تقدمه قوله : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) . والذي تأخر عنه قوله : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) إلى قوله : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . فلما كان ما قبل هذه الآية في وصف القرآن وما بعدها كذلك وجب أيضاً أن يكون المراد من هذا الروح القرآن ، حتى تكون الآيات كلها متناسبة متناسقة .

الروح في الأحاديث النبوية وكتب السلف

ونحن نقرأ في كتاب الروح لابن القيم أن أكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها في الآية ليست أرواح بنى آدم ، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم ، وقد ثبت في

الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة بن عبد الله قال : بينا أنا أمشي مع رسول الله ، ﷺ ، في حرة المدينة وهو متكئ على عسيب فررنا على نفر من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم لا تسألوه عسى أن يخبر بشيء تكرهونه ، وقال بعضهم نسأله ، فقام رجل فقال : يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله ، ﷺ ، فعلمت أنه يوحى إليه .. ففقت فلما تجلى عنه قال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) . ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى ، وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس .

وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب ، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم ، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة .

فإن قيل فقد قال أبو الشيخ حدثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم ، أنبأنا إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال : بعثت قريش عقبة بن أبي معيط وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي ، ﷺ ، فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبي وليس على ديننا ولا على دينكم قالوا فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعيبد ومن لا خير فيه ، وأما أشراف قومه فلم يتبعوه ، فقالوا : إنه قد أظل زمان نبي يخرج وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل فائتوه فاسألوه عن ثلاث خصال نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق ، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب ، سلوه عن الروح التى نفخ الله تعالى في آدم فإن قال لكم هى من الله فقولوا : كيف يعذب الله فى النار شيئاً هو منه ؟ قيل فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل الآية (ويسألونك ...) يقول : « هو خلق من خلق الله ليس هو من الله » .. ثم ذكر باقى الحديث .. قيل مثل هذا الإسناد لا يحتج به فإنه من

تفسير السدى عن أبي مالك وفيه أشياء منكورة ، وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدى ، وقد رواها الأعمش والمغيرة ابن مقسم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : مر النبي ، ﷺ ، على ملا من اليهود وأنا أمشي معه فسأله عن الروح ، قال : فسكت فظننت أنه يوحى إليه فنزلت : (ويسألونك عن الروح ...) يعنى اليهود .. وكذلك هي في قراءة عبد الله .. فقالوا كذلك لمجد مثله في التوراة ، أن الروح من أمر الله عز وجل .. رواه جرير بن عبد الحميد وغيره من المغيرة .

وروى يحيى بن زكريا عن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن أبي عباس رضى الله عنهما قال : أتت اليهود إلى النبي ، ﷺ ، فسأله عن الروح فلم يجبهم النبي ، ﷺ ، بشيء فأنزل الله عز وجل الآية (ويسألونك ...) فهذا يدل على ضعف حديث السدى وأن السؤال كان بمكة فإن هذا الحديث وحديث بن مسعود صريح ، في أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود ، ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي ، ﷺ ، ولبادرهم بالإجابة بما تقدم من إعلام الله له وما أنزله عليه ..

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية . أعظم اضطراب ، فإما أن تكون من قبل الرواة أو تكون أقواله قد اضطربت فيها ، ونحن نذكر ذلك فقد ذكرنا رواية السدى عن أبي مالك عنه ، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها ، وفي رواية بن أبي هند هذه اضطراب فقال مسروق بن المربان وإبراهيم بن أبي طالب عن يحيى بن زكريا عنه أن اليهود أتت النبي ، ﷺ ، الحديث .

وقال محمد بن نصر المروزي حدثنا إسحاق أنبأنا يحيى بن زكريا عن داود .. عن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : اعطونا

شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح فترلت الآية (ويسألونك) .

وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث بن مسعود .

وعن ابن عباس رواية ثالثة قال هشيم حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن ابن عباس قل : الروح من أمر الله عز وجل ، وخلق من خلق الله ، وصور مثل صور بني آدم ، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح وهذا يدل على أنها غير الروح التي في ابن آدم .

وعن رواية رابعة قال ابن منده روى عبد السلام بن حرب عن حصيف عن مجاهد عن ابن عباس (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) قد نزل من القرآن بمثلة كن . نقول كما قال الله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) ثم ساق من طريق حصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء : الرقيم والغسلين والروح .

وعنه رواية خامسة : رواها جويبر عن الضحاك عنه أن اليهود سألوا رسول الله ، ﷺ ، عن الروح فقال : قال الله تعالى (.... قل الروح من أمر ربي) يعنى خلقاً من خلقى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) يعنى لو سئلتهم عن خلق أنفسكم . وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجها ، ما وضعتم ذلك حق صفته وما اهتديتم لصفته .

وعنه رواية سادسة : روى عبد الغنى بن سعيد حدثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن ابن عباس فى قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح) وذلك أن قريشاً اجتمعت وقال بعضهم لبعض والله ما كان محمد يكذب ، ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة ، فأرسلوا جماعة من اليهود فاسألوهم عنه ، وكانوا مستبشرين به ويكثرون ذكره ويدعون نبوته ويرجون نصرته موقنين

بأنه سيهاجر إليهم ويكونون له أنصاراً ، فسألوهم عنه فقالت لهم اليهود : سلوه عن ثلاث : سلوه عن الروح ، وذلك أنه ليس في التوراة قبضته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى الآية .. وقد سبق أن رأينا أن الروح في القرآن على عدة أوجه .

مادة «روح» في معاجم اللغة العربية ومعاجم القرآن

ما مفهوم كلمة الروح؟^(٢) .

أول ما يجب أن نعرفه ونحن بصدد البحث في معرفة حقيقة الروح هو أن نعرف مفهومها ككلمة عربية ، باعتبار اللغة العربية هي لغة القرآن أولاً ، ولغة البحث والتعبير ثانياً ، وإذا نحن رجعنا إلى المعاجم وجدناها غنية بالمعاني التي تعبر عنها كلمة (الروح) فرة نراها في المعاجم هي النفس .. وأخرى .. ما به حياة النفس .. وثالثة .. خلق من خلق الله لم يعط علمه لأحد .. ورابعة .. بمعنى (النفس) بفتح الفاء أى الذى يتنفسه الإنسان ..

ونحن مع كل ذلك نلاحظ أنها قريبة الألفاظ مع كلمة (ريح) ، وكذلك نلاحظ أن أصل مادة الروح في لغة العرب يدل على الحركة والمسير ومن ذلك قولهم : راح .. يروح أى سار في أى وقت كان ، ولعل ذلك يتصل باشتقاق كلمة الريح من المادة ، لأن الهواء متحرك في الطبقات المحيطة بالأرض ، والحركة هي المظهر الأساسى للحياة .. واعتقادنا أنه من هنا أطلقت كلمة الروح على ما به حياة الإنسان ..

ويقول الأصفهاني : في (مفردات القرآن) أن الروح اسم للجزء الذى

(٢) من بحث نشر بمجلة الهلال - العدد الحادى عشر - السنة الواحدة والسبعون .

تحصل به الحياة والتحرك واستجلاب المنافع واستدفاع المضار .
ويقول ابن الأثير : فى (النهاية) الروح هو الذى يقوم به الجسد وتكون به الحياة وقد حفلت المراجع والمصادر العربية بطائفة من التعريفات للروح فقيل ..
هى جسم هوائى فى القلب ، أو هى جزء فى الدماغ لا يتجزأ .. وقيل هى جسم لطيف بخارى يتكون من لطافة الأخلاط وبخاريتها ، وقيل أن الروح لطيفة سارية فى البدن سريان ماء الورد باقية من أول العمر إلى آخره ، لا يتطرق إليها تحلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من الروح إلى سائر الأعضاء .

واختار بعضهم هذا التعريف : (الروح الإنسانى جوهر مجرد ليس بداخل العالم الجسمانى ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه ، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، يدركه العقل ولا يبلغه الحسّ ، وهذا الجوهر هو أكرم ما فى الإنسان) .

وأغلب التعريفات للروح - إن لم تكن جميعها - تعتمد على التعبير عن الخواص والآثار والمظاهر ، ولا تقدم الكنه أو الحقيقة .. وكأن العلماء بهذا يريدون أن يقولوا : إننا نستطيع أن نبحث فى الروح وسلطانها وبدنها ونهايتها ، وتأثيرها وآثارها ، وخصائصها وظواهرها ، ولكن حقيقة جوهرها مستورة محجوبة ، وإن ثار فىنا حب البحث عنها والجري وراء معرفتها ، ولعل هذا هو الذى جعل الواسطى يقول : « خلق الله الأرواح من بين الجبال والبهاء فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر » .

وفى ما يلى نوضح هذه المفاهيم كما وردت بالمعاجم .

١ - في (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للفقير الدامغانى)
أن الروح على ستة أوجه : الرحمة .. الملك .. جبريل .. الوحي ..
عيسى .. الحياة .

فوجد منها : الروح : بمعنى الرحمة (وأيدهم بروح منه) (المجادلة) أى
برحمة منه .

الثانى : الروح ملك من الملائكة فى السماء السابعة . وجهه على صورة
الإنسان وجسده على صورة الملائكة ، وهو أعظم من كل خلق غير العرش يقوم
على يمين العرش قوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) (النبأ) - يعنى
بالروح ذلك الملك .

الثالث : جبريل عليه السلام قوله تعالى : (قل نزله روح القدس)
(النحل) - وقوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) (البقرة) .. و (تنزل
الملائكة والروح فيها) (القدر) يعنى جبريل .

الرابع : يعنى الوحي . قوله تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من
يشاء من عباده) (النحل) وقوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من
أمرنا) (حم عسق) .

الخامس : يعنى عيسى بن مريم عليه السلام - قوله تعالى : (وكلمته ألقاها
إلى مريم وروح منه) (النساء) - يعنى قال لعيسى : (كن فكان) (وروح
منه) (يعنى بالروح) أنه كان من شيء كقوله تعالى فى سورة السجدة (ونفخ
فيه من روحه) .

السادس : الروح يعنى الحياة فى الحيوان وذوات الأرواح - قوله تعالى فى
سورة الإسراء : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) .

٢- أما في القاموس المحيط للفيروزابادى :

الروح بالضم ما به حياة الأنفس ويؤنث .. والقرآن .. والوحى ..
وجبريل .. وعيسى عليهما السلام والنفخ ، وأمر النبوة ، وحكم الله تعالى
وأمره .. وملك وجهه كوجه الإنسان وجسده كالملائكة .

٣- وفي مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازى :

(الروح) يذكر ويؤنث والجمع (الأرواح) ويسمى : القرآن ..
وعيسى .. وجبرائيل عليهما السلام روحاً . والنسبة إلى الملائكة والجن
(روحانى) والجمع (روحانيون) وكذا كل شئ روح (روحانى) ومكان
(روحانى) بفتح الراء .

أى مكان طيب وجمع الريح (رياح) و(أرواح) وقد تجمع على
(أرواح) . والريح أيضاً الغلبة والقوة ومنه قوله تعالى : « وتذهب ريحكم » .
والروح بفتح الراء من الاستراحة وكذا (الراحة) و(الروح) بفتح الراء أيضاً
(الريحان) الرحمة والرزق .

٤- وفي المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى :

والروح للحيوان مذكر وجمعه أرواح ، قال ابن الأنبارى وابن الأعرابى :
الروح والنفس واحد ، غير أن العرب تذكر الروح وتؤنث النفس ، وقال
الأزهري أيضاً : الروح مذكر ، وقال صاحب المحكم والجوهري : الروح يذكر
ويؤنث وكأن التأنيث على معنى النفس . قال بعضهم : الروح (النفس) فإذا
انقطع عن الحيوان فارقت الحياة . وقالت الحكماء : الروح هو الدم ، ولهذا

تنقطع الحياة بتزفه وصلاح البدن وفساده بصلاح هذا الروح وفساده . ومذهب أهل السنة أن الروح هو النفس الناطقة المستعدة للبيان وفهم الخطاب ، ولا تفنى بقاء الجسد ، وأنه جوهر لا عرض ويشهد لهذا قوله تعالى : (بل أحياء عند ربهم يرزقون) - والمراد هنا الروح .

٥ - وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم^(١) :

روح

(رواحها - تريحون - روح الله - روح - الروح - روحاً - روحنا - روحه - روحى - ريح - الريح - ريحاً - ريحكم - الرياح - ريحان - الريحان) .

١ - راح يروح رواحاً : سار فى أى وقت كان ، فإذا ذكر مع الغد وكانت بمعنى الرجوع فى العشى رواحها : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) ١٢ / سبأ .

٢ - أراح الراعى الماشية : ردها فى العشى إلى مرايحها حيث تأوى إليه ليلاً .

تريحون : (ولكم فيها جبال حين تريحون وحين تسرحون) ٦ / النحل .
٣ - الروح بفتح الراء : رحمة الله - والروح : نسيم الريح : والروح : الراحة والفرح والسرور روح الله (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ٨٧ / يوسف .

(١) (إعداد مجمع اللغة العربية) - المجلد الأول - ص ٥٠٣ وما بعدها.

روح الله : رحمته . روح : (فروح وريحان وجنة نعيم) ٨٩ / الواقعة أى راحة وفرح وسرور أو نسيم الروح أو رحمته من الله .

٤ - الروح : بضم الراء : ما به حياة الأجسام وقد يضاف إلى الله للملك والتشريف .

والروح : يطلق على كل أمر خفى لطيف كالوحي وأمر النبوة وهو ما به حياة النفوس وهداها والروح وروح القدس يطلق على جبريل عليه السلام .
روح (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) ٨٧ / البقرة .
هو جبريل وكذلك ما فى ٢٥٣ / البقرة ، ١١٠ / البقرة ، ١٠٢ / النحل . وفى قوله تعالى : (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) ١٧١ / النساء . سمي عيسى عليه السلام روح من الله لأنه نشأ بحياة ألقاها الله إلى مريم دون أن يمسه بشر . وفى قوله تعالى : (وأيدهم بروح منه) ٢٢ / المجادلة . أى بما به حياة نفوسهم وقوتها .

الروح : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده)
٢ / النحل . هو الأمر الخفى اللطيف كالوحي وأمر النبوة وبهذا المعنى ما فى ١٥ / غافر . وفى قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي)
٨٥ / الإسراء يراد بها ما به حياة الأجسام وفى قوله تعالى : (نزل به الروح الأمين) ١٩٣ / الشعراء . هو جبريل وبهذا المعنى ما فى ٤ / المعارج ، ٣٨ / النبأ ، ٤ / القدر .

روحاً : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) ٥٢ / الشورى . الأمر الخفى اللطيف .

روحنا : (فأرسلنا إليها روحنا) ١٧ / مريم ، هو جبريل وإضافته لله للملك والتشريف وفى قوله تعالى : (التى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا)

٩١ / الأنبياء . أى بعثنا فى عيسى الذى هو فى بطنها ما به حياته وفى قوله تعالى : (فنفخنا فيه من روحنا) ١٢ / التحريم أى بعثنا فى رحمها ما به الحياة لعيسى .

روحه : (ونفخ فيه من روحه) ٩ / السجدة هو ما به الحياة .
روحي : (ونفخت فيه من روحي) ٢٩ / الحجر هو ما به الحياة . ومثله ما فى ٧٢ / ص .

٥ - الريح : الهواء المتحرك فى الطبقات المحيطة بالأرض . وأصلها بروح .
والجمع أرياح ورياح والريح النصر والدولة . والريح . الراجعة .
ريح : (كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم)
١١٧ / آل عمران ، هو الهواء واللفظ بمعناه فى ٢٢ / يونس ،
٢٤ / الأحقاف ، ١٦ / الحاقة وفى قوله تعالى : (إني لأجد ريح يوسف)
٩٤ / يوسف هى بمعنى الراجعة .

الريح : (أعماهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) ١٨ / إبراهيم .
هو الهواء . وكذلك ما فى ٦٩ / الإسراء ، ٨١ / الأنبياء ، ٣١ / الحج ،
١٢ / سبأ ، ٣٦ / ص ، ٣٣ / الشورى ، ٣١ / الذاريات .
ريحاً : (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرةً لظلوا من بعده يكفرون)
٥١ / الروم هو الهواء وكذلك ما فى ٩ / الأحزاب ، ٦ / فصلت ،
١٩ / القمر .

ريحكم : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ٤٦ / الأنفال هى النصر والدولة .

الرياح : (وتصريف الرياح) ١٦٤ / البقرة جمع ريح بمعنى الهواء
وكذلك ما فى ٥٧ / الأعراف ، ٢٢ / الحجر ، ٤٥ / الكهف ، ٤٨ / الفرقان ،

٦٣ / التل ، ٤٦ / ٤٨ / الروم ، ٩ / فاطر ، ٥ / الجاثية .
٦ - الريحان : كل مشموم طيب الريح - والريحان : الرزق .
ريحان : (فروح وريحان وجنة نعيم) ٨٩ / الواقعة : هنا بطيب الريح
وبالرزق .
الريحان : (والحب ذو العصف والريحان) ١٢ / الرحمن ، كل مشموم
طيب الريح أو هو الرزق .

البَابُ الرَّابِعُ

الروح من نفختها إلى مستقرها

ولكن ما مراتب الروح ؟ وكيف تتعلق بالبدن ؟

أجاب حجة الإسلام الغزالي عن هذا السؤال قديماً فقال :
إن الروح البشرية تنقسم إلى خمس مراتب :

فالمرتبة الأولى :

هى مرتبة الروح الحساس وهو الذى يتلقى ما تورده الحواس الخمس وكأنه أصل الروح الحيوانى وأوله .. إذ به يصير الحيوان كائناً حياً وهذا الروح موجود عند الصبى الرضيع .

والمرتبة الثانية :

هى مرتبة الروح الخيالى وهو الذى يستثبت ما أوردته الحواس ويخزنه لديه ويحفظه عنده ليعرض على الروح العقلى الذى يوجد فوقه عند الحاجة إلى ذلك وهذا الروح الخيالى لا يوجد عند الصبى الرضيع فى أول نشأته ، ولذلك نرى الرضيع يولع بالشئ ليأخذه فإذا غاب عنه نسيه ولم تنازعه نفسه إليه حتى يكبر قليلاً فيصير بحيث إذا غاب عنه الشئ بكى وطلبه وذلك لبقاء صورته محفوظة فى خياله ، وهذا قد يوجد عند بعض الحيوانات دون بعض فهو لا يوجد فى الفراش المتهافت على النار ، ولذلك يقذف بنفسه على النار لشغفه بالضياء فيظن

أن السراج كوة مفتوحة إلى ضوء النهار ، فيلقى نفسه عليه فيتأذى به ولكنه يعاود ذلك مرة بعد أخرى ، ولو كان عنده ذلك الروح الحافظ للصبر لما عاد ، ولكن الكلب إذا ضربه شخص بالعصا ورأى العصا مرة أخرى حاذرها وهرب منها .

والمرتبة الثالثة :

مرتبة الروح العقلى الذى يدرك به الإنسان المعانى الخارجة عن الحس والخيال وهو الجوهر البشرى الخاص ، ولا يوجد عند البهائم ولا عند الأطفال وتوسع مدركات هذا الروح ومعارفه الكلية إذا ترجح نور العقل على نور العين .

والمرتبة الرابعة :

هى مرتبة الروح الفكرى وهو الذى يحصل العلوم والمعارف العقلية المحض ، فيوجد بينها تأليفات وازدواجات ، ويستنبط منها معارف شريفة ويستنتج منها - معقولات جديدة ويظل يتزايد فى ذلك إلى ما شاء الله .

والمرتبة الخامسة :

وهى مرتبة الروح القدس النبوى وهو الروح الذى يختص به الأنبياء وبعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض بل من المعارف الربانية التى يقصر عنها الروح العقلى والروح الفكرى وإليه الإشارة بقول الله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات

وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) .

وفي كتاب الروح لابن القيم^(١) أن الروح خمسة أنواع من التعلق بالبدن متغايرة الأحكام .

١ - تعلق الروح بالبدن في بطن الأم جنينا .

٢ - تعلق الروح بالبدن بعد خروجه إلى وجه الأرض .

٣ - تعلق الروح بالبدن في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه .

٤ - تعلق الروح بالبدن في البرزخ فإنها وإن فارقت وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة .

٥ - تعلق الروح بالبدن يوم البعث وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً وأما قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) . فإمسكه سبحانه التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسدها الميت في وقت ما رداً عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة في الدنيا .

وإذا كان النائم روحه في جسده وهو حي وحياته حياة المستيقظ فإن النوم شقيق الموت وهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت حالاً متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم ترد روحه إلى بدنه كحال النائم المتوسطة بين الحي والميت ..

وأما ما يتعلق بذلك من إخبار النبي ﷺ عن رؤية الأنبياء ليلة أسرى به

(١) تجرد بنا الإشارة هنا إلى أن كتاب الروح لابن قيم الجوزية كان من أهم المراجع التي حصلت الاستفادة بها وبخاصة في الحديث عن الروح والنفس .

فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذى رآه أشباحهم وأرواحهم قال : فإنهم أحياء عند ربهم .. وقد رأى إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ورأى موسى قائماً فى قبره يصلى وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح فرأى موسى آدمأً ضرباً طوالاً كأنه من رجال شنوءة ورأى عيسى يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس ورأى إبراهيم فشبهه بنفسه .

ونازعهم فى ذلك آخرون فقالوا هذه الرؤية إنما هى لأرواحهم دون أجسادهم ، والأجساد فى الأرض قطعاً إنما تبعث يوم بعث الأجساد ولم تبعث قبل ذلك ، إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور وهذه موتة ثالثة ، وهذا باطل قطعاً ولو كانت قد بعثت الأجساد من القبور لم يعدهم الله إليها بل كانت فى الجنة ، وقد صح عن النبي ﷺ أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو ﷺ وهو أول من يستفتح باب الجنة، وهو أول من تنشق عنه الأرض على الإطلاق، لم تنشق عن أحد قبله..

ومعلوم بالضرورة أن جسده ، ﷺ ، فى الأرض طرى مطراً وقد سألته الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

ولو لم يكن جسده ﷺ ، فى ضريحه لما أجاب بهذا الجواب . وقد صح عنه ﷺ ، أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام . وصح عنه ، ﷺ ، أنه خرج بين أبى بكر وعمر وقال هكذا نبعث .. هذا مع القطع بأن روحه الكريمة فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين ومعها أرواح الأنبياء ، وقد صح عنه أنه رأى موسى قائماً يصلى فى قبره ليلة الإسراء ورآه فى السماء السادسة أو السابعة ، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن فى

القبر وإشراف عليه وتعلق به ، بحيث يصلّى في قبره ويرد سلام من سلم عليه وهي في الرفيق الأعلى .

ولاتنافى بين الأمرين فإن شأن الروح غير شأن البدن ، وأنت تجد الروحين المتماثلتين المتناسبتين في غاية التجاور والقرب وإن كان بينهما بعد المشرقين وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد وإن كان جسدهما متجاورين متلاصقين . وقد صح أن النبي ﷺ .

قال : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن فإنها تصعد إلى ما فوق السموات ثم تهبط إلى الأرض ما بين قبضها ووضع الميت في قبره ، وهو زمن قصير لا يصعد البدن وينزل في مثله ، وكذلك صعودها وعودها إلى البدن في النوم واليقظة ، وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها ، فإنها في السماء وشعاعها في الأرض . قال شيخنا : وليس هذا مثلاً مطابقاً فإن الشمس ذاتها لا تنزل من السماء ، والشعاع الذي على الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها والروح نفسها تصعد وتنزل .. وأما قول الصحابة للنبي ﷺ ، في قتلى بدر ، كيف تخاطب أقواماً قد جبنوا مع إخباره ، ﷺ ، بسماعهم كلامه فلا ينافي ذلك ردّ أرواحهم إلى أجسادهم في ذلك الوقت ردّاً يسمعون به خطابه والأجساد قد جيفت ، فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التي قد فسدت .

هل الروح قديمة أو محدثة ؟ وما الدلائل على خلق الروح ؟

وإذا كانت محدثة مخلوقة وهى من أمر الله فكيف يكون أمر الله محدثاً مخلوقاً ، وقد أخبر الله سبحانه أنه نفخ في آدم من روحه فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أو لا ؟ وما حقيقة هذه الإضافة ؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه ، فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة ، فهذه مسألة زلّ فيها عالم وضل فيها طوائف من بنى آدم ، وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين ، فأجمعت الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم ، على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربية مدبرة . وهذا معلوم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة ، حتى نبغت نابعة ممن قصر فهمهم في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده .. وتوقف آخرون وقالوا : لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة .

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده فقال : أما بعد فإن سائلاً سألنى عن الروح التى جعلها الله سبحانه قوام نفس الخلق وأبدانهم وذكر أقواماً تكلموا فى الروح وزعموا أنها غير مخلوقة ، وخص بعضهم منها أرواح

القدس وأنها من ذات الله قال : وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم وأبين ما يخالف أقاويلهم من الكتاب والأثر وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم .. وأذكر بعد ذلك وجوه الروح من الكتاب والأثر وأوضح خطأ المتكلم في الروح بغير علم وأن كلامهم يوافق قول جهنم وأصحابه ، فنقول وبالله التوفيق إن الناس اختلفوا في معرفة الأرواح ومحلها من النفس .

فقال بعضهم الأرواح كلها مخلوقة وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر واحتجوا بقول النبي ، ﷺ ، « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف » والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة .

وقال بعضهم : الأرواح من أمر الله أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق واحتجوا بقول الله : (قل الروح من أمر ربي) .

وقال بعضهم : الأرواح نور من نور الله وحياة من حياته واحتجوا بقول النبي ، ﷺ : إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره . ثم ذكر الخلاف في الأرواح هل تموت أو لا ، وهل تعذب مع الأجساد في البرزخ وفي مستقرها بعد الموت ؟ وهل هي النفس أو غيرها ؟ ؟

وقال محمد بن نصر المروزي : في كتابه : « تأويل صنف من الزنادقة وصنف من الروافض في روح آدم ما تأولته النصارى في روح عيسى وما تأولوه قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار في المؤمن ، فبعد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعاً لأن عيسى عندهم روح من الله صار في مريم من غير مخلوق عندهم » .

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض إن روح آدم مثل ذلك أنه غير مخلوق وتأولوا قوله تعالى : (ونفخت فيه من روحي) وقوله تعالى : (ثم سواه ونفخ فيه من روحي) فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق كما تأول من قال

إن النور من الرب غير مخلوق قالوا : ثم صاروا بعد آدم في الوصى بعده ، ثم هو في كل نبي ووصى إلى أن صار في عليّ ثم في الحسن والحسين ، ثم في كل وصى وإمام فيه يعلم الإمام كل شيء ولا يحتاج أن يتعلم من أحد .
ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم ونبيه وعيسى ومن سواه من بنى آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ، ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه قال تعالى : (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة . غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف ، وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال في كتاب (اللفظ) لما تكلم على الروح قال : النسم : الأرواح . قال : وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فائق الحبة وبارئ النسمة أى خالق الروح . وقال أبو إسحاق ابن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسئلة : سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة هى أو غير مخلوقة ؟ قال وهذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم في هذه المسئلة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره ، والشيخ أبو سعيد الخزاز وأبو يعقوب النهر جورى والقاضى أبو يعلى ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في روح عيسى بن مريم فكيف بروح غيره كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه في مجلسه في الرد على الزنادقة والجهمية ، ثم إن الجهمى ادعى أمراً فقال : أنا أجد آية في كتاب الله مما يدل على أن القرآن

مخلوق . قوله تعالى : (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) وعيسى مخلوق ..

قلنا : إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن .. إن عيسى تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن . لأننا نسميه مولوداً وطفلاً وصبيّاً وغلاماً يأكل ويشرب وهو مخاطب بالأمر والنهي يجرى عليه الخطاب والوعد والوعيد ، ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فلا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى ، فهل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى ؟ ولكن المعنى في قوله تعالى : (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له : كن . فكان عيسى بكن . وليس عيسى هو كن .. ولكن كان بكن . فكن من الله .. قول .. وليس كن .. مخلوقاً .

وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة ، وقالت النصارى عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال : هذه الخزقة من هذا الثوب .. قلنا نحن .. إن عيسى بالكلمة كان . وليس عيسى هو الكلمة ، وإنما قول الله تعالى كن وقوله : (وروح منه) يقول من أمره كأن الروح فيه كقوله : (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) يقول من أمره ، وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها كما يقال عبد الله وسماء الله وأرض الله ، فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح ، وقد أضاف الله إليه الروح الذي أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله ولم يدل على ذلك أنه قديم غير مخلوق فقال تعالى : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً) . فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله .

فالروح حادثة وليست بقديمة بإجماع المسلمين .. فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً . ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك . ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك . ثم يرسل الله تعالى الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد . فوالذى لا إله غيره . إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » . (رواه مسلم) .

ومنه يتضح أن الروح محدثة ويظهر أنها تحدث بعد تسوية الجسم وتتصل به وتحل فيه وهو جنين . والله ورسوله أعلم .
أما ما يراه الإمام شمس الدين أبي عبد الله بن القيم من تأكيد ذلك في كتابه فيسوق على صحته الدلائل فيقول : الذى يدل على خلقها وجوه :
الوجه الأول : قول الله تعالى : (الله خالق كل شيء) . فهو لفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل في ذلك صفاته فإنها داخلة في مسمى باسمه ، فالله سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل في مسمى اسمه ليس داخلا في الأشياء المخلوقة ، كما لم تدخل ذاته فيها فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق . وما سواه مخلوق .

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته وإنما هي مصنوع من مصنوعاته ، فوقع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .
الوجه الثاني : قوله تعالى لذكرا : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) وهذا الخطاب لروحه وبدنه وليس لبدنه فقط ، فإن البدن وحده لا يفهم

ولا يخاطب ولا يعقل وإنما الذى يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

الوجه الثالث : قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) .

الوجه الرابع : قوله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) ، وهذا الإخبار إما أنه يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقول الجمهور ، وإما أن يكون واقعاً على الأرواح قبل خلق الأجساد كما يقوله من يزعم ذلك . وعلى التقدير فهو صريح فى خلق الأرواح .

الوجه الخامس : النصوص الدالة على أنه سبحانه وتعالى ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شيء . وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا فالأرواح مربية له مملوكة كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

الوجه السادس : أول سورة فى القرآن وهى الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه : (أحدها : قول الله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) والأرواح من جملة العالم فهو ربها .

والثانى : قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) فالأرواح عابدة له مستعينة ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعاناً بها .

الثالث : أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

الرابع : أنها منعم عليها مرحومة ومغضوب عليها وضالة شقية ، وهذا شأن المربوب والمملوك لا شأن القديم غير المخلوق .

الوجه السابع : النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بحملته وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع ، كما أنه تبع لها فى الأحكام وهى التى تحركه وتستعمله وهو تبع لها فى العبودية .

الوجه الثامن : قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) . فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً ،

فإنه إنما هو إنسان بروحه لا يبدنه فقط .

الوجه التاسع : النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت في صحيح البخارى من حديث عمران بن حصين ، أن أهل اليمن قالوا : يا رسول الله جئناك لتتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر . فقال ﷺ : كان الله ولم يكن شيء غيره . وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ، فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه .

الوجه العاشر : النصوص الدالة على خلق الملائكة وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها ، وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه ، فإذا كان الملك الذى يحدث الروح في جسد ابن آدم بنفخته مخلوقاً فكيف تكون الروح الحادثة بالنفخة .. قديمة ؟ وهؤلاء الغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه ، وهذا ضلال وخطأ ، وإنما يرسل الله سبحانه إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة فتكون النفخة هي سبب حصول الروح وحدوثها له ، ولما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه ، والغذاء سبب نموه . فمادة الروح من نفخة الملك ومادة الجسم من صب الماء في الرحم ، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة ، ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية مهينة تناسب الأرواح السفلية ، فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه .

الوجه الحادى عشر : حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى في صحيح البخارى وغيره عن النبي ، ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف

وما تناكر منها اختلف» والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة ، وهذا الحديث رواه عن النبي ، ﷺ ، أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين ، وسلمان الفارسي وعبد الله ابن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعلى بن أبي طالب وعمرو ابن عبسة رضى الله عنهم أجمعين .

هل الروح ذات قائمة بنفسها ؟

هذه مسألة لا نكاد نجد من تكلم فيها ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل ، ولا سيما على أصول من يقول إنها مجردة عن المادة وعلائقها وليست بداخل العالم ولا خارجه ولا لها شكل ولا قدر ولا شخص ، وكذلك من يقول هي عرض من أعراض البدن فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها فلا تميز لها بعد الموت ، بل لا وجود لها على أصولهم ، بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحى ، ولا يمكن جواب هذه المسئلة إلا على أصول أهل السنة التى تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل ، والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن وعلى هذا أكثر من مائة دليل فى كتاب معرفة الروح والنفس^(١) .

وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول والخروج والقبض والإرسال والتوفى والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسوط أيدىهم أخرجوا أنفسهم) وقال تعالى : (يأتينا النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) . وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد

(١) ذكره ابن قيم الجوزية فى كتابه « الروح » .

وقال تعالى : (ونفس وما سواها . فأنهها فجورها وتقواها) فأخبر أنه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه بل سوى بدنه قالباً لنفسه فتسوية البدن تابعة لتسوية النفس . والبدن موضوع لها - كالقالب لما هو موضوع له .

ومن هنا نقول إن الروح تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها فإنها تتأثر وتتقلع عن البدن كما يتأثر البدن ويتقلع عنها فيكتسب البدن الطيب من الروح الطيب والخبيث من الخبيث ، كذلك يكتسب الروح الطيب والخبيث من البدن فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح بالبدن ، ولذلك يقال لها عند المفارقة اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب النفس . واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث .

وقال الله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فوصفها بالتوفى والإمسك والإرسال كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية ، وقد أخبر النبي ﷺ ، أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت ، وأخبر أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك على وجه الأرض أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، والأعراض لا ريح لها ولا تمسك ولا تؤخذ من يد إلى يد .

وأخبر ﷺ ، أنها تصعد إلى السماء ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض ، وأنها تفتح أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه في ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين ثم ترد إلى الأرض ، وأن روح الكافر تطرح طرْحاً وأنها تدخل مع البدن في قبرها للسؤال .

وقد أخبر النبي ﷺ ، بأن نسمة المؤمن وهى روحه طائر يعلق في شجرة

الجنة حتى يردّها الله إلى جسدها .

وأخبر ﷺ ، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وأخبر أن الروح تنم وتعذب في البرزخ إلى يوم القيامة . كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدوًا وعشيًا قبل يوم القيامة ، وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أيضا عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون . وهذه حياة أرواحهم ، ورزقها جارٍ ولا فالأبدان قد تمزقت ، وقد فسر رسول الله ، ﷺ ، هذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاع فقال : هل تشتهون شيئاً؟ قالوا : أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا . فعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من السؤال قالوا : نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى .

وصح عنه ﷺ ، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من ثمر الجنة وتعلق بضم اللام أى تأكل الحلقة .

وقال ابن عباس . قال ، ﷺ ، لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهّدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ، (ولا تحسن الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) رواه الإمام أحمد وهذا صريح في أكلها وشرها وحركتها وانتقالها وكلامها ، وإذا كان هذا شأن الأرواح فتمييزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز

الأبدان ، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان ، فإن الأبدان تشبه كثيراً أما الأرواح فقلّ ما تشبه .

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون في علمنا أظهر تميز وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا في ذلك ما يختص به أحدهم من الآخر بل التميز الذى عندنا بما علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها ، وتميز الروح عن الروح بصفات أَعْظَم من تميز البدن عن البدن وصفاته . فبدن المؤمن والكافر قد يشبهان كثيراً ولكن بين رُوحيهما أعظم التباين والتمييز ، فإذا تجردت الأرواح كان التميز في غابة الوضوح .

ويقول ابن القيم إن من تأمل أحوال الأنفس والأبدان يرى أن كل شكل حسن وصورة جميلة وتركيب لطيف غالباً ما يكون له ما يناسب ذلك الحسن والجمال واللفظ من الروح .. ونادراً ما يقع غير ذلك .

وإذا كانت الأرواح العلوية (الملائكة) متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم .. وكذلك الجن .. فإن التميز بين الأرواح البشرية أولى .

هل الروح جسد أو لا ؟

وقد توسع الإمام الرازى في بحث طبيعة الروح : أهى جسد أم لا ؟ فأقام حججاً عقلية وسمعية على أن الروح ليست جسداً .. ومما قاله في هذا الشأن وهو لا يفرق بين الروح والنفس .

الحجة الأولى : قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ومعلوم أن أحداً من العقلاء لا ينسى . هذا الهيكل المشاهد ، فدل

ذلك على أن النفس التى ينساها الإنسان عند فرط الجهل هى شىء آخر بخلاف البدن .

الحجة الثانية : قوله تعالى : (أخرجوا أنفسكم) . وهذا صريح فى أن النفس غير البدن وقد أوضحنا ذلك فى هذا الكتاب .

الحجة الثالثة : أنه تعالى ذكر أطوار ومراتب الخلقة الجسمية فقال : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) إلى قوله (فكسونا العظام لحما) وقد أوضحنا أن جميع هذه المراتب اختلافات واقعة فى الأحوال الجسمية . ثم إنه تعالى لما أراد أن يذكر الروح قال : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) ، وهذا صريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة فى الأحوال الجسمية ، وذلك يدل على أن الروح شىء مغاير للبدن .

الحجة الرابعة : قوله (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) ميز تعالى بين التسوية وبين نفخ الروح ، فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاد والأعضاء وتعديل المزاج والأشباح ، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء ثم أضاف إلى نفسه بقوله : (من روحي) دل ذلك على أن جوهر الروح مغاير لجوهر الجسد .

الحجة الخامسة : قوله تعالى : (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها) وهذه الآية صريحة فى وجود شىء موصوف بالإدراك والتحريك معاً ، لأن الإلهام عبارة عن الإدراك . وأما الفجور والتقوى فهو فعل وهذه الآية صريحة فى أن الإنسان شىء واحد ، وهو موصوف بالإدراك والتحريك وموصوف أيضاً بفعل الفجور تارة وفعل التقوى تارة أخرى . ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين فلا بد من إثبات جوهر آخر يكون موصوفاً بكل هذه الأمور .

الحجة السادسة : قوله (إنا خلقنا الإنسان من نطقة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد وهو المبتلى بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية ، والموصوف بالسمع والبصر ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضواً من أعضائه كذلك ، فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ومغاير لأجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات . وقد سبق أن أوضحنا أن الروح تتعلق بالبدن فهي جوهر غيره . وعجيب بعد كل هذا أن نسمع من يقول : توفي رسول الله ، ﷺ ، وما كان يعرف الروح .

ويقرر الغزالي والرازي وغيرهما أن أصحاب الرياضات النفسية والمجاهدات الروحية كلما أمعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية ، وأشرقت نفوسهم بالمعارف الإلهية .. وأنه كلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء شهواته الجسدية صار كالبهيمة محروماً من آثار العقل والفهم والمعرفة والإشراق الروحي .

جسمية الروح وتحيزها

قال أبو الحسن الأشعري في مقالاته اختلف الناس في الروح والنفس والحياة - وهل الروح هي الحياة أو غيرها - وهل الروح جسم أو لا ؟ فقال النظام : الروح (هي) جسم . وهي النفس وزعم أن الروح حي بنفسه وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحي القوى .. وقال آخرون الروح عرض ، وقال فريق ثالث (جعفر بن حرب) لا ندرى أهى جوهر أم عرض فهي من أمر ربنا .. وتعددت الآراء والمزاعم .. ونعرض الآن للرأيين الشائعين (من قالوا بجسمية الروح - ومن قالوا بغير ذلك) .

أولاً : القائلون بأن الإنسان عبارة عن جسم مخصوص موجود في داخل
البدن :

- وقد اختلفوا في تعيين ذلك الجسم على وجوه :
- ١ - أنه عبارة عن الأنحلاط الأربعة التي يتولد منها البدن .
 - ٢ - أنه الدم .
 - ٣ - أنه الروح اللطيف الذي يتولد في الجانب الأيسر من القلب وينفذ في
الشريانات إلى سائر الأعضاء ..
 - ٤ - أنه الروح الذي يصعد في القلب إلى الدماغ .
 - ٥ - أنه جزء لا يتجزأ في القلب .
 - ٦ - أنه جسم بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوى .
 - ٧ - قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو
أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون) إلى قوله تعالى : (ولقد
جثمتونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) .
 - وفيها أربعة أدلة « إمكان تناولها (أخرجوا أنفسكم) - وصفها بالإخراج
والخروج - الإخبار عن عذابها في ذلك اليوم - الإخبار عن مجيئها إلى ربها » .
 - ٨ - (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه
ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم) إلى قوله تعالى : (حتى إذا جاء أحدكم
الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) . وفيها ثلاثة أدلة : (توفى الأنفس
بالليل - بعثها إلى أجسادها بالنهار - توفى الملائكة له عند الموت) .
 - ٩ - (يأتيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى في
عبادى وادخلى جنتى) وفيها ثلاثة أدلة : « وصفها بالرجوع - وصفها
بالدخول - وصفها بالرضا » .

١٠ - قوله ﷺ : « الروح إذا قبض تبعه البصر » فيه دليلان « وصفه بالقبض - أن البصر يراه » .

١١ - قوله ﷺ ، « إن الله قبض أرواحكم وردها إليكم حين شاء » فيه دليلان « القبض - الرد » .

١٢ - قوله ﷺ : « نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة » فيه دليلان « طائر - يعلق » .

١٣ - قوله ﷺ : « أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش فاطلع إليهم ربك اطلاعة فقال : أى شيء تريدون ؟ » الحديث وفيه ستة أدلة « كونها مودعة في جوف طير - تسرح في الجنة - تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها - تأوى إلى قناديل - الله سبحانه خاطبها واستنطقها فأجابته وخاطبته - طلبت الرجوع إلى الدنيا .. فهى مما يقبل الرجوع » . « فإن قيل » هذا كله صفة الطير لا صفة الروح (قيل) بل الروح المودعة في الطير قصد وعلى الرواية التى رجحها أبو عمر وهى قوله : (أرواح الشهداء كطير .. ينقى السؤال بالكلية) .

١٤ - قوله ﷺ ، فى حديث طلحة بن أبى عبيد الله أردت مالى بالغابة فأدركنى الليل، فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حرام، فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فقال ، ﷺ : ذاك عبد الله .. ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة ، فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا تزال كذلك ، حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانها التى كانت (٢) .. وفيه أربعة أدلة سوى ما تقدم « جعلها فى

(٢) الروح لابن القيم من ص ٢٦٦ - ٢٩٣ - ١٩٧٣م - مكتبة صبيح .

القناديل - انتقالها من حيز إلى حيز - تكلمها وقراءتها في القبر - وصفها بأنها في مكان .

١٥ - حديث للبراء بن عازب فيه عشرون دليلاً .

وقد استطرد ابن القيم في ذكر مائة وستة عشر دليلاً - في كتاب الروح - لمن يقولون بجسميتها وتحيزها نكتفي منها بما ذكرناه لضيق المقام ، ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى الكتاب الذي ذكرناه .

وفما يلي ذكر بعض أدلة المنازعين لهم والقائلين :
« الروح ليس جسماً وليس متحيزاً » .

١ - اتفاق العقلاء على قولهم : « الروح والجسم - النفس والجسم فيجعلونها شيئاً غير الجسم فلو كانت جسماً لم يكن لهذا القول معنى » .
٢ - من المعلوم أن في الموجودات ما هو غير قابل للقسمة كالنقطة والجوهر الفرد ، بل ذات موجد الوجود (الله) فوجب أن يكون العلم بذلك غير قابل للقسمة ، فوجب أن يكون الموصوف بذلك العلم وهو محله غير قابل للقسمة وهو النفس ، فلو كانت جسماً لكانت قابلة للقسمة : ويقرر هذا الدليل على وجه آخر وهو أن محل العلوم الكلية لو كان جسماً أو جسمانياً لانقسمت تلك العلوم ، لأن الحال في المنقسم وانقسام تلك العلوم مستحيل .

٣ - أن الصور العقلية الكلية مجردة بلا شك وتجردها إما أن يكون بسبب المأخوذ عنه أو بسبب الأخذ ، والأول باطل لأن هذه الصور إنما أخذت عن الأشخاص الموصوفة بالمقادير المختلفة والأوضاع المعينة ، فثبت أن تجردها إنما هو بسبب الأخذ لها والقوة العقلية المسماة بالنفس .

٤ - أن القوة العاقلة تقوى على أفعال غير متناهية فإنها تقوى على إدراكات لا تتناهى والقوة الجسمية لا تقوى على أفعال غير متناهية ، لأن القوة الجسمية

تنقسم بانقسام محلها ، فالذى يقوم عليه بعضها يجب أن يكون أقل من الذى يقوى عليه الكل . فالذى يقوى عليه الكل يزيد على الذى يقوى عليه البعض أضعافاً متناهية « والزائد على المتناهى بمتناه .. متناه » .

٥ - لو كانت القوة العقلية جسدانية لضعفت فى زمان الشيخوخة دائماً .. وليس كذلك الأمر دائماً .

٦ - لو كانت النفس جسماً لكانت منقسمة ولصح عليها أن يعلم بعضها كما يعلم كلها ، فيكون الإنسان عالماً ببعض نفسه جاهلاً بالبعض الآخر وذلك محال .

٧ - لو كانت النفس جسماً لوجب أن يثقل الجسد بدخولها فيه ، لأن شأن الجسم الفارغ إذا ملأه غيره أن يثقل به كالزرق الفارغ والأمر بالعكس ، فأخف ما يكون البدن إذا كانت فيه النفس وأثقل ما يكون إذا فارقت .

٨ - لو كانت النفس جسماً لكانت على صفات سائر الأجسام التى لا يخلو شىء منها ، من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والنعومة والخشونة والسواد والبياض وغير ذلك من صفات الأجسام وكميَّاتها ، ومعلوم أن الكيفيات النفسانية إنما هى الفضائل والرذائل لا تلك الكيفيات الجسمانية فالنفس ليست جسماً .

٩ - لو كانت جسماً لوجب أن تقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها أو حاستين أو أكثر ، فإننا نرى الأجسام كذلك منها ما يدرك بجميع الحواس ومنها ما يدرك بأكثرها ، ومنها ما يدرك بحاستين منها أو بواحدة والنفس بريئة من ذلك كله ، وهذه الحجة التى احتج بها جهم على طائفة من الملاحدة حين أنكروا الخالق سبحانه وقالوا : لو كان موجوداً لوجب أن يدرك بحاسة من الحواس فعارضهم بالنفس وأنى تتم المعارضة إذا كانت جسماً . وإلا لو كانت

جسماً لجاز إدراكها ببعض الحواس .

١٠ - لو كانت جسماً لكانت ذات طول وعرض وعمق وسطح وشكل ، وهذه المقادير والأبعاد لا تقوم إلا بمادة ومحل ، فإن كانت مادتها ومحلها نفساً لزم اجتماع نفسين .. وإن كانت غير نفس كانت النفس مركبة من بدن وصورة وهى فى جسد مركب من بدن وصورة ، فيكون الإنسان إنسانين ، لذا تحتم أنها ليست جسماً ..) .

ومضى هذا الفريق يدل على رأيه حتى ساق اثنين وعشرين دليلاً ولكن هناك من رد عليهم حججهم فأبطلها ، وأيد الفريق الأول فى حججه مركزاً على أنها جسم لطيف فى جسم كثيف . غير أن الأسئلة فى موضوع الروح لا تنتهى وإنما كلها غاص سؤال طفا على السطح سؤال ولكن السؤال الذى يلح علينا الآن هو :

هل سبقت الأجسادُ الأرواح فى خلقها ؟ أو سبقت الأرواحُ خلقُ الأجساد ؟

وللناس فى هذه المسألة قولان معروفان ، ففريق ذهب إلى تقدم خلق الأرواح على الأجساد وفريق قال بعكس ذلك .. فأما الفريق الأول ومنهم محمد بن نصر المروزي وأبو محمد بن حزم فيسوق حججاً منها :

١ - (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) .. قالوا : ثم للترتيب والمهلة فقد تضمنت الآية أن خلقها مقدم على أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ، ومن المعلوم قطعاً أن أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم أنها الأرواح .

٢ - (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) قالوا : وهذا الاستطاق والاستشهاد إنما كان لأرواحنا إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة .

٣ - احتجوا أيضاً بما رواه أبو عبد الله بن منده أخبرنا محمد بن صابر البخارى ، حدثنا محمد بن المنذر بن سعد الهروى ، حدثنا عن جعفر بن محمد ابن هارون المصيصى ، حدثنا عتبة بن السكن ، حدثنا أرطاة بن المنذر ، حدثنا عطاء بن عجلان عن يونس بن حليس عن عمرو بن عبسة قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

أما الذين قالوا بخلق الأرواح بعد الأبدان فقد ذكروا ما يلى :

١ - (يأبىها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) هذا خطاب للإنسان الذى هو روح وبدن ، يدل على أن جملة مخلوقة بعد خلق الأبوين وأصرح منه قوله تعالى : (يأبىها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) وهذا صريح فى أن خلق جملة النوع الإنسانى بعد خلق أصله .

٢ - (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ..) الآية . قال ابن الأنبارى مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم فى هذه الآية ، أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم فى صور الذر ، فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون ، فاعترفوا بذلك وقبلوا ذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم ، كما جعل للجبل عقلا حين خوطب وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت .

٣ - القرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه نفخ فى آدم من روحه .

بعد خلق جسده ، فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح .
 فهذا بعض كلام السلف والخلف ممن قالوا بسبق خلق الروح على خلق
 البدن ، وكذا من قالوا بتقدم البدن على خلق الروح . ونحن نخبر بما أخبر به
 الرسول ﷺ ، في الحديث الصحيح : أن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه
 أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم
 يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح .. فالملك وحده يرسل إليه فينفخ فيه فإذا نفخ
 فيه كان ذلك سبب حدوث الروح فيه ، ولم يقل يرسل الملك إليه بالروح
 فيدخلها في بدنه ، وإنما أرسل إليه الملك فأحدث فيه الروح بنفخته فيه .. وفرق
 بين أن يرسل إليه ملك ينفخ فيه الروح وبين أن يرسل إليه روح مخلوقة قائمة
 بنفسها مع الملك .. والله الموفق (٣) .

هل الروح سبب الحياة ؟

نطالع في كتاب الروض الأنف (شرح السيرة النبوية) لابن هشام فصلا
 في أن الروح سبب الحياة في الجزء الأول يقول : فإذا ثبت أن الروح
 سبب الحياة عادة أجراها الله تعالى ، فهو كالماء الجارى في عروق الشجرة صعدا
 حتى تحيا به عادة ، فنسميه ماء باعتبار أوليته ونسمى أيضا هذا روحا باعتبار
 أوليته واعتبار النفخة التي هي ريح ، فما دام الجنين في بطن أمه حيا
 فهو ذو روح ، فإذا نشأ واكتسب ذلك الروح أخلاقاً وأوصافاً لم تكن فيه
 وأقبل على مصالح الجسم كلفاً به وعشق مصالح الجسد ولذاته ودفع المضار عنه
 سمي نفساً ، كما يكتسب الماء الصاعد في الشجرة من الشجرة أوصافاً لم تكن
 فيه ، فالماء في العنب مثلاً هو ماء باعتبار الأصل والبدأة . ففيه من الماء

(٣) من أراد الاستزادة والاستفاضة فعليه بكتاب الروح لابن القيم ففيه تفصيل .

الميوعة والرطوبة ، وفيه من العنبة الحلاوة وأوصاف آخر ، فتسميه مصطاراً إن شئت أو خمراً إن شئت أو غير ذلك مما أوجبه الاكتساب لهذه الأوصاف ، فن قال إن النفس هي الروح على الإطلاق من غير تقييد فلم يحسن العبارة ، وإنما فيها من الروح الأوصاف التي تقتضيها نفخة الملك والمملك موصوف بكل خلق كريم، ولذلك قال : في الحديث فمن الروح عفافه وحلمه وذكاؤه وفهمه، ومن النفس شهوته وغضبه وطيشه وذلك بنجاسة الدم لسر لعله أن يفهم مما نحن بسبيله ، فن يعرف جوهر الكلام ويتزل الألفاظ منازلها لا يسمى روحاً إلا ما وقع به الفرق بين الجاد والحي ، والذي كان سبباً للحياة كما في الكتاب العزيز عند ذكر إحياء النطفة ونفخ الروح فيها ولا يقال نفخ النفس فيها إلا عند الاتساع في الكلام ، وتسمية الشيء بما يؤول إليه ، ومن هنا سمي جبريل عليه السلام روحاً والوحي روحاً لأن به تكون حياة القلوب قال الله سبحانه (أو من كان ميتاً فأحييناه) وقال عن الكفار : (أموات غير أحياء) وقال النفس ما تقدم وقال : (إن النفس لأماراة بالسوء) ولم يقل : إن الروح لأماراة ، لأن الروح الذي هو سبب الحياة لا يأمر بسوء ، ولا يسمى أيضاً نفساً كما قدمنا حتى يكتسب من الجسد الأوصاف المذكورة وما كان نحوها ، والماء النازل من السماء جنس واحد ، فإذا مازج أجساد الشجر كالنخيل والفرسك والحنظل والعشر وغير ذلك اختلفت أنواعه ، كذلك الروح الباطنة التي هي من عند الله هي جنس واحد ، وقد أضافها إلى نفسه تشريفاً لها حين قال : (ونفخ فيه من روحه) ثم يخالط الأجساد التي خلقت من طين ، وقد كان في ذلك الطين طيب وخبيث فيتزع كل فرع إلى أصله ، ويتزع ذلك الأصل إلى ما سبق في أم الكتاب وإلى ما دبره وأحكمه الحكيم الخبير ، فعند ذلك تتناثر النفوس أو تتقارب وتتحاب أو تتباغض على حسب التشاكل في أصل الخلقة ، وهي معنى

قول النبي ﷺ : فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، وقد كتب بعض الحكماء إلى صديق له ، إن نفسى غير مشكورة على الانقياد إليك بغير زمام ، فإنها صادفت عندك بعض جواهرها والشئ يتبع بعضه بعضا .

هل تموت الروح أو لا ؟

يقول ابن القيم : اختلفوا فى الأرواح هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لا تموت ؟

فقالت طائفة : الأرواح لا تموت ولا تبلى .
وقالت جماعة : الأرواح على صور الخلق لها أيد وأرجل وأعين وسمع وبصر ولسان .

وقالت طائفة : للمؤمن ثلاثة أرواح وللمنافق والكافر روح واحدة .
وقال بعضهم : للأنبياء والصديقين خمس أرواح .
وقال بعضهم : الأرواح روحانية خلقت من الملكوت فإذا صفت رجعت إلى الملكوت .

قلت : أما الروح التى تتوفى فهى روح واحدة وهى النفس .. وأما ما يؤيد الله به أنبياءه من الروح فهى روح أخرى غير هذه الروح ، كما قال تعالى : (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) وكذلك الروح الذى أيد به روحه المسيح بن مريم كما قال تعالى : (إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) . وكذلك الروح التى يلقيها على من يشاء من عباده وهى غير الروح فى البدن . وأما القوى التى فى البدن فإنها تسمى أيضا أرواحاً فيقال : الروح الباصر والروح السامع والروح

الشام فهذه الأرواح قوى مودعة في البدن تموت بموت الأبدان وهى غير الروح التى لا تموت بموت الأبدان ولا تبلى كما تبلى .. ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله والإجابة إليه ومحبه وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته ، ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه ، وهى الروح التى يؤيدها أهل ولايته وطاعته .. فللعلم روح وللإحسان روح وللإخلاص روح وللتوكل والصدق روح .. وللإنابة والمحبة روح .. إلخ والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت .. فمنهم من تغلب عليه الأرواح فيصير روحانيًا ، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيًا بهيميًا ..

وفىما يلى نعرض بتفصيل للرأى القائل بأن الروح مخلوقة حادثة ولذا فإنها توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال (وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب) قال الله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت في منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون). والأنفس ها هنا هى الأرواح قطعاً وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه قال : سرينا مع رسول الله ﷺ في سفر ذات ليلة فقلنا يا رسول الله ، لو عرست بنا فقال : إني أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة ؟ فقال بلال : أنا يا رسول الله : فعرس بالقوم فاضجعوا وأسند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله ﷺ وقد طلع جانب الشمس فقال : يا بلال أين ما قلت لنا ؟ فقال الذى بعثك بالحق ما ألقيت على نومة مثلاً . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردّها حين شاء » فهذه الروح المقبوضة هى النفس التى يتوفاها الله حين موتها وفي منامها التى يتوفاها ملك الموت ، وهى التى تتوفاها رسل الله

سبحانه وهى التى يجلس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرهاً ،
ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ، ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة
أو تلعنها ، وتوقف بين يدى ربها فيقضى فيها أمره ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين
الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم ، وهى التى تجعل فى أجواف الطير
الأخضر تأكل وتشرب من الجنة ، وهى التى تعرض على النار غدواً وعشيّاً .
وهى التى تؤمن وتكفر وتطيع وتعصى وهى الأمانة بالسوء ، وهى اللوامة وهى
المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهى التى تعذب وتنعم وتسعد وتشقى وتحبس
وترسل وتصح وتسقم وتلد وتألّم وتخاف وتخزن وما ذاك إلا سمات مخلوق مبدع
وصفات منشىء مخترع وأحكام مربوب مدبر . تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه .
وكان رسول الله ﷺ يقول عند نومه « اللهم أنت خلقت نفسى وأنت
توفىها ، لك مماتها ومحياها ، فإن أمسكتها فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما
تحفظ به عبادك الصالحين » وهو تعالى بارئ النفوس كما هو بارئ الأجساد .
قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من
قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) قيل .. من قبل أن نبرأ المصيبة .. وقيل ..
من قبل أن نبرأ الأرض . وقيل من قبل أن نبرأ الأنفس ، وهو أولى لأنه أقرب
ما ذكر إلى الضمير . ولو قيل يرجع إلى الثلاثة أى من قبل أن نبرأ المصيبة
والأرض والأنفس لكان أوجه .

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر
والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة ، وأن وجود
ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ليس لها من نفس إلا العدم ، فهى
لا تملك لنفسها ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . لا تستطيع أن تأخذ
من الخير إلا ما أعطاها وتتقى من الشر إلا ما وقاها ولا تهتدى إلى شيء من

مصلح دنياها وأخراها إلا بهداه وتصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها ، ولا تعلم إلا ما علمها ولا تتعدى ما أظمها ، فهو الذى خلقها فسواها وأظمها فجورها وتقواها ، فأنخبر سبحانه أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى خلافاً لمن يقول إنها ليست مخلوقة ، ولمن يقول إنها وإن كانت مخلوقة فليس خالقاً لأفعالها بل هى التى تخلق أفعالها .

ومعلوم أنها لو كانت قديمة غير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها فى وجودها وصفاتها وكماها وصلاحتها هو من لوازم ذاتها ليس معللاً بعلّة فإنه أمر ذاتى لها كما أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللاً بعلّة ، فهو سبحانه الغنى بالذات وهى الفقيرة إليه بالذات فلا يشاركه فى ملكه أو غناه مشارك .. كما لا يشاركه فى قدمه وربوبيته أحد . فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهد على الأبدان .

قال تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) وهذا الخطاب بالفقراء موجه للأرواح والأبدان معاً ، وقد أرشد الله سبحانه عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله : (فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين) . أى فلولا إن كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع (الحلقوم) أو لاتعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجازاة بعملها ..

هذا ما أردنا أن نسوقه لقارئ الكتاب من الأدلة على أن الروح حادثة ومخلوقة وليست قديمة مستغنية بنفسها كما يقول الضالون من أدياء التصوف . وأهل البدع - كما ذكرنا أن الروح تموت إذ هى مخلوقة حادثة^(٤) .

(٤) الروح : ابن قيم الجوزية .

الروح بعد مفارقتها للجسد

والروح بعد مفارقتها للجسد يكون الموت وتبقى هي مدركة تسمع من يزورها وتعرفه وترد عليه السلام وتحس لذة النعيم وألم الجحيم .

يقول ابن تيمية : « وقد استفاضت الأخبار بمعرفة الميت بحال أهله وأصحابه في الدنيا وأن ذلك يعرض عليه وأنه يرى ويدرى ما يفعل عنده ويسر بما كان حسناً ويتألم بما كان قبيحاً » .

وروى عن عائشة رضى الله عنها : « بعد أن دفن عمر رضى الله عنه » أنها كانت تستتر وتقول : « كان أبي -- وزوجي .. أما عمر فأجني » .. تعنى أنه يراها .

وروى أن الموقى يسألون الميت عن حال أهلهم فيعرفهم أحوالهم وأنه ولد لفلان ولد ، وتزوجت فلانة .

وروى ابن عبد البر في الاستذكار والتمهيد من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ، ﷺ : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن - كان يعرفه في الدنيا - فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » . وروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور له بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فيسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام .

وروى ابن أبي الدنيا في كتابه المذكور أيضاً بسنده عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس

عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم» ويؤيد ذلك ما ورد في البخارى ومسلم من مخاطبته عليه السلام لقتلى قلب بدر بعد أن قذفوا فيه بأمره ﷺ ، وقوله للصحابة لما تعجبوا من ذلك : «والذى بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .. ولكنهم لا يستطيعون جواباً» .

ومعلوم أن معرفة الأموات لزوارهم الأحياء معرفة ورؤية روحانية لا قلبية ولا بصرية لذهاب مجال الحواس البدنية منهم بمجرد الموت .. «ولو بقيت أجسام الأنبياء كرامة لهم» .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تتمهم حتى تهديهم كما هديتنا ..» . وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن أبى أيوب الأنصارى حديثاً طويلاً وفيه قال : إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من أهل الآخرة ، فإن كان خيراً فرحوا واستبشروا وقالوا اللهم هذا فضلك ورحمتك فأعم نعمتك عليه وأمته عليه ، ويعرض عليهم عمل المسيئين فيقولون : اللهم ألهمهم عملاً صالحاً ترضى به وتقربهم إليك . وروى الترمذى الحكيم فى نوازل الأصول من حديث عبد الغفور بن محمد العزيز عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ تعرض الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس على الله وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً .. فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم .

وروى ابن أبى الدنيا فى كتابه المثليات بسنده عن أبى هريرة قال : قال

رسول الله ﷺ « لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أولئكم من أهل القبور » .

السؤال في القبر

اتفق أهل السنة والجماعة على أن كل إنسان يسأل بعد موته قَبْرَ أو لم يقبر.. فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً أو نسف في الهواء أو غرق في البحر لسئل عن أعماله وجوزى بالخير خيراً وبالشر شراً وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معاً .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ، ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وصحيح أبي حاتم : أن النبي ﷺ قال : « إن الميت إذا وضع في قبره يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله .. وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجله .. فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قبلى مدخل .. ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام ما قبلى مدخل .. ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة ما قبلى مدخل .. ثم يؤتى من قبل رجله فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان ما قبلى مدخل ، فيقال له اجلس ..

فيجلس .. قد مثلت له الشمس وأخذت للغروب .. فيقال له : هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه ؟ وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول : دعونى أصلى .. فيقولان : إنك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه ؟ أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه : ؟ وما تشهد عليه ؟ فيقول : محمد - ﷺ - أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله ، فيقال له : على ذلك حيت وعلى ذلك مت .. وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب إلى الجنة ، فيقال له : هذا مقعدك . وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه وتجعل نسمة فى النسم الطيب ، وهى طير معلق فى شجر الجنة » قال : فذلك قول الله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وذكر فى الكافر ضد ذلك إلى أن قال : ثم يضيق عليه فى قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التى قال الله تعالى : (فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) .

وقال الحافظ فى الفتح : ذهب ابن حزم وابن هبيرة إلى أن السؤال يقع على الروح فقط من غير عود إلى الجسد ، وخالفهم الجمهور فقالوا : تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه كما ثبت فى الحديث . ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن من ذلك اختصاص ، ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تتفرق أجزأؤه ، لأن الله قادر على أن يعيد الحياة إلى جزء من الجسد ، ويقع عليه السؤال ، كما هو قادر على أن يجمع أجزأؤه .. والذى يحمل القائلين بأن السؤال يقع على الروح فقط ، هو أن الميت قد يشاهد فى قبره حال المسألة لا أثر فيه من إقعاد ولا غيره ولا ضيق فى قبره ، ولا سعة وكذلك غير المقبور كالمصلوب .

وجوابهم أن ذلك غير ممتنع فى المقدرة ، بل له نظير فى العادة وهو

النائم ، فإنه يجد لذة وألماً لا يدركه جليسه بل اليقظان قد يجد لذة وألماً لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يدرك ذلك جليسه .. وإنما أتى الغلط من قياس الغائب على الشاهد وأحوال ما بعد الموت على ما قبله ، والظاهر أن الله تعالى صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك وستره عنهم إبقاء عليهم لئلا يتدافنوا ، وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمور الملكوت إلا من شاء الله . وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور كقوله : « إنه لسمع خفق نعاطم » وقوله « تختلف أضلاعه لضمة القبر » وقوله : « يسمع صوته إذا ضربه بالمطراق » وقوله : « يضرب بين أذنيه » . وقوله : « فيقعدانه » ، وكل ذلك من صفات الأجساد .

مستقر الأرواح

عقد ابن القيم فصلاً ذكر فيه أقوال العلماء في مستقر الأرواح ، ثم ذكر القول الراجح فقال : « الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم التفاوت » .

- فنها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى ، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .. وهم متفاوتون في منازلهم .. كما رآهم النبي ﷺ ، ليلة الإسراء .

ومنها : أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت . وهي أرواح بعض الشهداء لاجميعهم ، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره ، كما في المسند عن محمد بن عبد الله ابن جحش : « أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ، فقال يا رسول الله ، ما لي إن

قتلت في سبيل الله ؟ قال : الجنة . فلما ولى قال : إلا الدين سارني به جبريل آنفاً .

- ومنهم من يكون محبوباً على باب الجنة ، كما في الحديث : « رأيت صاحبكم محبوباً على باب الجنة » .

ومنهم من يكون محبوباً في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلّها « سرقها من الغنيمة قبل القسمة » .

ثم استشهد فقال الناس هنيئاً له الجنة . فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلّها لتشتعل عليه ناراً في قبره » .

- ومنهم من يكون مقره باب الجنة ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشبة » .

وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب حيث أبدله الله عن يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء .

- ومنهم من يكون محبوباً في الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى ، فإنها كانت روحاً سفلية أرضية فإن الأنفس الأرضية لا تجتمع الأنفس السماوية ، كما لا تجتمعها في الدنيا ، والنفوس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والتقرب إليه والأنس به ، تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها فالمرء مع من أحب في البرزخ ، ويوم القيامة . والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد - ويجعل روحه (يعني المؤمن) مع النسم الطيب (يعني الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه) فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوانها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك .

ومنها أرواح تكون في تنور الزواني والزناة ، وأرواح في نهر الدم تنتم الحجارة وتسبح فيه . فليس للأرواح شقيها وسعيدها مستقر واحد ، بل روح في أعلى عليين وروح أرضية سفلية . لا تصعد عن الأرض .

وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب .. وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجة ذلك .. ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً ، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها .. وأن لها شأنًا غير شأن البدن .

وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء ، وتتصل بفناء القبر والبدن فيه .. وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً ، وأنها تنقسم إلى مرسله ومحبوسة وعلوية وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير ، فهناك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة .. وهناك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق وما أشبه حالها في هذا البدن بحال الطفل في بطن أمه .. حالتها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن في هذه الدار فلهذه الأنفس أربع دور : كل دار أعظم من التي قبلها :

الدار الأولى : في بطن الأم .. وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث .

الدار الثانية : هي الدار التي نشأت فيها وألفت واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة .

الدار الثالثة : دار البرزخ .. وهي أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى .

الدار الرابعة : دار القرار .. وهي الجنة والنار فلا دار بعدها .

والله ينقلها في هذه الدور طبقاً بعد طبق ، حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها ولا يليق سواها ، وهي التي خلقت لها وهيتت للعمل الموصول لها إليها .. ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى ، فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومميتها ومحييها ومسعدها ومشقيها .

البَابُ الْخَامِسُ
الروح في فكر بعض المحدثين

أقوال المحدثين

أما المفكرون المحدثون^(١) فهم فى الجملة بين قولين ، قول بنشوء الحياة من جوهر مجرد ، وقول بنشئها من استعداد فى المادة يظهر مع التطور والتركيب . وليس بين القائلين بالجوهر المجرد من الأقدمين والمحدثين اختلاف كبير فى غير أسلوب التعبير .

فالمحدثون يقولون إن الجسم لا ينشئ الحياة ، ولا طاقة للمادة بتوليد القوة الحيوية ، ولكنها إذا بلغت مبلغاً معلوماً من الاستعداد صلحت لحلول الروح فيها ، وتنبأت لخدمتها مثلها فى ذلك مثل الموتور يصلح بالتركيب لقبول الكهرباء ، فإن أجزائه المتفرقة لا تتحرك ولا تقبل العمل الكهربائى إذا بقيت على تفرقها أو اجتمعت على نحو غير النحو الصالح لاستقبال التيار وتلبية حركاته .

وكذلك الأعضاء الجسدية لا تخلق الحياة ، ولكنها تصلح لاستقبالها وتلبية حركاتها متى تم تركيبها على النحو المعروف .

والأقدمون يقولون بمثل ذلك، ولكنهم يعبرون عنه بأسلوبهم المنطقى الذى يستخدمونه للتمييز بين الصور والأجسام (فالروح عندهم كمال أول لجسم طبيعى آلى) والكمال عندهم هو الذى تتحقق به ماهية الشيء وهو قسمان :

قسم يصدر منه الفعل وهو الكمال الأول ، وقسم الفعل نفسه وهو الكمال الثانى . والإنسان جسم آلى لا تتحقق له الإنسانية إلا بحلول الروح فيه .

(١) الفلسفة القرآنية / العقاد م . نهضة مصر .

فلا تتحقق له الإنسانية بمجرد وجود الأعضاء فيه ، بل باستقبال هذه الأعضاء لمصدر فعلها وحركتها وهو الروح ، فالروح إذن هى الكمال الأول لتركيب جسم الإنسان .

ودليل الأقدمين على أن الروح جوهر مجرد يلخصه الشهر ستانى فى كتاب نهاية الاقدام فى علم الكلام إذ يقول : (إن العلم المجرد الكلى لا يجوز أن يحل فى جسم ، وكل ما لا يجوز أن يحل فى جسم ، فإذا حل فى غير جسم ، فالعلم المجرد الكلى إذا حل .. حل فى غير جسم ويؤيد ذلك أنه غير قابل للانقسام) . ويوشك الأقدمون والمحدثون أن يتلاقوا فى توضيح المشكلة التى تنجم عن القول بتجرد الروح ، ثم القول بتأثيرها فى الأجسام . فالأقدمون يجعلون الجواهر المجردة درجات فى التلبس بالمادة وقابلية الاشتراك معها فى عملها . فلا يؤثر الجوهر المجرد فى المادة مباشرة ، بل يؤثر فيها بواسطة جوهر يقاربه من جهة ، ويقارب المادة من جهة أخرى .

والمحدثون يقيمون هذه القنطرة بين العالمين - عالم الروح وعالم المادة - بفروض كثيرة منها أن الغدة الصنوبرية فى الدماغ هى ملتقى الروح بالجسد ، ومنها أن يرتفعوا بالمادة الجسدية إلى غايتها من الصفاء لكى تتقبل الأثر من عالم الروح . ومنها أن يزيلوا العجب من تأثير الأرواح فى الأجسام بقولهم أن تأثير الروح فى الجسد ليس بأعجب من هذه المؤثرات التى نراها تقع من الأجسام ، فلا داعى للحزم بامتناع أثر الجوهر المجرد فى صور المادة على اختلافها بين الجوامد والأحياء .

وكل فرض من هذه الفروض لا يزعم صاحبه أنه قال فى معضلة الروح قولاً يغنيه عن التمثيل فى هذه المعضلة بالآية القرآنية الكريمة :
(قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

رأى المرحوم الدكتور/ عبد الحلیم محمود شیخ الجامع الأزهر^(٢) :
الإنسان خلق كرمه الله بقدرات تؤهله للخلافة فی الأرض . وهو خلق ممیز
عن الممالك الثلاث (مملكة الجاد / مملكة النبات / مملكة الحيوان) فالآية (هو
الذى خلق لكم ما فی الأرض جمیعاً) الخطاب فیها موجه إلى بنى آدم ، وهى
آية تحدد لنا عالم الأحياء بأبعاد ثلاثة : بیانها :

١ - الإنسان سید على المادة والطاقة وجملة النبات والحيوان وشرط سیادته
(الإيمان)

٢ - الإنسان أخ لكل إنسان .

٣ - الإنسان عبد لمن خلق كل شیء .

والتراث الإنسانى غنى بالنظرات الصادقة إلى النفس فى معراج السالكين أن
الإنسان تنقسم جملته إلى ثلاثة أشياء (نفس ، وروح ، وجسم) فالجسم : هو
المؤلف من المواد والعناصر الحاملة لروحه ونفسه ، وهو الشكل المتصّب - ذو
الوجه واليدين والرجلين - وأما الروح : فهو الجارى فى العروق الضوارب
والشريين .. وأما النفس : فهو الجوهر القائم بنفسه الذى ليس هو فى موضع
ولا يخل شيئاً .

(٢) من حديث لفضيلته فى دمشق سنة ١٩٦١ ميلادية بمناسبة الاحتفال بذكرى الغزالي المثوية
التاسعة .

رأى المرحوم عباس محمود العقاد :

ومسألة الروح^(٣) هى أعضل مسائل العلم والفلسفة ومذاهب التفكير على التعميم منذ فكر الإنسان فى حقائق الأشياء بين جميع أصحاب النحل والآراء فى جميع العصور .

وسواء فهمنا من الروح أنها جوهر مجرد تقوم به حياة الأجساد .. أو فهمنا كما يفهم الماديون أنها ظاهرة الحياة فى تركيبية من تراكيب المادة - فلا يزال العلم بحقيقتها قليلاً أو أقل من القليل^(٤) .

لأن الماديين الذين يعتبرونها قوة من قوى المادة لم يخرجوا بها عن تسجيل الحى ، كما يرونه ولم يستطيعوا فقط تحليل الفارق بين الخلية المادية والخلية الحية بعلّة من العلل المادية نفسها ، فضلاً عن العلل التى تتجاوز المادة إلى ما وراءها ولم ينكروا أن الفارق عظيم وأنه أبعد فارق بين شيئين من هذه الأشياء التى تقع فى الكون المحسوس أو الكون المعقول .

فن المعجزات القرآنية أنه وضعها هذا الموضع الصحيح من الفلسفة والعلم وجعلها أعضل المعضلات التى يتساءل عنها الناس بغير استثناء .

ويزيد فى تقدير هذه المعجزة أن القرآن لم يستكثر على الفكر الإنسانى أن يخوض فى المسألة الإلهية . وأن يصل إلى الإيمان بالله عن طريق البحث والاستدلال ، والنظر فى آيات الخلق وعجائب الطبيعة .
فالعقل يهتدى إلى وجود الله من النظر فى وجود الأشياء ووجود الأحياء ،

(٣) ذكرت فى القرآن بلفظها ١٨ مرة .

(٤) من كتاب العقاد : الفلسفة القرآنية ص ٩٨ .

ولكنه لا يهتدى إلى حقيقة الروح من هذا الطريق ولا يذهب فيها مذهباً أبعد ولا أعمق من الإحالة إلى مصدر الموجودات جميعاً . وهى إرادة الله أو أمر الله . وقد عجب بعض المفسرين لذلك وراحوا يتساءلون أ تكون مسألة الروح أكبر من المسألة الإلهية وهى غاية الغايات فى سبح العقول ؟ ولكنهم فى الواقع يرجعون بالعجب إلى غير مرجعه الأصيل . لأن المعضلة الفكرية لا تبلغ مبلغ الإعضال بقدر عظمتها واتساعها . بل بمقدار دقتها وخفائها ..

المؤلفان :

وفى رأينا أن النفس جوهر مشرق ربّانى، إذا خالط البدن أكسبه قدراتٍ، بعضها يطفو والبعض الآخر يغوص . فأما الذى يطفو فيتعطل بالنوم، وأما الذى يغوص فلا يتعطل بالنوم ولا بغيره ما بقى الآدمى على قيد الحياة . وقد ورد هذا التأويل فى أقوال بعض المفسرين حين عرضوا لقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) التى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . وجدير بالذكر هنا أن بعض الأساتذة الدارسين لعلوم الطب الحديث يؤكدون أن مراكز الأعصاب التى تتحكم فى الإبصار والسمع والنطق تتعطل بالنوم ، على حين أن مراكز الأعصاب التى تتحكم فى الدورة الدموية وانتظام التنفس واستمرار القلب فى وظيفته ، ويقظة الأعصاب اللا إرادية (التى تمنع النائم من أن يبول مثلاً) تقع كلها فى مواقع تغوص فى البدن فأنها ما يقع تحت تلافيف المخ ومنها ما يسرى فى السلسلة الفقرية من أعلاها إلى أدناها (وهو قول يؤكد أقوال السلف الصالح) .

- والروح خلق في عالم الغيب لم يرد في كتاب الله إلا بصيغة الإفراد دون الجمع فلا ذكر في القرآن الكريم للأرواح أبداً (وأما النفس ففيها المفرد والجمع) . أما ذكر بعض الأحاديث النبوية للأرواح بصيغة الجمع فقد عرض له الفقهاء ، وقالوا أن الأنفس أصلها من الروح ، ومن ثم جازت تسمية الفرع بما يطلق على الأصل (من قبيل المجاز) وفي فهمنا أن الإنسان يتكون من عنصرين :

أحدهما : أرضي خالص هو البدن ، وهو جسم كثيف أصله من التراب ومآله إلى التراب ، ولا تصلح حاله في الدنيا إلا على شيء من تراب كالنبات والأداة والطاقة .

والعنصر الثاني : هو الجوهر المشرق الذي تقدم ذكره ، ويعرف بالنفس وقد تأتى لفظة النفس مرادفة للفظة نسمة (على سبيل المجاز) فالحياة إذن ظاهرة موقوتة تجدد علتها في ائتلاف العنصرين السابقين وحين يفترقان فإن هذه الظاهرة تتوقف ولا يبقى لذاتها من أثر .. هذا عن الحياة الأولى أما الحياة الأخرى فشيء آخر تؤمن به وبتفصيلاته التي وردت في الكتاب والسنة ، وسوف نعرض لها في نهاية كتابنا الثالث في سلسلة حقيقة الإنسان .. (حقيقة النفس).

الماديون والروح

والماديون الذين يقولون بنشأة الحياة من المادة لا ينيبون بطبيعة الحال إلى علم الله في معضلة من المعضلات . ولكنهم ينيبون على الرغم منهم إلى رأى في تحليل الحياة هو أعجز وأبلغ في التسليم من إنابة المؤمنين ، لأن قصارى ما ذهبوا إليه أن الحياة حصلت لأنها قابلة للحصول .. فهم يعترفون بالفارق بين الذرة المادية

والخلية الحية ، ولكنهم يقولون أن الخلية الحية قد تترقى بالتطور والتركيب المتلاحق إلى اكتساب خصائص الحياة ، ويمثلون لذلك بالعناصر التي تتركب فتظهر فيها بعد التركيب خصائص لم تكن لعنصر من عناصرها على انفراد . وهكذا يترقى التركيب بالمادة إلى مرتبة النبات فالحيوان . فالإنسان العاقل فما فوق الإنسان مع تطاول الزمان .

ولكنهم لا يذكرون دليلاً واحداً على حدوث الحياة من مثل هذا التركيب .. ولا يذكرون سبباً مادياً معقولاً لالتزام المادة سلم الارتقاء طبقة فوق طبقة منذ الأزل الذي لا يعرف له ابتداء ؟ ولا يذكرون سبباً مادياً واحداً يوجب أن تنفرد بعض الوجود ، ولا يشعرون بقصور هذا الغرض عن تفسير الخصائص التي تتوزع بين ألوف الخلايا التي تتولد منها الأنواع الحية ، وفي كل خلية منها قدرة على التجدد والتعويض ونقل طبائع النوع كله ، وهي في دقتها أخفى من أن تتراعى الألوف منها للعين بغير منظار .

فإن النسلات التي تنشئ النوع الإنساني كله يمكن أن تجمع في قعر صغير من أقع الخياطة ، وفي هذا القمع الصغير تكمن جميع الخصائص التي يختلف بها ملايين البشر في الأفكار والعادات والأعضاء والألوان . وتكمن جميع الموروثات التي تلقاها سكان الكرة الأرضية عن آبائهم وأجدادهم منذ مئات الألوف من السنين ، وجميع الموروثات التي يخلفونها لأعقابهم إلى مئات ألوف أخرى بغير انتهاء . فإذا كانت للحياة معان تقوم على الوعي الذي لا يوجد في المادة ويكشفها مثل هذا الحيز من الامتداد وهو أقرب إلى المعقولات منه إلى المحسوسات فإذا أبطل الماديون من القول بقوة الروح المعنوية ؟ أو ماذا أبطلوا من القول بتوسط هذه المعاني بين المجرد والوجود المحسوس ؟

إذا كانت الحياة لا توجد في كل مادة وكانت المادة الخاصة التي توجد فيها

تلقاها بمعاني لا يحصرها الحس وتأخذ منها كل هذه الأجسام التي تملأ فضاء الكرة الأرضية فهل هذا هو تفسير السر المغلق أو هذا هو السر المغلق الذي يدق عن العقول ؟ وأى الأجسام بل أى آكام من الأجسام . أهى أجسام وكفى تتساوى فى جميع الأشكال والأحجام ؟

كلا بل هى أجسام تختلف كل ذرة منها عن كل ذرة ، ولا تنوب واحدة منها عن الأخرى أو تختلط شخصية منها بشخصية سواها ، فأين يبدئ التلغز والتخمين إذا كان هذا نهاية التفسير والتبيين . ؟

وإذا كان الماديون قد بلغوا بتجريد قوة الحياة أقصى ما يستطيعه المادى من صفات التجريد - فإن القول بالتجريد المطلق لا يقطع الكلام فى مسألة الروح ، ولا يتركه بغير بقية طويلة تستتبع الأسئلة الكثيرة بغير جواب .

فهل الجوهر المجرد البسيط يقبل الفناء ؟ وهل كان معدوماً قبل أن يوجد ؟ إن فريقاً من الفلاسفة يقول إن الجوهر البسيط لا يتغير ولا يفنى . لأن الانحلال إنما يأتى من جهة التركيب ، وليس فى الجوهر البسيط مركب ، وليس بقابل للفناء غير قابل للإيجاد بعد عدم وليس له ابتداء ولا انتهاء .

وبعض المتدينين يقول بقدم العالم كله لأنه لا يخلق فى زمان والجواهر البسيطة من باب أولى قديمة على هذا الاعتبار . وقد يستشهد هؤلاء على قدم الروح بأنها من روح الله (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) .

فالروح من روح الله ، وهو أزلى أبدي بلا أول ولا آخر ، ولا زمان

ولا مكان ، ومنهم من يقول بحدوث الروح ، ويعنى بذلك أنها غير قديمة وينكر قدم العالم على الإجمال .

وهنا يرد على الخاطر سؤال عن تساوى الأرواح فى القدم أو تساويها فى الحدوث .

فهل وجدت أرواح الآباء والأبناء والأحفاد فى وقت واحد ؟ أو وجدت على تفاوت فى الترتيب ، وهل تنقطع صلة الأبوة بين الأرواح ، أو هناك أرواح توصف بالنبوة على النحو الذى نشهده فى الحياة ؟ وما الفارق بين أرواح الآباء والأمهات وأرواح الذكور والإناث .

ويرد على الخاطر سؤال آخر عن علاقة الروح بالجسد بعد دخوله والامتزاج بأعضائه هل تأتى بالمعرفة معها من عالم الأرواح أو هى تتلقى المعرفة من ملاسمة الأعضاء وحسن الحواس التى تتألف من البصر والسمع واللمس والشم والذوق وما إليها . وهل تحمل معرفتها معها بعد فراق الجسد أو تتركها وراءها بعد انقطاع الصلة بينها وبين الإحساس بالحواس ؟ ويرد على الخاطر سؤال غير هذين السؤالين فى مسألة الثواب والعقاب : فهل تخلص الروح من الجسد ، كما دخلته مبرأة من الذنوب ؟ وهل يلصق شىء من الجسد بشىء من الروح ، وإذا كانت قبل نزولها فيه ونخروجها منه خالصة من تلك الذنوب فكيف يكون العقاب ؟ أو كيف تعاقب الأجساد بمعزل عن الأرواح ؟ أو كيف تعاقب الأرواح بمعزل عن الأجساد ؟

والذين قالوا بدخول الروح فى الأجساد أكثر من مرة يسألون ، لماذا ينسى الروح حياته الأولى فى الجسد القديم بعد دخوله فى الجسد الجديد ؟ وهل يعود إلى التذكر بعد التجرد من الحياة الجسدية ؟ أو هو فى كل مرة يرجع إلى ما كان

عليه قبل الحياة الجسدية ، كأنه لم يتلبس قط بالأجساد وماذا تفيد الروح من تكرر الحياة إذا كانت تبقى بعد موت كل جسد ، كما كانت قبل حياتها فيه ؟

الروح والنفس والعقل

ولا يقل عن هذه الأسئلة في الإعضال سؤال السائلين : هل الروح والنفس والعقل شيء واحد أو هي أشياء مختلفات ، وهل هي فردية أو عامة في جميع الأحياء العاقلة ؟

فنهم من يقول إن العقل والروح والجسد كلها هي قوام العنصر المجرد في الإنسان ، وإن ما عداها عنصر جسدى قابل للانحلال .

ومنهم من يقول إن العقل وحده هو العنصر المجرد ، وإن النفس درجات والروح في أعلى هذه الدرجات ، ثم تنحدر درجات النفس فتلتقي بالجسد في الحياة الحيوانية ، ولا يختلف شأنها في هذه الحالة عن شأن الدم الذى ينبعث منه حركة الأعضاء أو شأن الأبخرة اللطيفة التى تتخلل تلك الأعضاء .

والقائلون بذلك يقولون إن العقل عام في جميع العقلاء وإنه غير متوقف على الأفراد ، لأن أحكامه واحدة في جميع العقول وقضاياها ثابتة في جميع الأحوال وذلك على خلاف النفس^(٥) التى تختلف بأذواقها ومشتبهاتها بين فرد وفرد وبين حال وحال .

فالعقل إذن هو الخالد الباقي الذى لا يفنى بفناء أجساد الأحياء ، أما

(٥) ذكرت النفس بلفظها في القرآن ٢٧١ مرة وهى جمع للجسد والروح معاً ، ويرى كثير من الأطباء أن هناك رباطاً قويا بين الأمراض الجسدية والأحوال النفسية للمريض .

النفس فشأنها شأن الجسد في العيز والتحيز وقبول الفناء .

ومن الماديين من يأتى وسطاً بين المجردين والمجسدين ، فعندهم أن وجود الروح لاحق لوجود الجسد ، وأن الجسد إذا ترقى في التركيب نشأت من تركيبه وجهة معنوية أو شخصية مستقلة صالحة للبقاء ، بمعزل عنه وكانت وجوداً جديداً لا ينعدم ، لأن الموجود لا يقبل العدم . ولا فرق في ذلك بين وجود الكيفية ووجود الكم أو المقدار .

وأقرب ما يمثلون به لذلك وجود القصيدة في قريحة الشاعر أو وجود اللحن الموسيقى في قريحة الموسيقار أو وجود الفكرة في قريحة الفيلسوف .. فهذه الوحدات المعنوية من عمل الشاعر والموسيقار والفيلسوف ، ولكنها استقلت بوجود قابل للبقاء بعد زوال من خلقوها وانفردوا بخلقها بين أصحاب القرائح التي لا تحصى .

وتمثيلهم هذا تمثيل تقريب وليس بتمثيل تحقيق . لأنهم يقصدون أن الشخصية الروحية التي يتمخض عنها تركيب الجسد أو تركيب الدماغ خاصة هي كيان قائم بذاته ، وليس بالكيان الذي يتوقف على غيره كقصيدة الشاعر ولحن الموسيقار وفكرة الفيلسوف ، وكل منها لا يقوم إلا بسمع أو معين .

تحضير الأرواح

وإذا أردنا أن نشمل بالكلام في الروح أحاديث القائلين بتحضير الأرواح فالأسئلة هنا تتوارد من أصحاب الدين ، كما تتوارد من أصحاب العلم وأصحاب الفلسفة . فلك أن تسأل هل السيطرة على الأرواح مسألة قدسية إلهية ؟ أو هي مسألة آلية صناعية ؟

حقيقة الإنسان - ٥

فإن كانت قدسية إلهية فما هذه الآلات والأشعة والمصورات والمحركات ؟ وما هذا الارتباط بين تحضير الأرواح الحديث والمخترعات الحديثة ؟ وما هذه السيطرة على الأرواح بسلطان تلك الآلات والمخترعات في أيدي قوم لم تعرف عنهم قداسة ضمير أو رياضة نسك وصلاح ؟ وإن كانت آلية صناعية فأى تغليب للمادة على الروح أقوى من هذا التغليب الذى ينوط كشف الأرواح بتقدم الصناعات والمخترعات ؟ ويجعل عالم الروح كعالم المادة تابعاً لآلة تدار أو مخترع جديد لم يكن معروفاً قبل القرن العشرين ؟ وكيف نفسر أن عالم الروح كله لم يستطع بجهوده وبواعثه أن ينفذ إلى عالم المادة ، وأن عالم المادة استطاع ببعض الأجهزة أن ينفذ إلى عالم الروح ؟ وهل سعت الأرواح إلينا فعجزت في مسعاها ، أو هى لم تسع قط ونحن الذين أرغمناها على الظهور لنا والتحدث إلينا ؟ وما معنى قدرتنا وعجزها في هذه الجهود التى لا قوة لنا فيها بغير أرواح التحضير ؟ .

الروح : اصطلاحات ومعان

وإلى هنا نكون قد خصصنا الروح بالمعنى الذى يقصد به قوام الحياة، أو قوام الحياة والعقل في الشخصية الإنسانية.

ولكن الروح عُمِّمت في القرآن لغير هذا المعنى . وارتفعت بمعانيها في القرآن من الوجود المادى إلى الوجود المتزه عن المادة وخصائصها . وقد تلحق بالوجود الإلهى الذى لا شبيه له في الموجودات .

ولكن الاصطلاح الذى لا يتعرض أصحابه للمحصر والتحقيق يطلق الروح أحياناً على معنى الحياة في كل ذى حياة فيقولون (كل ذى روح) ويقصدون به

عالم الحيوان ويجمعون بين الروح والنفس في معنى واحد . ثم ينحلون النبات نفساً ، ويفرقون بينها وبين نفس الحيوان ونفس الإنسان ببعض الخصائص التي تجعل معنى الكائنات النفسية أحياناً بمعنى الكائنات العضوية في اصطلاح العلم الحديث .

والذين يطلقون الاصطلاح هذا الإطلاق منهم المؤمنون بالدين ومنهم من تقدم الأديان الكتابية ، ومنهم من ظهر بعدها وأنكرها كما ينكرها الدهريون الذين قالوا إنها حياتنا الدنيا نموت فيها ونحيا .

فصاحب الهدية السعيدية المولوى محمد فضل الماتريدى يلخص معانى النفوس فيقول : « إن المركب الذى له مزاج وليس من المعدنيات ذا نفس أرضية .. والنفس الأرضية إما نفس نباتية أو نفس حيوانية أو نفس ناطقة .. وعرفوا النفس النباتية بأنها كمال أول لجسم طبيعى آلى من حيث يتغذى وينمو » .

ثم يقول عن النفس الإنسانية .. إن النفس جوهر مجرد واحد ولها وجه إلى البدن ويجب أن يكون هذا الوجه غير قابل لأثر من جنس مقتضى طبيعة البدن .. ووجه إلى المبادئ العالية ويجب أن يكون دائم القبول عما هناك . والتأثير منه ، فمن الجهة السفلية تتولد الأخلاق ، لأنها تؤثر في البدن الموضوع لتصرفها مكملة إياه تأثيراً اختيارياً وتسمى قوة عملية وعقلاً عملياً .. ومن الجهة الفوقانية تتولد العلوم لأنها تتأثر عما فوقها مستكملة في جوهرها بحسب استعدادها وتسمى قوة نظرية وعقلاً نظرياً .. فالقوة النظرية من شأنها أن تنطبع بالصورة الكلية المجردة من المادة .. فإن كانت مجردة فلا تحتاج في أخذها إلى تجريدها .. وإن لم تكن فتصير النفس مجردة بتجريدها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة . فإذا أغضينا عن فوارق الأسلوب ففي هذا الكلام مواطن اتفاق كثيرة بين

الأقدمين والمحدثين ، وبين الفلاسفة والعلماء ، وبين أصحاب الدين وغيرهم من المفكرين .

فجميع هؤلاء متفقون على التفرقة بين الجسد العضوى ، والجسد الذى لاتعضى فيه .. وجميع هؤلاء متفقون على إلحاق النبات بعالم الحياة فى خصائصها التى تميزها من المادة على الإطلاق .

وجميع هؤلاء متفقون على النطق أو العقل خاصة إنسانية تميز الإنسان من الحيوان ، ولكنهم إذا جاءوا إلى الصفة التى تكسب الحى قدرة المعرفة وقع بينهم أكبر اختلاف يقع بين مختلفين .

فتوزع القوى المدركة فى النفس على حسب الاتجاه العلوى أو السفلى كلام يسيغه بعض الفلاسفة وبعض المتكلمين ولا يسيغه الآخرون .

وتدرج القوة العاقلة من الحيوان إلى الإنسان كلام ينكره الدينيون ولا يتفق عليه علماء الطبيعة الذين يجعلون العقل من عنصر غير عنصر الغريزة أو البدهة الحيوانية .

وينتهون جميعا إلى (علم قليل) فى هذا المبحث العويص الذى لا يدانيه فى اعتياضه مبحث آخر من مباحث الطبيعة أو ما وراء الطبيعة ^(٦) .

وقبل أن نسترسل فى تفصيل ما أوضحناه إجمالاً نلفت النظر إلى أننا لسنا نسرد هذه الخلافات ، لنقطع فيها بقول فصل لا خلاف عليه ، ولسنا نسردها للفصل فى مكان الروح من الجسد أو الادعاء بالإحاطة بأسرارها وأسرار النفس ، فكما تلغز علينا من الأسرار .. فليس إلى ذلك من سبيل .. بل إن العلم المتجدد مهما بلغ به الترقى ، فإنه لن يصل إلى تفسير عمل الروح . ولسوف

(٦) الفلسفة القرآنية / العقاد .

يبقى ذلك مكنوناً عنا تأكيداً للمعنى (الروح من أمر ربى) .. (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

والروح أرضية فى رأى طائفة
وعند قوم تُرقى فى السموات
تمضى إلى هيئة الشخص الذى سكنت
فيه إلى دار نعمى أو شقاوات
وكونها فى صفيح الجسم أخرجها
إلى ملابس عنها وأقوات
(المعرى)

البَابُ السَّادِسُ

الروح والنشاط الروحي

الجمعية الروحانية

في سنة ١٧٣٥م صدر في إنجلترا قانون يعتبر الاشتغال بالروحانية شعوبة يستحق فاعلوها العقوبة من الدولة.. ثم صدر قانون آخر في سنة ١٨٢٤م يعتبر الوسطاء والمساعدين الروحانيين منشردين لا عمل لهم ، ولكن مجلس العموم البريطاني قد ألغى هذين القانونين بإجماع الآراء .. ومنذ ذلك الحين نهضت حركة الدراسات الروحانية في إنجلترا حتى تم تأسيس جمعية المباحث الروحانية في إنجلترا سنة ١٨٨٢م بلوندره بعد أن كان المذهب المادى قد أوغل وأخذ يعلن أنه ليس هناك عالم سوى هذا العالم المنظور وأنه ليس شىء سوى المادة وأنه لا مكان للروح في هذا الوجود .. وقد جاء في كتاب الشخصية الإنسانية للعلامة الأستاذ (هـ . و . مبرس) مدرس السيكولوجيا في جامعة كامبردج أن شلة من الزملاء اجتمعوا سنة ١٨٧٣م، وأجمعوا رأيهم على ضرورة بذل الجهود الجادة في مجال المباحث الروحانية لا بالتأمل فيما وراء الطبيعة ، بل بالتجربة والملاحظة وبمعارفنا عن العالم المرىء المحسوس .. وأن تؤسس على البحث العلمى بالمعنى الدقيق بإجراء تجارب يمكن تكرارها كل يوم ..

وقد جمعت جمعية المباحث الروحانية من التجارب الروحانية ما وقع في نحو أربعة وخمسين مجلداً .. وقد كتب عنها الأستاذ (وليم جيمس)^(١) في كتابه

(١) وهو مدرس علم النفس بجامعة هارفارد ويعتبر من أعظم علماء النفس في القرن ١٩. وتلميذه وليم مكدوجل أستاذ علم النفس بجامعة ديوك ويعد عمدة علم النفس الاجتماعى ، ومن أعظم علماء النفس في القرن ٢٠ .

إرادة الاعتقاد يقول :

هذه الجمعية في إنجلترا وأمريكا قد سمحت بأن يتلاقى العالمان (العلمى والروحانى فى مجال واحد وسوف يكون لها نصيب كبير فى ترتيب المعارف الإنسانية ..)

وكان الرأى العام قد حمل المجمع العلمى الإنجليزى -- قبل أن تتألف هذه الجمعية -- على تأليف لجنة لفحص الظواهر الروحية وتمحيصها فندبت ثلاثة وثلاثين علماً من أعلامها لهذه المهمة العلمية ، وبدلوا فى تحقيق هذا الموضوع ثمانية عشر شهراً ثم حرروا تقريراً إجماعياً وقع فى ٥١٤ صفحة وطبع بأكثر من لغة حية جاء فى آخره ما نصه^(٢) :

(اكتفت اللجنة فى تقريرها بذكر المشاهدات التى كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة إلى الدليل القاطع .. وقد اقتنعت اللجنة .. التى بدأت عملها بإنكار صحة هذه الظواهر بشدة ، وأن مشاهداتها خلال البحث هى مشاهدات حقة لا غبار عليها .. إلخ)

ولقد كان لهذا التقرير أثر علمى عام فاهتم العلماء فى كل مكان ببحث هذه الخوارق وتألف مئات الجمعيات لذلك ، وصدرت المجلات الروحية وأقيمت خمس مؤتمرات عالمية فى لوندرة وباريس أصدرت تقارير هامة ترجمت إلى اللغات الحية .

ذلك ما كانت عليه مرحلة العلم بالناحية الروحية إلى أواخر العقد الثانى من القرن العشرين ، حتى إذا استثارت هذه المباحث عقل وليم مكدوجل ورأى أن ندرة تلك الظواهر الروحية التى أشرنا إليها سابقا والتى اعتمد عليها العلماء السابقون فى تقريرهم وهى الظواهر التى تعتمد على الوساطة الروحية ، نادرة

(٢) عن كتاب من عالم الفكر والروح للأستاذ / السيد كمال الشورى .

الوجود بين الأفراد مما يجعل من المستحيل لتلك التجارب أن تتكرر بالانتظام العلمى المطلوب فى إثبات الظواهر الكونية والقوانين الطبيعية .

فطلب مكدوجل من صديقه الدكتور (راين) وكان أستاذا للنبات وعضواً فى جمعية المباحث الروحية أن ينظم فى بحث علمى تجربى يخضع لكل الاشتراطات العلمية من القابلية للتكرار والتحكم العلمى الدقيق ، وأن يقوم مكدوجل بإنشاء معامل تخصص لهذا النوع من البحث فقط .. وفعلاً أنشئت معامل الباراسيكولوجى (ما وراء علم النفس) بجامعة ديوك بولاية كارولينا الشمالية بالولايات المتحدة الأمريكية ودخل فيها (راين) وزوجته (أستاذة علم النبات) وبدأوا فى أوائل العقد الثالث يوالون أبحاثهم التجريبية فى معامل تجريبية أدخلت إليها ، وفيها جميع أساليب الضبط والتحكم العلمى الدقيق لدرجة أن القيود العلمية التجريبية التى أدخلت على بعض هذه التجارب كانت أكثر من كل قيود فرضت على أى تجربة علمية سابقة .

وكان من نتيجة هذه الأبحاث التجريبية الوصول إلى النتائج التالية :

١ - درس (راين) ومعاونوه ظاهرة انتقال الفكر (التلبى) وأثبتوا وجودها علمياً .

٢ - درسوا ظاهرة الاستشفاف أو الجلاء البصرى ، وهى الإحساس بالحوادث التى تحدث على مسافات بعيدة ، وأثبتوا وجودها .

٣ - أثبتوا أن انتقال الفكر أو الجلاء البصرى مظهران لظاهرة واحدة أطلقوا عليها اسم : (الإدراك خارج الحواس) .

٤ - أثبتوا أن ظاهرة الإدراك خارج الحواس لا تخضع للرقابة المكانية والزمانية التى تخضع لها جميع الظواهر المادية ، وظواهر الطاقة سواء أكانت كهربائية أم حرارية أم ضوئية أم غيرها ، بمعنى طاقة الجاذبية ، أو طاقة الضوء

التي تخضع لقانون التربيع العكسي أى أن شدة الجاذبية أو شدة الإضاءة تتناقص بنسبة تناسب مع مربع البعد عن مكان مصدر الضوء ، أى أن قوة إضاءة الشمعة إذا أبعدت عن الرأى - الذى يراها على بعد متر إلى مترين - أى ضعف المسافة نزلت قوة الإضاءة إلى الربع أى عكس مربع ٢ وهو ٤ فتصير (ربع) .

هذا من ناحية العلاقة المكانية التي تخضع لها كل أنواع الطاقة .
كذلك العلاقة الزمانية التي يعبر عنها في العلوم الطبيعية بقانون (السببية) أو العلة والمعلول ، أى أن السبب يسبق النتيجة دائماً ، ولكن هذا القانون انكسر في تجارب الإدراك خارج الحواس بمعنى أنه يحدث تنبؤ فيحدث الإدراك العقلى للحادثة ، وهى نتيجة قبل أن تحدث الحادثة في الكون وهى المؤثر أو السبب .

٥ - أثبت هؤلاء الباحثون أن العقل الذى يتأثر بالقانون العام المعروف في علم النفس وهو قانون (المؤثر والاستجابة له أو الرد عليه) كذلك العقل يستطيع أن يحس وأن يتأثر بالمادة عن طريق الإدراك الخارج عن الحواس ، وكذلك يؤثر في المادة بالطاقة التي سموها الطاقة النفسية المحركة ، أى أن العقل يؤثر في المادة دون اتصال مادي مباشر .

٦ - فإذا كان هناك إدراك خارج الحواس وطاقة نفسية محركة فهذا دليل على أن للشخصية الإنسانية شقاً لا يخضع للقوانين الطبيعية المعروفة في علم الفيزياء والكيمياء . أى أنه شق روحى .

ولقد أصبحت هذه النتائج في موقف علمى فوق النقد أو الجدل وبخاصة أن هذه البحوث التجريبية قد عرضت على مؤتمرين لكل علماء الرياضة

الإحصائية وعلم النفس في الولايات المتحدة الأمريكية وأخذت إقرارهم جميعاً^(١)..

أربع مقالات هامة

وقد نشرت مجلة (سايك نيز) سلسلة من المقالات التي كتبها لها العالم الروحي (توى وارنر ستبلز Joye Warner-Staples) في موضوع الوساطة الروحية عند المسلمين^(٢) « تحدث فيها عن النبي محمد ﷺ ، وهل كان وسيطاً روحياً - وعن جبريل (الوحي) وعن تحدث إليهم الرسول في الأحلام - وعن كرامات الأولياء - وتضارب الأرواح المهيمنة - وعن رؤا النبي ﷺ - وعن الجلاء البصرى وتسخير الجان والحسد » وهى آراء تعبر عن أفكاراتها ، وهى ليست بالضرورة متفقة مع رأينا أو مع الرؤية الإسلامية وإنما نعرضها كنموذج للمباحث الروحية التى أشرنا إليها ونافذة على وجهات النظر الغربية ..

يقول ستبلز فى مقاله الأول :

بحثت كثيراً من حالات الوساطة الروحية عند المسلمين ولنضرب لذلك بعض الأمثلة التى تثبت انتشار الوساطة الروحية عند المسلمين بوجه عام وعند النبيين بوجه خاص :

(١) ومن أراد الاستزادة من هذه الأبحاث فليرجع إلى كتاب العقل وسطوته تأليف (ح . ب . راين) وترجمة الدكتور محمد الحلوجى.

(٢) عن كتاب من عالم الفكر والروح للمؤلف السيد كمال الشورى.

وفرق الأستاذ بين الوساطة الروحية عند النبيين وبينها عند الأولياء
والقديسين والجان وبين ما يراه النائم في نومه وبين ما يفعله الساحر من سحر
وطلاسم .. وسأنتقل في هذا المقال قبساً من ترجمة عن المصادر العربية كما
يذكرها في كتابه المسمى « الأديان والوساطة الروحية عند المسلمين » مبتدئاً
بالكلام عن النبي محمد ﷺ ، عندما سئل كيف كان ينزل عليه الوحي فقال :
« كصلصلة الجرس » ثم أضاف يقول : « كان الملك يأتيني في بعض الأحوال
كصلصلة الجرس وهذه أشق حالاته عليّ ، ثم ينصرف عني وقد حفظت عنه
ما أوحى إلي . وفي أحوال أخرى كان يأتيني في هيئة رجل يحدثني فأحفظ عنه
ما يقول » .

وتقول عائشة زوجة النبي ﷺ ، إذا نزل الوحي على النبي في الليالي
القارسة البرد تصعب العرق من جبينه .

فمثل هذا الوحي لا يمكن أن يكون مزعوماً - ويترتب على ذلك أن الرسول
كان وسيطاً قوياً^(٤) للغاية - فكان ذا جلاء بصرى وسمعى فضلاً عن أنه كان
ﷺ كثيراً ما يقع في الغيوبة . وليس أدل على ذلك من قوله تعالى في سورة
القيامة آية ١٦ ، ١٧ : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه
وقرآنه) .

ويضيف ستيبلز : وعندما وصف الرسول الموت قال : « الناس نيام فإذا
ماتوا انتهوا » . وهذا حق لا ريب فيه والدليل على ذلك انتشار هذا المعنى
وتحققه في حياتنا العادية . ولقد علق الإمام الغزالي (المتوفى سنة ١١١١ م) على
هذا الحديث بقوله : « ربما كانت الحياة في هذه الدنيا كالنوم بالنسبة للحياة
الأخرى ، فإذا مات الإنسان تراءت له الأشياء على حقيقتها ، وعند ذلك يقال

(٤) رأى ماكدونالد .

له كما جاء في سورة ق آية ٢٢ : (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) ،
 أى : فبصرك نفاذ يخترق الحجب » وهذا ما يتفق مع الروحية الحديثة ..
 ثم يتحدث ستيبلز عن الملك جبريل (الوحي) فيقول : ذكروا أن النبي
 محمدا ﷺ رأى الملك جبريل مرتين في صورته الحقيقية .. المرة الأولى ..
 حين نشر الملك جناحيه فلأبهما الأفق من الشرق إلى الغرب .. والمرة الثانية ..
 في ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى وهى آخر ما وصل إليه المرسلون .. وفى غير
 هاتين المرتين كان النبي ، ﷺ ، يراه فى هيئة رجل .. وقد قيل إنه ليس فى
 مقدور البشر أن يروا الملائكة والشياطين فى صورهم الحقيقية إلا إذا أعطوا النبوة ،
 فإنهم حينذاك يرونهم على حقيقتهم ، وهذا ما نسميه بالجلاء البصرى . ومثال
 ذلك تنبؤ سيدة من قریش تدعى سودة بنت زهراء بميلاد الرسول فقد قالت
 عندما مرت أمامها بنات قریش : أن إحدى هذه البنات ستحمل رجلا ينذر
 البشر (تقصد النبي ﷺ) فلما مرت امامها آمنة بنت وهب قالت : ها هى ذى
 التى ستحملة .

ويصف ابن خلدون المؤرخ العربى الوسى بأنه كان شديد التأثير على الرسول
 ﷺ لدرجة كانت تنعدم فيها إرادته فيقع فى الغيبوبة ويسمع لنومه شخير ثم
 لا يلبث أن يغمى عليه .. فى هذه اللحظة كانت تتم (مقابلة الرسول مع الروح
 الأمين) وهذا معناه أن الرسول كان يقع تحت تأثير الملك جبريل فإذا أفاق من
 غيبوبته استعاد كل ما قيل له مما يقطع أن حواس النبي ، ﷺ ، كانت معدة
 لتلقى العلم عن ربها كأن شخصا يحدثها به ، وفى اللغة الروحية الحديثة نقول إنه
 كان صاحب جلاء بصرى وسمعى ، ويميز ابن خلدون بين الرسل أصحاب
 الكتب والنبیین الذين لم يبعثوا بكتب منزلة : أما الأولون فكانوا يرون الروح
 الأمين ويكلمونه ومن ثم فهم الروحانيون حقاً .. أما الآخرون فكانوا يتلقون

الرسالات الروحية بالسمع وحده فهم أصحاب جلاء سمعى فقط .. أما الصوفيون فقد ذاعت بينهم حالات الغيبوبة ومن ذلك (أبو الخير الأقطع) الذى قيل إنه مرض بـ (غرغرينة) فى قدمه ورفض أن تبتز قدمه فأشار تلاميذه على الطبيب أن يبتزها فى أثناء صلاته ، لأنه إذ ذاك يكون فى غير وعيه ، ومن ثم قطعت قدمه ولم يشعر هو بشيء .. مما يدل فى رأى (ستيلز) أنه كان فى الغيبوبة وهى حالة روحية كذلك ظهر الجلاء البصرى أيضاً على الولي أبو الحسن الخرقانى (المتوفى سنة ١٠٣٣ م) فقد أخبر بجرح عدد معين فى مكان معين (وتبين بعدها صحة الواقعة) وعلى الرغم من صدق هذا التنبؤ فقد قتل ابنه ووضعت رأسه عند عتبة بيته دون أن يعرف عنها شيئاً .. فقد كشف بصره فى الأولى وأسدل الغطاء على بصره فى الثانية .

وفى المقال الثانى : يقول (ستيلز) فى مجلة سايكك نيوز :
يروى المؤرخ الشهير ابن خلدون وقائع عن الأحلام ظناً منه أن الأحلام بطبيعتها كالوحي للرسول مع بعض الفروق بينهما .. ويعلل ذلك بأن الله خلق الإنسان بطريقة يمكن معها كشف الحجاب عن حواسه أثناء النوم فإذا استيقظ النائم من نومه عاد إليه علمه بالأشياء من عالم الحقيقة ذلك العالم الذى نستمد منه النور فى علومنا الحديثة . من أجل ذلك كان الرسول وأصحابه يفسرون الأحلام معتقدين فى حقيقة أمرها وفى أن الصادق منها هو جزء من النبوة . وعن الرمزية فى الأحلام يستطرد قائلاً : ولما كانت لى أحلام تحققت عدة مرات وفى ظروف عديدة هامة فإنى أشعر بأحقية ما ذكر عنها ، فضلاً عن ذلك فقد رأى سيدنا محمد ﷺ ، أحلاماً رمزية كثيرة كأن لها أثراً كبيراً فى تفسير الأحلام من بعده ومن ذلك أن (اللبن) مثلاً كان رمزاً على الإسلام .. والحبل

رمزاً على القرآن .. لأن اللبن يغذى كما يغذى الإسلام الروح ، والحلب يجذبنا إلى النجاة كما يحملنا القرآن إلى بر الأمان .. وهناك روايات كثيرة عن أحلام صادقة يرويها العلامة ابن خلكان .. ونصر بن خسرو .. والأشعري (زعيم ديني) .. إلخ .

ويقول الأستاذ ماكدونالد : أن كافة المسلمين في العالم يعتقدون في الأحلام ويخيل إلى (ستيلز) أنهم لم يعتقدوا فيها إلا بعد أن تحقق جانب كبير منها . أما عنى فقد أمرت أن أسترشد بهذه الأشياء في تفسير أحلامي ، لأنه خلال النوم يستطيع أصدقائنا غير المتجسدين أن يتصلوا بنا على هذا النمط .

وفي المقال الثالث : يتحدث الروحي (توى وارنر ستيلز) إلى مجلة سايكك نيوز عن كرامات الأولياء ، فيقول :

إن مراتب الكرامات عند الأولياء من المسلمين كما رواها دكتور نيكلسون هي السير على الماء والطيران في الهواء (بمصاحبة الغير أو بدونه) وإنزال المطر من السماء ، والظهور في أماكن مختلفة في وقت واحد ، ومعالجة المرض بالنفخ ، وإحياء الموتى ، والتنبؤ بالأمور المستقبلية ، وقراءة الأفكار ، وتحريك الأشياء دون وسيلة مادية ، وشل حركة الأشرار بكلمة أو بإشارة ، والتحدث مع الحيوانات أو النباتات ، أو جعل التراب ذهباً أو أحجاراً ثمينة ، وإحضار الطعام أو الشراب .. إلخ . وفي الواقع أن هناك تماثلاً عجبياً بين الأعمال السحرية والظواهر الروحية الحديثة ، وإنى لأقرر بأن الطيران كرفع الأجسام أو نقلها دون وسيلة مادية شبيهة بالظواهر التي كان يحدثها الوسيط (هوم) .. و (سان فرنسيس) و (سان فيليب) الإنجليكان وغيرهم ممن وهبوا الوساطة الروحية .

والعلاج بالنفخ نوع من العلاج المغناطيسى وهو علاج قديم يرجع فى اعتقاد (ستيلز) إلى قدماء المصريين كما ذكر فى (كتاب الموتى) ولا يزال المعالجون الروحانيون يستخدمونه إلى اليوم .. فى حين أن التنبؤ وقراءة الأفكار من صيغ الاستشفاف والجلء البصرى .. أما تحريك الأجسام بغير وسيلة مادية فشائع فى حجرات تحضير الأرواح .. ومن الثابت أن السيد المسيح عالج فى حياته مثل هذه الحالات . ومن الضرورى أن أتباعه قادرون على اتباع طريقته فى علاج المرضى اليوم .. أما المسلمون فإنهم فى تنميتهم للوساطة بالروحية يكولون الوسيط لعناية روح مرشد طيب ، هو روح ولى توفى من زمن بعيد أو إمام من أئمة الدين ، وعندئذ يكتسب الوسيط كل قوى الولى الروحية ، أو هو كما نقول يكون خاضعاً لهيمنة هذا الولى .. وقد ترقى قوة الإبصار الباطنية عن طريق الحواس الروحية عند المتعبد بحيث يصبح ذا جلء بصرى فىرى المناظر بعينيه سواء أكانتا مغلقتين أم مفتوحتين .. ويصف (توكل ييج) كيف مرت السيدة فاطمة بمثل هذه الحالة التى قالت فيها :

« إنى وصلت إلى حالة روحية كنت معها لا أنام ولا أصحو حتى تتمثل أمامى روح الرسول ، ﷺ ، وأصحابه والمؤمنون المتقدمون وسائر الأولياء .. »
ويحدثنا الزاهد الرحالة أبو القاسم عن الأمارات التى كانت تظهر له إذا عطش خلال رحلاته فى الجهات المقفرة فيقول إنه عندما سأل ربه أن يبعث إليه رسولاً يحمل ماء فى إناء أخضر كى يعلم أنه من عنده تعالى لا من عند الشيطان رزقه ربه إياه .. وأنه بعد أن استمر فى صلاته ثلاث ليال وثلاثة أيام كان يرى أصحابه وهم فى جهات شتى من العالم .. وهذه مسألة روحية بحتة .

وفى المقال الرابع لستيلاز يقول :

يبدو أن المسلمين تسودهم فكرة أن الروح تستطيع أن تعرف المستقبل كله ، بيد أن اللوح المحفوظ المتضمن أحداث هذا المستقبل والخبأ في السموات العلا مستور عن العقول الواعية للبشر ، وعلى الرغم من أن المؤلفين المسلمين يقولون : إن هذا الحجاب يرفع أحياناً عن الإنسان في أثناء النوم فتتكشف للروح حقائق المستقبل ، وقد تنكشف في أثناء اليقظة إذا استغرق الإنسان في العبادة فإن كلا النوعين من الجلاء البصرى (يحدث بواسطة ملاك يلهم القلب المعرفة) وهذا ما يتفق وآرائنا عن الأرواح المرشدة الخاصة أو الأرواح الرقباء التى تؤثر في الوسطاء أو تتكلم خلاصهم وهم في الغيبوبة أو بالصوت المباشر أو بالجلاء السمعى .

وتنطبق فكرة اللوح المحفوظ على السجلات الروحية لبعض الذين يتمتعون بالجلاء البصرى فيمكنهم القراءة إلى درجة كبيرة أو صغيرة ، وكثيراً ما نقرأ في الكتاب المقدس للعهد الجديد عن هذه المدونات لحياة وأفعال رجل مما يدل على أن الفكرة كانت واسعة الانتشار .. وقد جاء في القرآن قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسلاً) مما ينهض دليلاً على فكرة الجلاء السمعى الشائعة بين المسلمين فقد قيل أن الشعرانى (ولى الله) كان ذا جلاء سمعى فكثيراً ما كان يسمع أصواتاً عند استيقاظه تنصحه أو تحذره ، كما كانت تنكشف له الحقائق في الأحلام .. ويستطرد ستيلاز فيقول :

ويقول الغزالى : إن طريق الصوفية هى خير الطرق للوصول إلى الله ، فنذ البداية تنكشف للمتصوف حجب الغيب ، وكشف روحه إلى درجة يستطيع

معها أن « يرى في اليقظة الملائكة وأرواح النبيين ويسمع أصواتهم ويتلقى المعرفة عنهم » .

ولما كانت هذه المميزات الغيبية والروحانية تأتي إليه كنتيجة للصلاة والاتجاه الصادق إلى الله فقد وجب أن تكون الوسيلة من أرق طراز حتى يمكن الاعتماد عليها .. ولقد ترك لنا العلامة المسلم ابن خلدون تفسيراً يتفق تماماً وما يقوله علماء اليوم عن مختلف الصور للتنبؤ بالمستقبل كالنظر في البللورة والرؤية بقلوب وأكباد الحيوانات وكؤوس الماء أو الحصى والرمل .. إلخ . إذ يقول بحق إن الرؤية إنما تتركز في شيء ثم تتجسد في شكل منتظم (في البللورة أو المرآة) حتى تصبح واضحة للعيان بحيث يستطيع أن يصفها وهو يقول إنهم ينظرون في سطح المرآة حتى يخفى ويظهر فيما بينهم وبين سطح المرآة ستارة كأنها سحابة تظهر عليها المراتب فتكون هذه هي الأشياء التي يتصورونها وهذا يمكنهم وصف ما يراود معرفته نفيّاً أو إثباتاً وهذا الإدراك يتعلق بالروح لا بالبصر .. ويستطرد سبيلز في كلام ابن خلدون عن تسخير الجان والحسد فيقول : إن تسخير الجان مقدرة روحية لا تعتمد على حاسة البصر ، وإنما يستطيع الرائي بفضل التلاوات أن يهيمن على الحواس المادية وحدها بواسطة بخور أو بواسطة (تعاويذ) كطريق لإعداد الحواس لتقبل ما تراه .

ويعتقد ابن خلدون في مس الجان ويفسره وخاصة في حالات الجنون ، وهذا كله في القرن الرابع عشر . ومع ذلك ينكر الكثيرون هذه الحقائق ويريدون التثبت منها ، وابن خلدون مؤرخ معروف ولد في تونس وكان في أوقات مختلفة سياسياً وعالمًا ومحامياً وسفيراً لدى الملك بطرس ملك أشبيلية ولدى تيمور في دمشق ، وقد مات ابن خلدون في القاهرة (١٤٠٦ م) وهو قاضي القضاة تاركاً وراءه مؤلفه (تاريخ العالم) المعروف باسم (مقدمة ابن خلدون)

ومن ثم لا يمكن أن يتهم بأنه كان سهل الانقياد أو الانخداع أو ضعيف العقلية .. وكان يعتقد أن في استعمال الطلاسح اتحاد الروح بالشيء المادى فى فكره اتحاداً تتجلى فيه الطبائع السماوية العليا والطبائع الدنيوية السفلى . كذلك كان ابن خلدون يعتقد فى قوة العين الحاسدة ظناً منه أنها تحسد من تلقاء نفسها .. وأحسن مثال قدمه ابن خلدون عن (التلييائى) و(الجللاء البصرى) هو ما ذكره فى بيان عن ثاى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب إذ يقول أن عمر كان يخطب فى المدينة وفجأة وقف ونادى : (يا سارية .. الجبل .. الجبل) وكان سارية وقتذاك قائد المسلمين فى العراق وكان المشركون يهجمون عليه فى تلك الساعة - غير أن صوت عمر وصل إليه من المدينة ونبهه إلى الجبل .. ولقد علمنا كثيراً من الحالات المشابهة التى وقعت أيام الصحابة وأتباع المسيح مما يدل على أن النبى والمسيح قد وقع اختيارهما على من تتجلى فيهم هذه المقدرة الروحية من أتباعها .. وإن أمثال هؤلاء إنما انساقوا بكليتهم إلى مبعوثى هاتين الديانتين العظيمتين بما لديهم من الهبات الروحية والنفسية ، ومما لاشك فيه أن ابن خلدون كان يعتقد فى السحر تبعاً لما سجله القرآن عن أحواله كحالة الملكين هاروت وماروت فى بابل وهما اللذان علما الإنسان هذا الفن الملعون .

وقد سحر لمحمد ﷺ ، نفسه بدليل قول الله فى القرآن : (ومن شر النفائث فى العقد) وتقصى زوجته عائشة كيف حلت هذه العقد السحرية من تلقاء نفسها بمجرد قراءة سورة من القرآن .. ويحدثنا ابن خلدون عن وصف ساحر مصرى تلا على تماثيل من الشمع تمثل الضحايا فقال : (تقل الساحر مراراً على التمثال وهو ممسك بجبل عقده حول التمثال مستعيناً فى ذلك بنفر من الجن وعند ذلك انطلقت من التمثال روح شريرة وانقضت على غريمه) .. وقد

هب واضعو الإنجيل يجرمون هذه الأعمال بين الناس .. ويذهب ابن خلدون في تفسيره لأنواع السحر إلى ما يتفق ورأى المحدثين هذه الأيام فيقول : (إن الروح تؤثر في الجسم المادى كما تتولد الحرارة بالضحك أو الخوف) .
وإلى هنا انتهت سلسلة مقالات ستبلز التى رأينا نشرها كنمط من أنماط التفكير الروحى فى عصرنا وسوف يأتى تعليقنا على ما جاء بهذه المقالات فى حينه .

مصر والاهتمام بالنشاط الروحى

اهتم عدد من العلماء ومن بينهم أكثر من أستاذ جامعى وتألفت منهم جمعية علم الروح فى مصر ، وقد تطوع الأستاذ أحمد أبو الخير سكرتير عام الجمعية لدعوة عدد من الروحانيين المتخصصين للحضور إلى مصر من الخارج ، ليدلّلوا ببراهينهم على صدق هذه المسائل وقامت الجمعية بالدعوة إلى أن علم الروح لا يرتكز على خرافة أو دجل أو بنجور أو تلاوة عبارات مخصوصة ، وإنما عماده الأول هو صفاء النفس والسريّة . وقد صدر للأستاذ أحمد فهمى أبو الخير سبعة كتب فى هذا الموضوع تناولت العديد من جوانبه كذلك فإن الأستاذ / السيد كمال الشورى يقول فى كتابه (من عالم الفكر والروح) :
يتوهم البعض خطأ أن الروحية نوع من السحر أو الشعوذة ، فى حين أن الروحية أمر يختلف كل الاختلاف فهى تستلزم لفهم بعض دقائقها الإلمام بعلمى الطبيعة والكيمياء ، مما يقطع بأنها ليست خرافات أو مصادفات .. وتقول المجلات الروحية أن علماء الغرب استطاعوا أن يزنوا الروح ويصوروها ويدفعوها إلى الكلام بأصواتها المباشرة المعروفة ، كما استطاعوا أن يجسّدوها ويأخذوا لها

البصمات التى تضاهى بصمات الشخص قبل انتقاله إلى عالم الروح^(٥) .
كذلك فإن الدكتور رءوف عبيد (أستاذ جامعى) قد بذل جهداً كبيراً يقع
فى أكثر من ١٩٠٠ صفحة فى كتابه (الإنسان روح لا جسد) نقل خلالها
القارئ إلى عالم آخر مع الأرواح التى ذكر العديد من أنواعها ، وقال إن الموت
فى عرف علم الروح الحديث ليس نهاية الحياة ، بل مجرد انتقال من حال إلى
حال .. من عبودية الجسد إلى حالة انطلاق الروح فى يوم الميلاد يوم سجن للروح
ويوم الموت يوم إطلاقها فهو خير من يوم الولادة والمختصر كالنائم يحلم حلماً
جميلاً يعقبه رد فعل عميق من الإحساس بنشوة الانطلاق إلى عالم الخلود
والحرية .. وعالم الروح هو العالم الحقيقى .. أما عالم المادة أو الحياة فهو مظهرى
من صنع الخواس ، ومع ذلك فعالم الروح لا يرى ولا يسمع ولا يلمس ، لأنه
أثيريهز - أى يتردد - بسرعة تتجاوز سرعة الضوء والأثير وسط غير مادى تغلغل
فى كل شىء ، وهو صلب جداً ومرن جداً فى نفس الوقت ولذلك فهو يتخلل
عالمنا ويحيط به من كل الجهات ، ولكن الأحياء لا يشعرون به لوقوعه فى هذه
المنطقة العالية من الاهتزاز ، كمروحة الطائرة تراها وهى ساكنة فإذا بدأت فى
الدوران غابت عن ناظريك .. فلا تعود تراها من شدة الدوران ، ويستطرد
الدكتور رءوف عبيد فى مجلده الضخم يقول : وفى عالم الروح لا يعيش الجميع
سواء ، فلكل روح حسب عملها مكان من سبعة ، يطلق عليها علم الروح
مستويات عدة : هى مستوى الجحيم أو الحياة البائسة - وهى مثنى الأرواح
الشريرة وذوى الآثام ومستوى الرغبات وهو يعد مستوى منحطاً - ومستوى
السمو أو الأرض السعيدة - تذهب إليه الأرواح الطيبة الراقية من سكان
الأرض - ومستوى العقل - ومستوى التجريد ومستوى تقابل الجنسين - وفيه

(٥) انظر : الروح تحت مجهر الطب بالصفحات التالية للدكتور مصطفى الديوانى .

تختفى الخصائص المميزة لكل من الجنسين - ثم السموات العليا غير المحدودة التي تمثل ذروة المجد والنعيم .

ويقول الدكتور / رءوف عبيد : إن عالم الروح لا يختلف كثيراً عن عالمنا المادى فليس كل الأرواح يعرف كل شيء ، ومنها بلغت الروح من الرقى والنضج فهي لم تطلع على شيء يذكر من خفايا الكون وأسراره ، وكلما ازداد رقى الروح ارتفع مكانها من المستويات السبعة وصار الاتصال بها أصعب مثلاً ، فضلاً عن أن بعضها يفضل ألا يفصح عما يعرفه وأساليب الحياة هناك متنوعة بالنسبة لتعدد مستويات الوجود ، وأكثر المعلومات مستمدة من المستوى الثالث الذى يعد بمثابة مهجر للناس بعد الموت .

والجمال هنا لا يتسع للمضى بأكثر من هذا القدر مع كتاب الدكتور رءوف عبيد .

الروح تحت مجهر الطب^(٦)

وفى مقال طويل للدكتور / مصطفى الديوانى (الطبيب) والأستاذ الجامعى يقول :

إن للروحيين منطقاً لطيفاً يتلخص فى أن هناك جسداً أثرياً يفارق الجسد عند الوفاة ، ويتكون من مادة اسمها الاكتوبلازم توصل العلماء منهم إلى تحليلها ميكروسكوبياً ، وإلى تصويرها بالأشعة تحت الحمراء فوتوغرافياً وسينمائياً .. ويبلغ وزنها بضع عشرات من الجرامات وهذه المادة هى التى تنبثق من جسيم الوسيطاء لتصل وتحول مختزقة الحجب ومتعدية الأميال فى ثوان دقيقة ، فتصل إلى

(٦) مجلة الهلال العدد ١١ نوفمبر سنة ١٩٧١ .

أما كن قاصية وهم يفسرون إسرائ النبي ، ﷺ ، بأنه طرح روحى لا جسدى ويصفون محمداً ﷺ ، بأنه من أعظم الروحيين الذين وجدوا على ظهر البسيطة .

ويعتقدون أن الأنبياء والرسل يتمتعون بالجلاء البصرى والجلاء السمعى ، ويفسرون نزول الوحي على الرسل بأنه يتم حين تعريضهم غيبوبة تغادر الروح خلالها الجسد ، مع بقائها متصلة به بحبل أثيرى فى حين تهيمن روح أخرى على الرسول وتنطقه بالإعجاز المبين ، كذلك يرون أن النوم طرح مؤقت للروح ، وما الأحلام إلا سياحاتها فترى الأحياء والأموات على حد سواء .. أما الموت فإنه طرح روحى دائم ومتى انقطع الحبل الأثيرى فلا أمل فى عودة الميت إلى الحياة .. ويقولون إن الحبل الأثيرى الذى يفرق بين النوم واليقظة وبين الموت والحياة ، يبدأ من مكان حيوى فى المخ المادى حيث تتجمع جميع المراكز الحيوية التى تسيطر على القلب والتنفس ، وينتهى فى نفس المكان من الروح الأثيرية ، فإذا كان الشخص مستلقياً على ظهره ووجهه إلى أعلى طرحت الروح ووجهها إلى أعلى أيضاً ، وبرز الحبل الأثيرى من الجهة لينتهى فى مؤخرة الرأس من الجسم الأثيرى ، وتكون الروح فى بداية الأمر موازية فى اتجاهها للجسم المادى ثم تتخذ بالتدرج وضعاً عمودياً ، قبل أن تبدأ سياحتها فى عالم الروح وعند الاستيقاظ نتيجة ضجة أو انفعال شديدين تعود ثانية إلى وضعها الأفقى ، ثم تقترب من الجسم على حين يقصر حبل الاتصال حتى تحل الروح فى الجسد مرة ثانية . ويستطرد الدكتور مصطفى الديوانى :

ويقول العلامة الروحى (مولدن) : الويل لابن آدم إذا انقطع الحبل الأثيرى فإن معنى هذا انتهاء الحياة . ويزعم مولدن وكارينختون فى كتابهما عن الطرح الروحى أن معجزات يسوع عن إحياء الموتى لا يمكن تفسيرها إلا إذا

افترضنا أن الذين بعثوا إلى الحياة لم يكونوا موتى ، بل كانوا في حالة غيبوبة شديدة وضربا لذلك مثلاً بمعجزة المسيح عليه السلام في إحياء صديقه أليعازر . فإن يسوع بوصفه وسيطاً روحياً من الدرجة الأولى يرى غير المنظور بجلاء بصرى أدرك أن صديقه أليعازر لم يكن ميتاً ، فقال عليه السلام : (إن أليعازر لم يمّت وسأذهب إليه وأحاول إيقاظه) ثم ذهب إلى المقبرة وأمر بإزالة الحجارة قائلاً : (قم يا أليعازر) فهبّ الأخير من نومه وتقدم إلى يسوع .

ونفس الشيء حدث عندما نفخ الحياة في ابنة الحاكم الميتة فنظر إلى من حولها وقال : إن الفتاة ليست ميتة : لماذا تبكون إذن ؟ وأمسك بيد الفتاة وصاح فيها قائلاً : قومي يا فتاة قومي .. فقامت الفتاة لتوها ومشت إلى خارج الغرفة .

ولكن القرآن الكريم نص على هذه المعجزة التي انفرد بها يسوع في الآية (وتحيي الموتى بإذنى) وفي آية أخرى : (وأحيى الموتى بإذن الله) .
ويعلق الدكتور مصطفى الديوانى قائلاً : وما دام النوم هو تجربة الموت كل يوم فلماذا نخاف الموت ؟ ألا يقول تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) لكننا نحن الأطباء لا نمل من التعمق في هذه المشكلة التي يبدو تفسيرها بالحبل الأثيرى سهلاً ميسوراً فما أسهل أن يطول ويقصر فتحدث الأحلام أو أن ينقطع فتنتهى الحياة إلى غير رجعة .. إننا بحكم مهنتنا كثيراً ما نلمس بأحاسيسنا كيف تنتهى الحياة .. وقد تلمسون لنا العذر إذا قسمنا الموت إلى مستويات فنزعم مثلاً أن الموت نوعان أو درجتان :

أولاهما : الموت الذى يحدث على مستوى الخلقة وهو الموت الكلى .
وثانيهما : الموت الجزئى حين تتوقف الأجهزة الرئيسية عن العمل مثل

الدورة الدموية والجهاز التنفسي ومراكز الاستقبال والإرسال والتنظيم من الجهاز العصبي -- وقد تنقضي ساعات أو أيام بين الموت الكلي والجزئي وقد يطول الاحتضار أو يقصر.. ولكن هناك سؤال مطروح وهو ما مصير الروح بعد مغادرتها الجسد مباشرة؟ يقول بعض الروحيين إن رسالات روحية وصلتهم تقول إن روح الإنسان لا تفارق جسده تماماً إلا بعد الموت ببضعة أيام ، وهم لذلك يصممون على ألا تحرق الجثة أو تدفن إلا بعد الموت بأيام .. وهناك مدرسة كبيرة تزعم أن الروح تبذل مجهوداً كبيراً في أثناء مفارقتها للجسد حتى إذا مات لها ذلك مرت في دور ارتجاج ، يدفع بها غير شاعرة إلى الآفاق العليا البعيدة جداً من الاتصال الروحي بأهل الأرض ، وهي تائهة تترنح حتى يتاح لها استعادة اتزانها وتعود مرة ثانية إلى الاتصال بمن تريدهم ويريدونها من أهل الأرض ، سواء الوسطاء الروحيين أو الأحاب في عالم الأحلام . وقد يدل على صدق هذه النظرية أنك قلما ترى في الحلم عزيزاً قضى نحبه إلا بعد أن تمر على انتقاله فترة تصل إلى الأسابيع عدداً ..

وهكذا نجد أنفسنا واقفين حيارى عند مفترق طريق يكاد يكون مسدوداً ، ونكاد نضيع ملامحه نتيجة للمفارقات بين المدرستين الروحية والطبية ، بل بين الآراء المختلفة في المدرسة الواحدة ، وكثيراً ما نسائل أنفسنا ما الذي يحدد العمر؟ ولماذا يموت البعض في عمر الزهور ويعيش البعض الآخر إلى أرذل العمر؟ ومع يقيننا الثابت في الله وبأن لكل أجل كتاباً .. يبقى في نفوسنا وأذهاننا ذلك الحلم الجميل بالعالم الآخر الباقي .. قانعين بوضع جرائمات من (الاكتوبلازم) يتكون منها جسدنا الأثري (الروح) وبجمل أثري ينقطع لتصعد الروح إلى عالم لا تسمع فيه لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً .. تنتظر يوم البعث والنشور والحساب العسير.. ولسوف يمضي الباحثون في سرد ما يتمتع

النفس التواقفة الشواقفة ويغرى بغزو هذا الميدان الشائك الذى ما زلنا نضل فى أرجائه الفسيحة .. وسوف يوالون الطرق عليه حتى ينفث وينجلى السر الأكبر أه يعودوا مدحورين تعزيم الآية الكريمة : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ونحن نقول^(٧)

بعد ما طرحنا من الأقوال استيفاء لوجهات الاجتهاد والنظر ، نقول ما قلناه بدءاً من أن الإسلام جاءنا بالهدى والرشاد .. وأن الكاتب لا يمكنه أن يعرض لأمر كثيرة تتصل بالروح وتشغل الناس ، ولكننا هنا نخذر من بعض الشبهات الخطيرة التى وردت فى أقوال البعض متعلقة بهذه القضية الكبرى ، ومن ذلك ما يقال بصفة خاصة عن تحضير الأرواح ، أى استدعائها بمعرفة خبير أو وسيط أو ما يقال من إن هذه الممارسة تستند إلى أصول علمية ، وسنكتفى هنا بالتنبيه إلى ما فى هذه الأقوال من فساد وخطر على عقول الناس الذين لا تسمح لهم مشاغل حياتهم وظروفهم الخاصة بدراسة الأمراض الوافدة على البيئة الإسلامية .. ونحن نستند فيما تدلى به هنا إلى قدر مناسب من المشاهدة والدراسة والمناقشة الهادئة مع بعض المشتغلين بهذا الترف المستورد -- هذا على أحسن الفروض -- ومع بعض المشتغلين به أيضاً وهم لا يعلمون أنهم يروجون لعامل خطير من عوامل الهدم الموجه إلى أسس العقيدة الصحيحة ، ومما يؤسف له حقاً أن بعض هذه الأقوال يجد قبولاً عند فريق من الناس ، والأمل كبير فى أن تفيق الأمة الإسلامية ، وأن تتنبه لما يراد بها فتصرف عن مثل هذه الأقوال الصادرة عن

(٧) المؤلفان . *

بساطة وحسنة ، وتلك التي لا تصدر إلا عن دراسة طويلة المدى .. وتخطيط هادف إلى تدمير الأمة الإسلامية وإضعاف العقيدة المتغلغلة في وجدانها .. وما الكلام عن الروح بالأسلوب الغربي المستحدث إلا أداة من أدوات التدمير كالتسليح الخلق والماسونية مثلاً .. وفي الحق أن أمثال هذه الأدوات المستخفية أشد خطراً من الأدوات السافرة كالصهيونية والخصومة التقليدية مع الإسلام منذ أشرقت الأرض بنوره في ختام الرسالات .

ولئن كان مجال هذا الكتاب لا يتسع لتوفية مثل هذه الموضوعات حقها فلا أقل من إثارة هذا العدد اليسير من الأمور التي يعلمها كل متتبع لبدعة تحضير الأرواح كما يزعمون فنقول .

أولاً : حضور الروح بناء على دعوة الخبير المتخصص في هذا الفن لكي تحل في الوسيط المسترخى أمامه (كما يزعمون) يقتضى التمهيد بعزف قطعة موسيقية (هكذا في غير دار الإسلام) . أما في بلادنا فيكون التمهيد بالموسيقى أو بترتيل آيات القرآن الكريم والأثر في الحالين واحد هكذا عند الخبراء المسلمين المعاصرين ساءهم الله .. فتأمل هذه التسوية بين الذكر الحكيم وبين موسيقاهم .

ثانياً : يقول الخبراء إن القرآن خلا من النص القطعي الدلالة بشأن النفس والروح ولذلك بقي باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه ومنه يدخلون .. وهذه فرية كبرى أو جهل بكتاب الله .. فقد جهلوا أن للاجتهاد ضمانات ، وعلى المجتهد شروط ، كذا فقد جهلوا أن القرآن الكريم قطع في ثبات وفي إبانة تامة ، فميز بين الروح والنفس ، وأفرد الروح وجمع الأنفس ، ودعا إلى تدبر هذا كله بنصوص صريحة أشرنا إلى بعضها في عدد من صفحات هذا الكتاب .

ثالثاً : نعلم من القرآن الكريم أن الله جل وعلا إذا أمسك فقد أمسك .. كما

في قوله تعالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يممسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) . أفلا يريد الخبراء أن يتدبروا آيات النفس في ضوء هذا النص إذ يقول الله تعالى عن الأنفس : (فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) . أفلا يريد الخبراء من المسلمين أن يتدبروا القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟

رابعاً : هذه البدعة التي يقال لها تحضير الأرواح نشأت في الغرب في أواخر القرن التاسع عشر ، في وقت تضافرت فيه الجهود على حشد كل الطاقات العلمية والفنية ، وتوجيهها إلى أمة الإسلام لتوهين العقيدة وصرف المسلمين عن تراثهم .. وقد نجحت بعض جهودهم ، فكان ما نراه في زماننا من انصراف المسلمين عن دينهم ..

خامساً : في تحضير الأرواح - كما تجرى تجاربه - خلط بين دراسات جادة تعتمد على تسلط إحدى النفوس على غيرها - والنفوس هنا هي ما يخالط البدن الحي - وصور هذا التسلط كثيرة وآثارها ملموسة : كالتنويم والتداعي .. وفي دراسة علم النفس الجنائي أمثلة وقضايا فما لهذه الظواهر والروح؟؟

سادساً : وفي تحضير الأرواح خلط بين وهم يقال له استدعاء أرواح الموتى ، وبين اللهو الذي يصدر عن الجن .. ومن الكتاب في هذا الزمن من ينكر الجن ويتصدى لتأويل ما ورد بشأنه في كتاب الله .. ومن آثار هذا الخلط أن رأينا تجارب مستحدثة كتجربة السلة ، ويقال عنها إن السلة قد اشتملت روحاً ألا ساء ما يزرون .. أفلا يتدبرون القرآن وهو يقول : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) .

سابعاً : لقد كان لسيدنا محمد ﷺ ، خصائص لم تكن لنبي غيره .. وفي كل من الإسراء والمعراج آيات كبرى .. وفي تلقيه للوحى في سبع صور

مشهورة آيات أخر - وفي سورتي الإسراء والنجم نصوص واضحة .. كقوله تعالى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى ..) . فكان اتصاله ، ﷺ ، بالملائكة الأعلی غیر مسبوق (٨) ..

ولم يجرؤ كاتب أو راوية على أن ينسب إلى الرسول ﷺ ، أنه زعم القدرة على استدعاء روح أو إحضارها .. و الفرق كبير بين خطابه للشهداء والقتلى في أعقاب بعض الغزوات وبين دعوى تحضير الروح في أرضنا هذه (٩) ..

ومعلوم من التقدم التكنولوجي في زمننا هذا أن الأصوات والرسائل تسمع على مسافات شاسعة وموغة في الفضاء ، فهل يكون عجباً أن يصل صوت المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى أنفس فارقت الأجساد وانطلقت في ملك الله .. لا عجب ولا غرابة فهو قد خاطبها ولم يستحضر روحها .. إنما العجب والغرابة أن يزعم الخبراء أن لهم خصائص لم تكن لسيد سائر البشر بفضل عزف الموسيقى وشهادة اللوردات .. حتى إذا جاءت التجربة وجدت غموضاً وتعمية وجدلاً عقيماً .. وخرج الناقد الجاد بغير نتيجة إلا بإمعان الخبراء في عنادهم وحيرة الشباب من أمر هذه الظاهرة .

(٨) قد يتداعى إلى ذهن القارئ لهذه السطور الكثير والكثير من الكرامات والمعجزات .. وهي أمر آخر فالكرامة كما ذكرنا أمر خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد عبد صالح ولا يقترن بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها .. وقد تكون حال حياة الولي أو بعد وفاته .. وفي القرآن كرامات ذكرت في (سورة الملئ ، سورة آل عمران - سورة الكهف) على سبيل المثال .. أما المعجزات فشئ لا يخالف العقل ، ولكنه يخالف المؤلف والمتواتر في المحسوس وقد أشار القرآن الكريم إلى الخوارق من باب الإعجاز أو من باب السحر ثم أوضح لنا أن السبب الذي ترد إليه كل الأسباب هو إرادة الله وإذنه : (أنى أخلق لكم من الطين كهيفة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله) وكل معجزات السيد المسيح ذكرت في القرآن صريحة واضحة أنها إنما تمت بإذن الله .. إذ ليس المسيح بإله وإنما مثله كمثل آدم (المؤلفان) .

(٩) سبق التفرقة بين الكرامات والمعجزات في الفصل المنقول من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٩ من هذا الكتاب) .

نسأل الله أن يعلمنا من علمه وأن يجعل القرآن نوراً لأعيننا وأن يعصمنا بسنة
الرسول الأعظم من الزيغ والزلل وأن يجعلنا من السالكين درب السلف
الصالحين .

الباب السابع

هذه المسائل... والروح

الروح القدس - المعجزات والكرامات - الإسراء والمعراج - حقيقة النبوة -
الرؤيا رياضة المتصوفة - بهاليل المريدين - السحر - الكهانة - العرافون -
المنجمون - حساب الحروف وعلم اليازرجة - الحسد - التنويم - العلاج
النفسي بالإيحاء والتنويم .

المراجع

- مقدمة ابن خلدون .
- صور من حياة الرسول (أمين دويدار)
- عالم الروح (مجلة الروح - حسن عبد الوهاب)
- النفس (دكتور على كمال) ط ١ بيروت ١٩٦٧ .
- منهج التربية الإسلامية - محمد قطب

الروح القدس (الوحى)

اعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ومخضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة ، وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق وأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم قال ، ﷺ ، ألا وإنى لا أعلم إلا ما علمنى الله . واعلم أن خبرهم فى ذلك من خاصيته وضرورته الصدق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة ، وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم فى حال الوحى غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط ، كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين وليست منها فى شىء ، وإنما هى فى الحقيقة استغراق فى لقاء الملك الروحانى يادراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية إما بسماع دوى من الكلام فيفهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما حملة من عند الله ، ثم تتخلى تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه قال ، ﷺ ، وقد سئل عن الوحى : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول ، ويدركنى فى أثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبر عنه .. فى الحديث كان مما يعانج من التنزيل شدة . وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وقال تعالى (إنا سنلقى عليك قولاً

ثقيلاً) ولأجل هذه الحالة فى تنزل الوحى كان المشركون يرمون النبى بالجنون ويقولون له رى أو تابع من الجن ، وإنما لبس عليهم بما يشاهدون من ظاهر تلك الأحوال : (ومن يضلل الله فما له من هاد) . ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والزكاة ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجلته ، وفى الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره فانكشف فسقط مغشياً عليه حتى استتر بإزاره ، ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم ، بل نزهه الله عن ذلك كله حتى أنه يجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة فقد كان ، ﷺ ، لا يقرب البصل والثوم فقليل له فى ذلك فقال إنى أناجى من لا تناجون .

المعجزات والكرامات

ومن علاماتهم أيضاً وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ، وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة ، وليست من جنس مقدور العباد وإنما تقع فى غير محل قدرتهم وللناس فى كيفية وقوعها ودلائلها على تصديق الأنبياء خلاف ، فالتكلمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدرة الله لا بفعل النبي وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم ، إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ، وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدى بها بإذن الله ، وهو أن يستدل بها النبي ، ﷺ ، قبل وقوعها على صدقه فى مدعاه ، فإذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق وتكون دلائلها حينئذ على الصدق قطعية . فالمعجزة الدالة بمجموع الخارج والتحدى ، ولذلك كان التحدى جزءاً منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها ، وهو أحد ، لأنه معنى الذاتى عندهم والتحدى هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر . إذ لا حاجة فيها إلى التصديق ، فلا وجود للتحدى إلا أن وجد اتفاقاً وإن وقع التحدى فى الكرامة عند من يميزها ، وكانت لها دلالة فإنما هى على الولاية وهى غير النبوة ، ومنه هنا منع الأستاذ أبو إسحاق وغيره وقوع الخوارق كرامة فراراً من الالتباس بالنبوة عند التحدى بالولاية ، وقد أرىناك المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبي ، فلا لبس على أن النقل عن الأستاذ فى ذلك ليس صريحاً ، وربما حمل على إنكار أن تقع خوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارق ، وأما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أن

الخوارق ليست من أفعال العباد ، وأفعالهم معتادة فلا فرق ، وأما وقوعها على يد الكاذب تلبساً فهو محال أما عند الأشعرية فلأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية ، فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذباً ، واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكناً . وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله . وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي ، ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الذاتي ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الأسباب ، والشروط الحادثة مستندة أخيراً إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار ، وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية ، منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين ، والنبي عندهم مجبول على التصرف في الأكوان مهما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك ، والخارق عندهم يقع للنبي كان للتحدي أو لم يكن ، وهو شاهد بصدقه من حيث دلالاته على تصرف النبي في الأكوان الذي هو من خواص النفس النبوية ، لا بأنه ينتزل منزلة القول الصريح بالتصديق فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية ، كما هي عند المتكلمين ولا يكون التحدي جزءاً من المعجزة ، ولم يصح فارقاً عن السحر والكرامة ، وفارقها عندهم عن السحر أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر . فلا يلزم الشر بخوارقه والساحر على الصدق فأفعاله كلها شر ، وفي مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء ، والنفوذ في الأجسام الكثيفة وإحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران في الهواء وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل ، والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريح الأنبياء ويأتى النبي بجميع خوارقه ، ولا يقدر

هو على مثل خوارق الأنبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبه في طريقتهم ولقنوه عمن أخبرهم وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم ، المنزل على نبينا محمد ﷺ . فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجزة فشاهده في عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله ﷺ ما من نبي من الأنبياء إلا وأوق من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إلى فأننا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ، يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحي كان الصديق لها أكثر لوضوحها ، فكثير المصدق والمؤمن وهو التابع والأمة .

(٢) الإسراء والمعراج

لعل الناس لم يختلفوا في شيء قط كما اختلفوا في شأن الإسراء والمعراج ، ولم يتجادلوا في شيء قط كما تجادلوا في أمرهما .. فمن الناس من صدق بهما جميعاً ، ومن الناس من كذب بهما جميعاً ، ومنهم من صدق بالإسراء وكذب بالمعراج ، ومنهم من قال بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً ، ومنهم من قال بأنه كان بالروح دون الجسد ، ومنهم من قال بأنه كان في اليقظة ومنهم من قال بأنه كان في المنام .

(٢) صور من حياة الرسول - أمين دويدار - دار المعارف - الطبعة الرابعة .

وهكذا لم يزل الناس منذ حدث هذا الحادث العظيم يختلفون فيه ، ولا يزال كل فريق يحاول أن يؤيد رأيه بكل ما يبدو له من الحجج وما يرجح عنده من البراهين . وصدق الله العظيم إذ يقول في شأن هذا الحادث : (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) ^(٣) .

ولعل السبب في هذا الاختلاف أن الناس يأبون إلا أن يحكموا فيه العقل ولا يرضون بغيره حكماً ، فهل العقل يصلح أن يكون حكماً في هذا الأمر الخطير ؟ .. وقيل أن نقرر ما إذا كان العقل يصلح ألا يصلح أن يكون حكماً في مثل هذا الأمر ، ينبغي لنا أن نعرف ما هو العقل ، وما وظيفته ، وما مقدرته ، وما حدوده ، ومن أين يستمد العقل علمه ومعارفه ؟ .

العقل : هو قوة الفهم في الإنسان ، هو الذى به يستطيع أن يميز ويقدر ، وقيس ويوازن ، ويستنبط النتائج من مقدماتها ، ويكون الكليات من جزئياتها ويصدر الأحكام على كل ما تمده به الحواس ، فيحكم مثلاً بأن هذا أحمر وهذا أبيض ، وهذا حلو وهذا مر ، وهذا ناعم وهذا خشن ، وهذا طيب وهذا خبيث ، وهذا بعيد وهذا قريب ، وهذا صعب وهذا سهل ، وهذا ممكن وهذا مستحيل .. وهو في كل ما يصدر من هذه الأحكام متأثر بما تمده به الحواس ، فما من حكم يستطيع أن يصدره العقل إلا وللحواس فيه أثر ، إما مباشر وإما غير مباشر . والحواس إنما تستمد معلوماتها من عالم الحس الذى يحيط بها ، ولا تستطيع بحال أن تتجاوز هذا العالم إلى ما وراءه لتستمد منه شيئاً .. فالأذن لا تستطيع أن تسمع إلا ما يصك مسمعها من الأصوات ، والعين لا تستطيع أن ترى إلا ما يقابلها من المناظر ، والأنف لا يستطيع أن يشم إلا ما يمر به من

(٣) مع بعض تصرف .

الروائح ، واللسان لا يستطيع أن يذوق إلا ما يلمسه من الطعوم ، واليد لا تستطيع أن تمسك إلا ما يقع في قبضتها من الأجسام . وهكذا كل حاسة من الحواس لا تستطيع أن تدرك إلا ما يقع في دائرة حسها من الأشياء ، ثم هي ترسل بهذا الإدراك إلى العقل ، فيفسره العقل بأنه صوت أو منظر أو رائحة أو جسم ، ويحكم عليه بأنه لطيف أو عنيف . جميل أو دميم ، طيب أو خبيث ، كبير أو صغير ، فكل ما يصدره العقل من أحكام إنما هو قائم على ما تدركه الحواس ، وكل ما تدركه الحواس إنما هو مستمد من عالم الحس الذي تعيش فيه ، ولن تستطيع الحواس بأى حال أن تستمد شيئاً من غير هذا العالم . فالمسموع والمنظور والمشموم والمذوق والملموس ، لا بد أن تكون كلها واقعة تحت إدراك الحواس ، حتى تستطيع أن تدركها وأن تؤدي بإدراكها هذا إلى العقل الذى يفسره ويصدر حكمه عليه . وتفسير الشيء والحكم عليه هو (الفهم) .

والفهم : هو وظيفة العقل ، وهو فرق ما بين الإنسان والحيوان الأعجم . نستطيع إذن أن نخرج من هذا البيان بنتيجة : هي أن العقل لا يمكن أن يفهم إلا ما تمده به الحواس ، لأن الحواس هي روافده التي تمده بالمعلومات عن كل ما يقع تحت حسها ، وما دامت هذه الروافد عاجزة عن أن تستمد مدركاتها من عالم آخر غير عالم الحس ، فلا يمكن أن توصل إلى العقل علماً من غير عالمها .. فهل الكون كله هو عالم الحس وحده ؟ هل الكون كله هو هذه المحسوسات التي نراها بأعيننا ، ونسمعها بآذاننا ، ونذوقها بألسنتنا ونشمها بأنوفنا ، ونلمسها بأيدينا ؟ وبعبارة أخرى : هل نحن في الواقع نرى بأعيننا كل شيء في هذا الكون ، ونسمع بآذاننا كل صوت ، ونشم بأنوفنا كل ريح ، ونلمس بأيدينا كل جسم ؟ لا شك أن هناك أشياء كثيرة لا تدركها حواسنا هذه ،

لأنها إما بعيدة عن منالها ، وإما خارجة عن دائرة إدراكها ، وهى فى كلتا الحالتين تعتبر (غيباً) لا تستطيع حواسنا أن تصل إلى إدراكه .

فهل نستطيع إذن أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير موجود ؟
لا شك أننا لا نستطيع أن ندعى ذلك ؟ ولا نستطيع كذلك أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير معقول أن يكون موجوداً ، لأن العقل فى هذا المجال لا يستطيع أن يحكم ، إذ الحواس التى يستمد منها معلوماته ، والتى يعتمد على إدراكها لذلك الغيب ، لم تصل بعد إلى ذلك الغيب ، أو هى بطبيعتها لا تستطيع الوصول إليه . فوسائل العلم إذن بهذا الغيب ستظل مفقودة حتى تصل الحواس إلى إدراكه ، فإذا استطاعت الحواس أن تصل إليه فأدركته ، استطاع العقل أن يفهمه ويصدر حكمه عليه ، أما إذا ظلت الحواس عاجزة عن الوصول إليه ، فإن العقل كذلك يظل جاهلاً به ، فلا يستطيع أن يفسره ولا أن يحكم عليه ، فإذا تصدى للحكم كان حكمه خطأ ، لأنه حكم قائم على غير علم .

ولنضرب لذلك مثلاً من الواقع .. لو أن قاتلاً قال للناس قبل مائة عام مثلاً : إن هناك فى الكون سرّاً عجبياً ، يكون فى بعض الأجسام نوراً ، وفى بعضها قوة ، وفى بعضها حرارة ، وفى بعضها برودة ، وفى بعضها صوتاً ، وفى بعضها صورة ، وأحياناً يكون دواء ناجعاً ، وأحياناً يكون موتاً صاعقاً .. فهل كانوا يصدقونه فيما يقول ؟ وهل كانت عقولهم تؤمن بوجود هذا السر ؟ .. فلما أن كشف العلم سر « الكهرباء » ، ولمس الناس آثارها ، وأدركتها حواسهم على ضوء التجربة والواقع ، صدقوا وآمنت عقولهم بوجود هذا السر . فهل كانت الكهرباء معدومة ثم وجدت حين اكتشافها العلم ؟ .. لا ، بل كانت موجودة فى الكون منذ خلق الله الكون ، ولكن العقل لم يكن يعرفها لأن الحواس لم تكن

تدرك آثارها ، فلمّا أدركتها الحواس عرفها العقل ، وكذلك الشأن في كل ما كشف العلم الحديث من أسرار هذا الكون وعجائبه . وقد يما عجب بعض الناس من أن عمر بن الخطاب نادى وهو على المنبر في المدينة : « يا سارية ، الجبل ، الجبل » يحذر قائد جيشه بالشام من كمين أعده له العدو وراء الجبل ، فسمع سارية النداء فأخذ حذره من ذلك الكمين ، ولكننا أصبحنا الآن بحيث لا نعجب من مثل هذا . بعد أن كشف العلم لنا ما كشف من أسرار الصوت في الراديو . إذن فهناك في الكون أسرار لم تزل خافية على العقل ، ولا يستطيع العقل أن يحكم بأنها مستحيلة أو ممكنة ، لأنها لم تصل إلى علمه بعد ، أو لأنه غير قادر على أن يصل إلى علمها بوسائله . وأن فيما يكشف العلم لنا من هذه الأسرار لدليلا على أن هنالك أسراراً لم تكشف لنا بعد ، ولقد يكون ما نجهله من هذه الأسرار أكثر بكثير مما نعلمه ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ويعجبني في هذا المجال تصوير لأحد العلماء الأجانب شبه فيه العلم أو العقل فيما يكتشفه من أسرار هذا الكون - برجل جلس على شاطئ البحر ، فجعل ينظر إلى البحر مبهوراً بعظمته ، متطلعاً إلى ما فيه من أسرار ، فبينما هو كذلك إذ قذف البحر له سمكة ، فصاح مسروراً : لا شك أن في هذا البحر سمكاً . ثم قذف البحر له مرجانة ، فصاح مبتهجاً : ولا شك أن فيه مرجاناً . ثم قذف البحر له لؤلؤة ، فعرف أن فيه لؤلؤاً كذلك ... وهكذا ، كلما رمى البحر له شيئاً ظن أنه كشف سرّاً من أسرار هذا البحر . لكن هل يستطيع أن يحيط بكل ما في البحر من أسرار ؟ لا شك أنه لا يستطيع ، ولو قضى عمره على شاطئ البحر .. وهو تشبيه صادق وتصوير بليغ لموقف العقل من أسرار هذا الكون .

نستطيع أن نصل من هذا إلى نتيجة أخرى ، هي أن العقل لم يحيط بكل ما فى الكون من أسرار ، وأنه ما دام لا يستطيع أن يحيط إلا بما تمده به الحواس ، فإن حكمه على ما لا سبيل للحواس إليه ، إنما هو رجم بالغيب وخبث فى الظلام ، وما دام الأمر كذلك فكل ما لا تدركه الحواس لا يمكن أن يحكم فيه العقل . والحواس بطبيعتها مادية لا تدرك إلا ما تحسه من عالم المادة ، أما ما وراء عالم المادة - وهو عالم الغيب - فإنها لا يمكن أن تدرك منه شيئاً فلم العقل بما وراء المادة عن طريق الحواس أمر غير ممكن ، وحكمه عليه لا يمكن أن يكون صادقاً أبداً . ومن أجل هذا كان العقل غير صالح لأن يحكم فى مسألة (الإسراء والمعراج) لأنها من عالم الغيب الذى لا تدركه الحواس .

من أى طريق - إذن - يأتى للعقل علم ما وراء المادة ؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا من طريق (السمع) .. من طريق السمع وحده لا من طريق غيره ، وذلك بأن يتلقى الخبر عنه من صادق أمين ، له قدرة على الاتصال بما وراء المادة ، أى (بعالم الغيب) . وهذا لا يتأتى إلا للأنبياء والرسل ، والأنبياء والرسل صادقون فيما يبلغون من هذه الأخبار ، لأنهم يتلقونها بطريق الوحي الإلهى عن الله وهو أصدق القائلين . فليس هنا مجال للشك فى صدق الحقيقة التى يخبر بها الرسل والأنبياء عن عالم الغيب ، وليس للعقل أن يقول فى هذا المجال شيئاً ، لأنه خارج عن نطاق إدراكه .

وربما ظن بعض الناس أن العلم بما وصل إليه من الوسائل الحديثة يستطيع أو يمكن الاستعانة به أو الاعتماد عليه فى علم ما وراء المادة . ولكن العلم الحديث بكل وسائله لا يستطيع ذلك ، لأن وسائله كلها مادية قائمة على التجربة والملاحظة ، وهما لا تقومان إلا على ما تدركه الحواس ، والحواس بطبيعتها لا تدرك ما وراء المادة .

فالسمع - إذن - هو وحده الطريق الذى يستمد العقل منه معلوماته عما وراء المادة ، أو عن عالم الغيب وما فيه من الجنة والنار ، والملائكة والجن ، والحشر والحساب ، وما إلى ذلك من (السمعيات) التى لا يمكن أن تأتينا أخبارها إلا من طريق السمع وحده .

(والإسراء والمعراج) من هذه السمعيات .. فليس للعقل مجال فى الحكم عليهما بالصدق أو بالكذب ، وبالجواز أو بالاستحالة . لأنها غير داخلين فى نطاق علمه ، فإذا تصدى للحكم عليهما فقد تصدى للحكم فيما ليس له به علم .

فليس للعقل - إذن - إلا التصديق بما ورد عنهما على لسان الصادق الأمين ، وهو رسول الله ، ﷺ . وليس له أن يسأل عن إمكان ذلك أو كيفيته ، لأن ذلك شيء ليس فى طاقة العقل أن يفهمه ، لأنه من عالم الغيب الذى لا يدخل فى دائرة إدراكه . أما الذى يستطيع العقل أن يسأل عنه فهو الحكمة فى ذلك الإسراء والمعراج .

أما حكمة الإسراء فقد أجملها الله سبحانه فى قوله : (لنزيه من آياتنا) ، وذلك حيث يقول عز وجل فى سورة الإسراء : (سبحانه الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنزيه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . وأما حكمة المعراج فقد أجملها الله سبحانه فى قوله : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، وذلك حيث يقول عز وجل من سورة النجم : (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) .. وذلك فى رأى من يقول بأن هذه الآيات نزلت فى شأن المعراج . فالغرض الذى كان من أجله الإسراء وكان من أجله المعراج ، هو أن يرى

الله رسوله ما شاء من آيات قدرته ، وعجائب صنعه ، وعظيم ملكه ، ليطمئن قلبه ، وتستنير بصيرته ، ويزداد يقينه .

ويقول العلماء : إن المعرفة درجات ثلاث علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين . فعلم اليقين هو المعرفة التي تقوم على الخبر الصادق ، وعين اليقين هو المعرفة التي تقوم على المشاهدة ، وحق اليقين هو المعرفة التي تقوم على التجربة والممارسة .. فأنت إذا سمعت عن بلد من البلاد من أمين صادق لا تشك في خبره ، فذلك علم اليقين ، فإذا أنت رأيت هذا البلد بعينك ، فذلك عين اليقين ، فإذا أنت عشت في هذا البلد فعاشت أهله وعرفت أموره ودرست أحواله ، فذلك حق اليقين . كذلك إذا سمعت عن شخص ، ثم رأيته ، ثم خالطته وجربته ، فقد تدرجت في المعرفة به درجة بعد درجة ، من علم اليقين ، إلى عين اليقين إلى حق اليقين ، وهي الدرجة التي ليس بعدها درجة في العلم ولا في المعرفة .

والرسل والأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم قد تلقوا عن الله تعالى السمعيات ، أو أنباء عالم الغيب ، بإيمان وتصديق ويقين لا يقبل الشك ، ولكن منهم من استشرف إلى الترقى في المعرفة من درجة (علم اليقين) إلى درجة (عين اليقين) ، فقد حكى الله عن نبيه عزير أنه (مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه^(٤) وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها^(٥) ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء

(٤) لم تغيّر السنين .

(٥) نعيد تركيبها ونضعها في مواضعها .

قدير) * .. وحكى عن خليله إبراهيم أنه قال : (رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ^(٦)) ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم) .. وحكى عن رسوله موسى أنه قال : (رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً ^(٧)) فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) * * .

ومحمد ، ﷺ ، سيد الأنبياء وخاتم الرسل ، وأكرم خلق الله على الله ، فكان من كرامته - سبحانه - أن خصه بتلك الرحلة الملكوتية العجيبة ، ليريه من آياته ما استشرف غيره إلى رؤية بعضه ، ليرقى به من منزلة (علم اليقين) إلى منزلة (عين اليقين) . فكان ﷺ هو الرسول الوحيد الذي يخبر أمته بخبر السمعيات وما وراء المادة عن عيان ومشاهدة ، لا عن مجرد الخبر السماوى فحسب . ولذا كان عليه الصلاة والسلام واضح البيان في تعليمه ، يكثر من التشبيهات وضرب الأمثال وأنواع الاستعارة ، ليقدم للناس تلك الحقائق الكونية الخفية ، مصورة بصورة ما يشبهها من الأمور الواقعية المعهودة . وتلك منزلة من سمع ورأى ، لا من سمع فقط .

« ولقد كان الوحي ينزل عليه بخبر تلك الحقائق والآيات الغيبية ، فيخبر مثلاً عن الذين يأكلون الربا بأنهم (لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه

• سورة البقرة : ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٦) أى اجمعهم فى يدك لتستوثق من حياتهم .

• (٧) سقط صريعاً من هول ما رأى .

• سورة الأعراف : ١٤٣ .

الشیطان من المس) ، وعن الذین يأكلون أموال الیتامی ظلماً بأنهم (إنما يأكلون فی بطونهم ناراً) ، ویخبر عن آل فرعون فی حیاة البرزخ بقوله : (النار یعرضون علیها غداً وعشیاً) . وهكذا وهكذا مما نزل به الوحی علی قلبه ، ﷺ . وتلك معارف جلیلة كان یستشرف لرؤیتها أكابر الأنبیاء والرسل ، ویتشوفون إلى درجة فی المعرفة أعلى من الدرجة التي هم علیها . ولا شك أن رسول الله ، ﷺ ، كان یتشرف كما یتشرفون ، ولكنه لم یطلب من الله كما طلب غیره ، تأدباً معه ، سبحانه ، وحیاء منه ، فأكرمه الله ، سبحانه ، بتلك الرحلة ، لیریه من آیاته ما یشاء ، ویطلعه من عجائب كونه علی ما یرید ، ولیففضی إلیه بما یشاء من أسرار جل شأنه * » .

ولقد یحلو لبعض المعاصرين منا أن یشبه ذلك بما یحدث الآن فی الدول الكبرى ، حیث تستدعی الدولة سفیرها فتفضی إلیه بما تشاء من أسرارها الخطیرة ، وترسم له الخطة كما ینبغی أن تكون . وهو منزع شعری جمیل ، ولكنه تشبیه مع الفارق العظیم ، « ولله المثل الأعلى وهو العزیز الحکیم » . وهنا یتشكل الأمر علی بعض الناس فیقولون : وهل لله ، عز وجل مكان یرج إلیه فیهِ رسوله ؟ .. فقد نستطیع أن نسلم بأن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ممكن ، لأننا الآن نرى الطیارات تقطع هذه الرحلة ذهاباً وإياباً فی بضع ساعات ، وقد نستطیع أن نسلم بأن رسول الله عرج به إلى السماء ، لما نراه الآن من محاولات العلم الحدیث فی الوصول إلى الكواكب ، وقد نستطیع كذلك أن نسلم بأن ما رآه رسول الله من حیاة البرزخ ^(٨) . ومن صور الأعمال ،

• منبر الإسلام عدد رجب ١٣٧٤ : مقال للأستاذ البهی الخولی مع بعض تصرف .

(٨) البرزخ .. هو فترة ما بین الموت والنشور ، وهو الفترة التي یقضیها الموتی فی قبورهم حتی یبعثوا یوم القیامة .

ومن عجائب الكون حق ، لأن خبره صادق لا يقبل الشك ولكن كيف نستطيع أن نسلم بمثوله في حضرة ربه ذى الجلال ، عند سدرة المنتهى ؟ أليس معنى هذا أن الله ، جل جلاله ، مكاناً ، وأنه - سبحانه - في السماء السابعة أوفياً وراءها ؟
والأمر في حقيقته غير مشكل ؟ ولكننا نحن الذين أشكلناه على أنفسنا ، لأننا أخضعناه لمدرجاتنا الحسية ، وحكمنا فيه العقل الذى ليس من شأنه أن يحكم فى مثل هذا الأمر . فالله ، سبحانه وتعالى ليس بعيداً عن رسوله حتى يقطع لقاؤه هذه الأبعاد الشاسعة فى السموات العلى ، بل هو معه حيثما كان وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، بل هو قريب من عباده جميعاً ، يسمعهم إذا دعوا ، ويحييهم إذا سألوا ، ويكون معهم أينما كانوا : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) * والذى يقول لرسوله : (وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) ** وقد نهى رسول الله ﷺ ، المؤمنين أن يبالغوا فى رفع أصواتهم ، حين رأى جماعة منهم يجأرون بالتكبير يوم خيبر ، فقال : « أربعوا على أنفسكم ^(٩) » ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم) .

فلم يكن الغرض من العروج - إذن - أن يلقى محمد ﷺ ربه فى مكان بعيد ، إنما كان ذلك ليرى من ملكوت الله ما شاء الله أن يرى ، وليطلع من عجائب صنعه على ما شاء الله أن يطلع ، وليشهد من سعة ملك الله وجلال سلطانه وعظيم قدرته ما يزيده يقيناً على يقين ، وإيماناً على إيمان ، وليستشعر

• سورة المجادلة : ٧

• سورة البقرة : ١٨٦ .

(٩) أى ارفقوا بأنفسكم ولا تبالغوا فى رفع أصواتكم .

المتزلزلة الكريمة والدرجة الرفيعة التى أعدها له ربه .. وإلا ، فقد كان فيما يوحى إليه ربه على لسان أمينه جبريل كفاية وغناء .

على أن العلم لم يكشف بعد حقيقة السموات ، ولا يزال من أمرها يخبط فى متاهة عمياء على رغم ما بلغه من تقدم وما بذله من جهود .. يقول الأستاذ حنفى أحمد فى كتابه « معجزة القرآن فى وصف الكائنات » ص ٥٠ : إن استعمال المراقب الحديثة فى الكشف قد أثبت بما لا يقبل الشك أن المجموعة الشمسية التى تتكون من الشمس وتوابعها من السيارات التى تدور حولها .. تسبح فى حشد عظيم من النجوم ، تظهر فى صورة نقط صغيرة من الضوء متميز بعضها عن بعض ، وأن هذه المجموعات تعرف الآن باسم (السديم أو مجموعة المجرة) .. وأن هناك - عدا هذه الآلاف المؤلفه من النجوم التى ترى فى المجرة - أجساماً أخرى ترى على هيئة سحب مضيئة قليلاً ، ولكن لا تظهر فيها نقط متميزة ، وقد أطلق عليها اسم (الجزائر الكونية) ، وهى السدم العظمى أو المجرات الخارجية ، وهى عبارة عن حشود هائلة من النجوم لم تستطع المراقب الحديثة توضيحها على رغم ما بلغت من قوة ^(١٠) ، نظراً لأبعادها الساحقة ، وقد دلت المشاهدات الدقيقة على وجود ملايين من هذه المجرات الخارجية منتشرة فى الفضاء .. فى طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر مليوناً ونصف مليون من السنين الضوئية ، أى بمقدار مسافة يقطعها الضوء فى مليون ونصف مليون من هذه السنين ، على حين هو يقطع فى السنة الواحدة نحو ستة ملايين مليون من الأميال ^(١١) .

(١٠) بلغت قوة مرصد « مونت ولسن » بأمريكا أن تدخل فى العين من الشعاع ٢٥٠ ألف مرة قدر ما تدخله العين البشرية .

(١١) تبلغ سرعة الضوء فى الثانية الواحدة نحو ١٨٦ ألفاً من الأميال .

ثم يقول فى ص ٥٤ : وقد دل الحساب الرياضى من المشاهدات الدقيقة على أن أبعاد المجرات الخارجية عن المجرة مذهلة ، إذ وجد أن أقربها - ويدعى (سديم أندرو ميذا العظيم) يبعد عنها بنحو ٦٨٠ ألف سنة ضوئية ، أى بنحو سبع مرات قدر قطرها ، ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك إلى ملايين ، ثم عشرات الملايين ، ثم مئات الملايين من السنين الضوئية .

ثم يقول بعد ذلك فى ص ٦٢ : وقد دلت البحوث الدقيقة من التحليل الطبقي للمجرات الخارجية .. على أنها تتباعد عنا كما يتباعد بعضها عن بعض باستمرار ، وبسرعات عظيمة جداً تقدر بآلاف الأميال فى الثانية الواحدة ، فاستدلوا بحركاتها على أن الفضاء بين المجرات يتمدد ويتسع باستمرار . ويقول السير جيتز : إنهم قدروا هذا التمدد بنحو مائة وخمسة أميال فى الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية ، وأن حجم الفضاء العالمى الآن يبلغ عشرة أمثال حجمه منذ بدأ تمدده ، أى أن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً على ضعف قدره الأصل .

ويؤكد الأستاذ حنى أحمد فى ص ٥٤ - على لسان السير جيتز العالم الفلكى الإنجليزى - « أن الخطأ المحتمل فى تقدير الأبعاد العظيمة للأجرام السماوية وبالطرق المعتمدة لا يزيد على عشرة فى المائة » .

هكذا يقول العلم ، أو هكذا تقول التجارب التى قام بها العلم حتى الآن . فإذا نحن سايرنا العلم فى نظرياته فإذا عسى أن تكون سعة هذا الكون العجيب ، وأين تبدأ حدوده وأين تنتهى ؟ وأين تقع السموات السبع من هذه العوالم التى لا يدرك العقل كنهها ، ولا يعرف العلم مداها ؟ وكيف يكون الصعود فيها ، وكيف يكون الهبوط ، وكيف يكون الاستواء ؟ أليس الأمر - إذن - أوسع من أن يحده العلم ، وأعظم من أن يحكم فيه العقل ، وأعمق من أن تحيط به

الأفهام ؟ فـ (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون .. وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم . وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون) (١٢) .

وبعد ، فقد وقع الإسراء والمعراج فيما بين السنة العاشرة والحادية عشرة من البعثة ، وهى الفترة التى يشس فيها رسول الله من إيمان قريش ، فذهب إلى ثقيف فردته أقيح رد ، فعاد مكلوم الفؤاد واهن القوة ، يضرع إلى الله ويستعينه ، ويشكو إليه ما يلاقى من صمود الناس عنه وسخرهم به وجراتهم عليه ، فلعله كان من تطمين الله له ومن رحمته به أن هياً له هذه الرحلة الملكوتية ، ليطمئن قلبه ، وليعلم أنه يعين الله دائماً أبداً ، وأن الله لن يتخلى عنه ولن يخلفه ما وعده من النصر ، وإن تراكمت أمامه العقبات ، واحلولكت حوله الظلمات .

لقد كان الإسراء رحلة مباركة فى الأرض ، بين المسجد الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل ، والمسجد الأقصى الذى بناه داود وسليمان ، وهما البيتان اللذان باركهما الله تعالى وبارك ما حولهما ، فكانا مقر عبادة الله وتوحيده ، وكانا مهبط الوحي على رسله وأنبيائه . وقد مر ، ﷺ ، فى رحلته هذه بالبقعة المباركة التى كلم الله فيها موسى ، عليه السلام ، وهى (طورسينا) فصلى بها ركعتين ، ومر بالبقعة المباركة التى ولد فيها عيسى عليه السلام ، وهى (بيت لحم) فصلى بها ركعتين ، ثم وصل إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى حشد من الأنبياء والرسل ، فصلى بهم جميعاً ثم عرج به إلى السماء ، فرأى من آيات ربه الكبرى ما شاء الله أن يرى .

وقد فصلت الأحاديث بعض ما رأى من هذه الآيات ، فقد رأى ﷺ

حياة (البرزخ) وهى فترة ما بين الموت وقيام الساعة ، فرأى الأنبياء ، صلوات الله عليهم . ورأى منازلهم ودرجاتهم ، ورأى نفوس بنى آدم بعد موتها ، يتلقاها آدم أبو البشر فيفرح بطبيعتها ويحزن لخبيثتها .. ورأى حقائق الأعمال مصورة فى صورها المحسوسة كما أراد الله أن تكون ، فرأى آل فرعون ومن على شاكلتهم من الطغاة والظلمة ، يعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا ، ورأى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، لهم مشافر كمشافر الإبل ، وبأيديهم قطع من النار كالحجارة يقدفونها فى أفواههم فتهوى إلى بطونهم ، ورأى الذين يأكلون الربا يوطئون بالأقدام فلا يستطيعون القيام ، كلما هموا لينهضوا سقطوا ، ورأى الزناة يتركون لحماً طيباً سميناً ، ويأكلون لحماً متناً خبيثاً ، ورأى اللاتى يدخلن على أزواجهن غير أولادهن معلقات بثديهن ، ورأى الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم لهم أطفال من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم .. ورأى الجنة والنار ووعد الآخرة ، ورأى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، ورأى غير ذلك من آيات الله وعجائب قدرته ، مما لم يكن يتسنى لأحد أن يراه إلا أن يكون من سمو الروح وصدق اليقين فى الدرجة التى كان هو ، صلى الله عليه وسلم ، فيها .. وتلك درجة رفيعة ، ومرتلة خصه الله تعالى بها دون سائر خلقه ، ودون سائر أنبيائه ورسله الذين هم صفوة خلقه جميعاً .

وفى حضرة القدس الأعلى فرضت عليه الصلاة ، ولعلها كانت هى السر العظيم الذى أفضى به الملك الجليل إلى عبده ورسوله ، فإن الصلاة هى الصلة الدائمة بين العبد وربّه ، وهى لب العبادة وجوهرها ، وعاد الدين وركازه . ثم عاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فأخبر بما كان من أمره فى تلك الليلة المباركة ، فكذّبه قريش ، واستفطع الناس الخبر حتى افتتن به بعض من آمن ، أما الذين رسخت عقيدتهم وصدق إيمانهم فلم يروا فى الأمر عجباً ، فهذا الوحي ينزل

عليه من السماء كل يوم ، فأى فرق بين أن ينزل عليه جبريل بالوحي ، وبين أن يذهب به إلى حيث شاء الله أن يذهب ، ليتلقى من الوحي ما شاء الله أن يلقي إليه ، وليرى ما شاء الله له أن يرى .

وهكذا كان الحادث فتنة للناس ، تبين به إيمان الصادقين وغير الصادقين ، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا ، وإلى ما شاء الله أن يكون ، يخوضون في شأن (الإسراء والمعراج) فمنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن بالحكم فيما ليس له به علم . ولو أنهم وقفوا بالعقل عند حدوده ، وأبعدوه عما ليس من شأنه ، لما كان في الأمر لبس ولا إشكال . وصدق الله العظيم إذ يقول : (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (١٣) .

حقيقة النبوة

ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ، ثم نذكر حقيقة الكهانة ، ثم الرؤيا ، ثم شأن العرافين ، وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول :
اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لا تنقضى عجائبه في ذلك ولا تنتهى غاياته ، وابدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثاني ، وأولاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى السماء ، ثم إلى الهواء ، ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض ، وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً أو هابطاً ، ويستحيل بعض الأوقات ، والصاعد منها ألطف مما قبله إلى

(١٣) سورة آل عمران : ٦٦ .

أن ينتهى إلى عالم الأفلاك ، وهو أَلطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض ، على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط ، وبها يهتدى بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها ، وما بعد ذلك من وجود الذوات التى لها هذه الآثار فيها ، ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ، ثم النبات ، ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج ، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش وما لا بذرله ، وآخر أفق النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الخبز والصدف ، ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر ، والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذى اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل ، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا . ثم إنا نجد فى العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة ، ففى عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر ، وفى عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك ، تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبيناً للأجسام . فهو روحانى ويتصل بالمكونات لوجوب اتصال هذا العالم فى وجودها ، وذلك هو النفس المدركة والمحركة ، ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضاً ، ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعلقاً محضاً وهو عالم الملائكة ، فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ، ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات فى لحظة من اللحظات ، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ، ويكون لها اتصال بالأفق الذى بعدها شأن الموجودات المرتبة ، كما قدمناه فلها فى الاتصال جهتا العلو والسفل هى متصلة بالبدن من أسفل منها ،

ومكتسبة به المدارك الحسية التى تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلوية والغيبية ، فإن عالم الحوادث موجود فى تعقلاتهم من غير زمان ، وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم فى الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض . ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة فى البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس وقواها . أما الفاعلية فالبطش باليد ، والمشى بالرجل ، والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعا . وأما المدركة وإن كانت قوى الإدراك مرتبة ومرتقة إلى القوة العليا منها ، ومن الفكرة التى يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرهما يرتقى إلى الباطن ، وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة ولموسة وغيرها فى حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر لأن المحسوسات لا تزدهم عليها فى الوقت الواحد ، ثم يؤديه الحس المشترك فى الخيال وهى قوة تمثل الشئ المحسوس فى النفس ، كما هو مجرداً عن المواد الخارجة فقط ، وآلة هاتين القوتين فى تصرفهما البطن الأول من الدماغ مقدمة للأولى ومؤخرة للثانية ، ثم يرتقى الخيال إلى الواهمة والحافظة فالواهمة لإدراك المعانى المتعلقة بالشخصيات ، كعداوة زيد وصداقة عمرو ، ورحمة الأب وافتراس الذئب . والحافظة لإبداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة ، وهى لها كالحزانة تحفظها لوقت الحاجة إليها . وآلة هاتين القوتين فى تصرفهما البطن المؤخر من الدماغ ، أوله للأولى ومؤخره للأخرى ، ثم ترتقى جميعها إلى قوة الفكر وآلته البطن الأوسط من الدماغ ، وهى القوة التى يقع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل ، فتحرك النفس بها دائماً لما ركب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذى للبشرية ، وتخرج إلى الفعل فى تعقلها متشبهة بالملأ الأعلى الروحانى ،

وتصير في أول مراتب الروحانيات في إدراكها بغير الآلات الجسمانية . فهي متحركة دائماً ومتوجهة نحو ذلك ، وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانياتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب ، بل بما جعل الله فيها من الجلبة والفطرة الأولى في ذلك . والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني ، فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى ، نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة ، وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي متحصر نطاقه ، إذ هو من جهة مبدئه ينتهي إلى الأوليات ولا يتجاوزها ، وإن فسد فسد ما بعدها ، وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسmani وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم . وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية ، بما جعل فيه من الاستعداد لذلك ، فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري ، ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية ، وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها ، وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم الدنية والمعارف الربانية ، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ . وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانياتها وروحانياتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، ليصير في لحة من اللمحات ملكاً بالفعل ويحصل له شهود الملائكة في أفقهم ، وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة ، وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة ، وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها ، وجبله صورهم فيها ونزهمهم عن مواد البدن وعواقبه ما داموا ملاسين لها بالبشرية بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي

يحاذون بها تلك الوجهة ، وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها ، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا ، بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا بصناعة ، فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملاء الأعلى ما يتلقونه ، وعرجوا به على المدارك البشرية منزلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد ، فتارة يسمع دويّاً كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه ، فلا ينقض الدوى إلا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذي يلقى إليه فيكلمه ويعي ما يقوله ، والتلقى من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كله كأنه في لحظة واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنه ليس في زمان ، بل كلها تقع جميعاً . فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحياً لأن الوحي في اللغة الإسراع . (واعلم) أن الأولى وهي حالة الدوى هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه ، والثانية وهي حالة تمثّل الملك رجلاً يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي ، ﷺ ، الوحي لما سأله الحارث بن هشام ، وقال كيف يأتيك الوحي فقال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول وإنما كانت الأولى أشد ، لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر ، ولذلك لما عرج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه ، وعندما يتكرر الوحي ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال ، فعندما يعرج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها ، وهو إدراك البصر ، وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالي الوحي

فمثل الحالة الأولى بالدوى الذى هو فى المتعارف غير كلام ، وأخبر أن الفهم والوعى يتبعه غب انقضائه ، فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعى بالماضى المطابق للانقضاء والانقطاع ، ومثل الملك الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم ، والكلام يساوقه الوعى فناسب العبارة بالمضارع المقتضى للتجدد . واعلم أن فى حالة الوعى كلها صعوبة على الجملة وشدة فقد أشار إليها القرآن قال تعالى (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) وقالت عائشة كان مما يعانى من التنزيل شدة ، وقالت كان ينزل عليه الوعى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ، ولذلك كان يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف ، وسبب ذلك أن الوعى كما قرناه ، مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقى كلام النفس ، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر ، وهذا هو معنى الغط الذى عبر به فى مبدأ الوعى فى قوله فغطى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . وكذا ثانية ، وثالثة ، كما فى الحديث وقد يفضى الاعتياد بالتدرج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ، ولذلك كان تنزل القرآن وسوره وآيه منجماً حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة . وانظر إلى ما نقل فى نزول سورة براءة فى غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار للفصل فى وقت وينزل الباقي فى حين آخر . وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين ، وهى ما هى فى الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والفلق وأمثالها ، واعتبر من ذلك علامة تميزها بين المكى والمدنى من السور والآيات والله المرشد للصواب هذا محصل أمر النبوة .

الرؤيا

وأما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحّة من صور الواقعات فإنها عندما تكون روحانية ، تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل ، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها ، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية ، وقد يقع لها ذلك لمحّة بسبب النوم كما نذكر ، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلية وتعود به إلى مداركها ، فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير ، وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس أنها ذات روحانية مستكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ، ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره ، فهذا الاستعداد حاصل لها مادامت في البدن ، ومنه خاص كالذى للأولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا . وأما الذى للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التى هى أعلى الروحانيات ، ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي وهو عندما يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها مايقع من الإدراك شبيهاً بحال النوم شبيهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير . فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، وفي رواية ثلاثة وأربعون ، وفي رواية سبعون . وليس العدد في

جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين في بعض طرقة وهو للتكثير عند العرب . وما ذهب إليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر ، وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين ، فكلام بعيد من التحقيق ، لأنه إنما وقع ذلك للنبي ، ﷺ ، ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ، مع أن ذلك يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطرى لهم صلوات الله عليهم . إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عاماً في البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ، ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذى هو جبلهم ، فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه في عالم الحق ، فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ، ولذلك جعلها الشارع من الميسرات فقال لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له (وأما) سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك ، وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى ، وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما فى كتب التشريح (لجالينوس) وغيره ، وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق فيعطى الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل من برده وتتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخارى ، وهى متعلقة به لما اقتضته حكمة

التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ، ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية صار محلاً لآثار الذات المبينة له في جسمانيته ، وهى النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته ، وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر ، وهو بالحواس الخمس . وإدراك بالباطن ، وهو بالقوى الدماغية ، وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها ، من ذواتها الروحانية التى هى مستعدة له بالفطرة ، ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتفشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة ، وإنما يكون ذلك بانحناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه إلى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل ، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره إلى باطنه فتكون مشبعة مركها ، وهو الروح الحيواني إلى الباطن ، ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب إنما هو بالليل ، فإذا انحنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية ، وأكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً ، ثم ينزلها الحس المشترك الذى هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة ، وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإدراكها الروحاني ، لأنها مفطورة عليه وتقتبس من صور الأشياء التى صارت متعلقة فى ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقبة أو المحاكاة فى القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هى المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل فى صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هى

أضغاث أحلام (وفي الصحيح) أن النبي ﷺ ، قال : الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان . وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه . فالجلى من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل والشيطان ينوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا . وما يسببها ويشيعها من النوم وهى خواص النفس الإنسانية موجودة فى البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الإنسان رأى فى نومه ما صدر له فى يقظته مراراً غير واحدة ، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب فى النوم ولا بد وإذا جاز ذلك فى عالم النوم فلا يمتنع فى غيره من الأحوال لأن الذات المدركة واحدة ونواصها عامة فى كل حال ، والله الهادى إلى الحسنى بمنه وفضله .

رياضة المتصوفة

وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعربية عن هذه المقاصد المذمومة ، وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ، ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ، ويزيدون فى رياضتهم إلى الجمع والجوع . التغذية بالذكر فيها تتم وجهتهم فى هذه الرياضة ، لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله ، وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة ، إنما هو بالعرض ولا يكون مقصوداً من أول الأمر ، لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله ، وإنما هى لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفقة ، فإنها فى الحقيقة شرك قال بعضهم من أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى^(١) ، فهم

(١) أى قصد غير الله.

يقصدون بوجهتهم المعبود لا شيء سواه ، وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل
فبالعرض وغير مقصود لهم ، وكثير منهم يفرُّ منه إذا عرض له ولا يحفل به ،
وإنما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من
الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفاً ، وما يقع لهم من التصرف كرامة
وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم . وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذان
أبو إسحاق الأسفرائني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فراراً من التباس
المعجزة بغيرها ، والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدى فهو
كاف ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : إن فيكم محدثين ، وإن
منهم عمر ، وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول
عمر رضى الله عنه يا سارية الجبل ، وهو سارية من زعيم كان قائداً على بعض
جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورط مع المشركين في معترك ، وهم
بالانزعام ، وكان بقره جبل يتحيز إليه لرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر
بالمدينة فتداه يا سارية الجبل . وسمعه سارية وهو بمكانه ، ورأى شخصه هنالك
والقصة معروفة ، ووقع مثله أيضاً لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته رضى الله
عنها في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديثه ، ثم نهبها على جذاذه لتحوزه
عن الورثة ، فقال في سياق كلامه وإنما هما أخواك وأختاك ، فقالت : إنما هي
أسماء فن الأخرى ، فقال : إن ذا بطن بنت المارجة أراها جارية فكانت جارية
وقع في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل ، ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولبن
بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء ، إلا أن أهل التصوف يقولون إنه يقل في
زمن النبوة إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى أنهم يقولون إن المريد إذا
جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية
ويرشدنا إلى الحق .

بهايل المريدين

ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهايل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء ، وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق ، مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن المغيبات عجائب ، لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب ، وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم . والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط ، فإن الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها . وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين . وإنما فقد لهم العقل الذى يناط به التكليف ، وهى صفة خاصة للنفس ، وهى علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامته منزله ، وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامته منزله لم يبق له عذر فى قبول التكليف لإصلاح معاده ، وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ، ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجوداً لحقيقة معدوم العقل التكليفى الذى هو معرفة المعاش ، ولا استحالة فى ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكليف ، وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ، ويلتحقون بالبهايم ولك فى تمييزهم علامات منها : أن هؤلاء البهايل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها أصلاً من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف ، والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلاً . ومنها أنهم يخلقون حقيقة الإنسان

على البلة من أول نشأتهم ، والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية ، فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر ، لأنهم لا يتوقفون على إذن لعدم التكليف في حقهم ، والمجانين لا تصرف لهم والله المرشد للصواب .

السحر وتفسيره في تفاسير القرآن

وردت كلمة السحر في القرآن ستين مرة ويمكن لمن يريد حصرها الرجوع إلى معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد قزاد عبد الباقي مادة (سحر) . ويقول المفسرون لسورة البقرة إن اليهود عارضوا الرسول ﷺ : بالتوراة . فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت . وقدماً ألفت الشياطين إلى بني آدم أن ما فعله سليمان من ركوب البحر واستسخر الطير كان سحراً .

والسحر قيل أصله : التمويه بالحيل والتخايل وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعان ، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هي به ، كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب القطار المتحرك حقيقة حين يخيل إليه أن ما حوله من الأشجار والجبال تسير معه .

وقيل : إن أحداً له الاستالة وكل من استألك فقد سحرك . وقال الجوهري : السحر الأخذ . وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر .

والساحر . العالم ، وسحره أيضاً بمعنى خدعه . وقال ابن مسعود ، كنا نسمى السحر في الجاهلية العضة . والعضة عند العرب : شدة الهت وتمويه الكذب .

وفى (عيون المعاني) ذكر الفرنوى الحنفى : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل لها ، وعند الشافعى وسوسة وأمراض ، وقال : وعدنا أصله طلسم بينى عند تأثير خصائص الكواكب ، كتأثير الشمس فى زئبق عصى فرعون ، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا ما عسر ، وعند القرطبى أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء ، ثم من السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ، والشعوذى : البريد لخفة سيره . قال ابن فارس فى الجمل : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهى خفة فى اليدين وأخذة كالسحر ، ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ، ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

وقد سمي رسول الله ﷺ ، الفصاحة فى الكلام واللسانة فيه سحراً . فقال : « إن من البيان لسحرا » : أخرجه مالك ، وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى ليتوهم السامع أنه عين الحق ، أى أن الرجل يكون عليه الحق ، ولكنه الحق بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه . ومن السحر ما يكون كفراً من صاحبه مثل ما يدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم فى هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر فى ليلة والطيران فى الهواء . فكل من فعل ليوهم الناس أنه محق . فذلك كفر منه . قال القشيرى . قال أبو عمرو : من زعم أن الساحر يقلب الحيوان من صورة إلى صورة أو يقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها ، فهو كافر يدعى القدرة على الإتيان بمثل آياتهم ومعجزاتهم .

وذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة ، وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترأبادى من أصحاب الشافعى إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخيل وإيهام ، لكون الشيء على ما هو به وأنه ضرب من الخفة

والشعوذة كما قال تعالى : (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) ولم يقل تسعى على الحقيقة ولكن قال : يخيل إليه .

وقال أيضاً : (سحروا أعين الناس) وهذا لا حجة فيه ، لأننا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر ، لكن ثبت وراء ذلك أمور جاوزها العقل وورد بها السمع . فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس فدل على أن له حقيقة ، وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون : (وجاءوا بسحر عظيم) وما ذكرناه سابقاً من سحر لبيد بن الأعصم للرسول .

ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلم الناس فيه ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله . وروى سفيان عن أبي الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال : علم السحر في قرية من قرى مصر يقال لها (الفرقا) فمن كذب به فهو كافر ، مكذب لله ورسوله ، منكر لما علم مشاهدة وعياناً .

قال علماؤنا : لا ينكر أن يظهر السحر على يد الساحر خرق العادات ، بما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق بين المرء وزوجه ، وزوال عقل وتعويج عضو إلى غير ذلك . مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات البشر .. ولا يبعد في السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يدخل في الكوات والخوخات والانتصاب على رأس قصبه والجري على خيط مستدق والطيران في الهواء والمشى على الماء وركوب كلب وغير ذلك ، ومع ذلك فلا يكون موجباً لذلك ولا علة لوقوعه ولا سبباً مولداً ولا يكون الساحر مستقلاً به ، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر كما يخلق الشيع عند الأكل والرى عند شرب الماء .. ويجب أن نعلم مع ذلك أن الله لا يفعل معجزات

الأنبياء عند إرادة الساحر ذلك ، فلا يفلق البحر ، ولا يقلب العصا ، ولا يحيى الموتى ، ولا ينطق الأعمى . . فالذى يحدث من الساحر متميز عن المعجزة فالسحر يوجد من الساحر وغيره وقد يقع من جاعة يعرفونه ويأتون به في وقت واحد أما المعجزة فشرطها اقتران دعوى النبوة والتحدى بها .

واختلف الفقهاء في حكم المسلم والذمي فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يقتل .. ولا يستتاب ولا تقبل توبته . لأن الله سبحانه سمي السحر كفراً بقوله : (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر) ، وهو قول أحمد بن حنبل ، وأبي ثور ، وإسحاق ، والشافعي ، وأبي حنيفة .. وإن كان الكلام الذى سحر به ليس يكفر لم يجر قتله ، فإن كان أحدث في المسحور ، جناية توجب القصاص ، اقتصر منه إن كان عمداً ذلك وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك .. ونحن نؤكد أن دماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف .

وروى عن الشافعي : لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول تعمدت القتل ، وإن قال لم أتعمد لم يقتل وكانت فيه الدية كقتل الخطأ ، وإن أضر به أدب على قدر الضرر .

واحتج أصحاب مالك : بأنه لا تقبل توبته لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزندق ، واختلفوا هل يسأل الساحر حول السحر عن المسحور فأجازه سعيد بن المسيب على ما ذكره البخارى ، وكرهه الحسن البصرى . وقال الشافعي : لا بأس بالنشرة .. قال ابن بطال : وفي كتاب وهب ابن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضره بالماء ويقرأ عليه آية الكرسي ثم يحسونه ثلاث حسوات ويغتسل فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

حقيقة الإنسان -

وقد أنكر المعتزلة الشياطين والجن ولكن الشرع نص على ثبوته . وسورة الجن تقضى بذلك ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .. والسحر من استخراج الشياطين للطاقة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة في حال طمثن .

الكهانة^(١٤)

وأما الكهانة فهي أيضاً من خواص النفس الإنسانية ، وذلك أنه قد تقدم لنا في جميع ما مر أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها ، وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك ، وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور ، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر ، وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجوداً في الطبيعة البشرية ، فيعطى التقسيم العقلي أن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل ، لأن عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما ، فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزوع لذلك ، وهي ناقصة عنه بالجلبة ، فيكون لها بالجلبة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة ، كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام ، وما سنح من طير أو حيوان فيستديم

(١٤) مقدمة ابن خلدون .

ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ،
ويكون كالمشيع له وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة ،
ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها في
الجزئيات أكثر من الكليات ، ولذلك تكون الخيلة فيهم في غاية القوة لأنها آلة
الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاً تاماً في نوم أو يقظة ، وتكون عندها حاضرة عديدة
تجصرها الخيلة وتكون لها كالمراة تنظر فيها دائماً ، ولا يقوى الكاهن على الكمال
في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف
أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشغل به عن الحواس ويقوى
بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيهبس في قلبه عن تلك الحركة والذي يشيعها
من ذلك الأجنبي ما يقذفه على لسانه ، فربما صدق ووافق الحق وربما كذب
لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم ، فيعرض له
الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثقاً به ، وربما يفرغ إلى الظنون
والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه ، وتموهاً على السائلين ،
وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان ، لأنهم أرفع سائر
أصنافهم . وقد قال ﷺ في مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصاً
بهم بمقتضى الإضافة ، وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار
كيف يأتيك هذا الأمر ؟ قال : يأتيني صادقا وكاذبا . فقال خلط عليك الأمر ،
يعنى أن النبوة خاصتها الصدق ، فلا يعترها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات
النبي بالملا الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبي ، والكهانة لما احتاج صاحبها
بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة في إدراكه
والتبست بالإدراك الذي توجه إليه فصار مختلطاً بها وطرقه الكذب من هذه
الجهة فامتنع أن تكون نسوة وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى

السجع أخف من سائر المُعَيَّيات من المراثيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء ، (وقد زعم) بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن ، والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قرئناه أيضاً . فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك ، وأيضاً فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تحمد في زمن النبوة كما تحمد الكواكب والسرّج عند وجود الشمس لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفى معه كل نور ويذهب ، وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لا بدّ له من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه وهو معنى الكاهن على ما قرئناه ، فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً ، فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكماله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة ، فلا يوجد منها شيء بعد (وهديناه) على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيئاً لأنه يقتضي ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه ، ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق

النبي ودلالة معجزته ، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد ما للنائم ، ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبوة فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت فإنه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن صياد ولسليمة وغيرهم ، فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان ، كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب وكان لها في الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان .

العرافون (١٥)

ثم إنا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم ، يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها إنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطسّاس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادهما وعظامها ، وأهل الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالخصى والحبوب من الخنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة . ونحن الآن نتكلم على هذه الإدراكات كلها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة، في أن

(١٥) مقدمة ابن خلدون .

النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها، وذلك أنها ذات روحانية، موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات، كما ذكرناه قبل، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله ، وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل ، فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ، ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدرَكاتها المحسوسة عليها وما تترع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية . فتتعقل الصورة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالفعل فتم ذاتها وتبقى النفس كالهَيُولَى ، والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما ، وذلك لأن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتراع الكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية.. وإدراك بذاتها من غير واسطة، وهي محجوبة عنه بالانغاس في البدن والحواس وبشواغلها، لأن الحواس أبدأ جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر ، مثل الكهانة أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملاء الأعلى لما بين أفاقها وأفقهم من الاتصال في الوجود كما ذكرناه قبل ، وتلك الذوات روحانية وهي إدراك محض بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر ، فيتجلى فيها شيء من تلك الصورة تقتبس منها

علوماً وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما أدركت ، إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به ، هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه (فأمّا) الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالخصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان ، إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم ، لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها وأشرفها البصر فبعكف على المرئى البسيط حتى يبدو له مدركه الذى يخبر به عنه ، ربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو فى سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون فى سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب ، كأنه غمام يتمثل فيه صور هى مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفى أو إثبات ، فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه ، وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور ، فلا يدركونه فى تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك ، وهو نفسانى ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفسانى للحس كما هو معروف ، ومثل ذلك ما يعرض للناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين فى الماء والطساس وأمثال ذلك ، وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك ، ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة فى الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين والعالم أبوالغرائب ، وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سروح طائر أو حيوان والفكر فيه يعد مغيبة ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من

مرئى أو مسموع وتكون قوته الخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما كما تفعله القوة المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس تنوسط بين المحسوس المرئى في يقطته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا وأما المجانين فنفسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم غالبا وضعف الروح الحيوانى فيها فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحمها على التعلق به روحانية أخرى شيطانية تشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فإذا أصابه ذلك التخبط أما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حبه جملة فأدرك لحظة من عالم نفسه وانطبق فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير إرادة النطق وإدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال وإن فقدوا الحس إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه ومن ذلك يجرى الكذب في هذه المدارك . وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الأمور) وقد تكلم عليها المسعودى في مروج الذهب فما صادف تحقيقا ولا إصابة ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الإدراكات التى ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفتزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم وفى كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر منهم فى الجاهلية شق من أنمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان

وكان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال :
فقلت لعراف اليمامة داوئي فانك إن داويتني لطيب
وقال الآخر :

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما شفياني
فقالا شفاك الله والله مالنا • بما حملت منك الضلوع يدان
وعراف اليمامة هورباح بن عجلة وعراف نجد الأبلق الاسدي (ومن هذه
المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من
الكلام على الشيء الذي يتشوف إليه بتأعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد ولا يقع
ذلك إلا في مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم
كأنه مجبول على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين
عند مفارقة رعوسهم وأوساط أبدانهم كلام بمثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض
الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرفوا من كلامهم عند القتل
عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع وذكر مسلمة في كتاب الغاية
له في مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل في حدن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين
يوماً يغذى بالتبن والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق وشئون رأسه
فيخرج من ذلك الدهن ، فحين يحف عليه الهواء يحيب عن كل شيء يسأل عنه
من عواقب الأمور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة ، لكن
يفهم منه عجائب العالم الإنساني ، ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك
الغيبى بالرياضة ، فيحاولون بالمجاهدة موتاً صناعياً بإماتة جميع القوى البدنية ثم
محو آثارها التي تلونت بها النفس ، ثم تغذيتها بالذكر لترداد قوة في نشئها ويحصل
ذلك يجمع الفكر وكثرة الجوع ، ومن المعلوم على القطع أنه إذا نزل الموت
بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على ذاتها وعلمها فيحاولون ذلك

بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت مايقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات ، من هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً خصوصاً بلاد الهند ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والأخبار عنهم في ذلك غريبة .

المنجمون (١٦)

وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس ، فهم المنجمون القائلون بالدلالات النجمية ومقتضى أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ، ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء ، إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثيرات النجمية ، وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد من حدس يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس ، ونحن نبين بطلان ذلك في محله إن شاء الله ، وهو لو ثبت فغايبته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه في شيء ، ومن هؤلاء قوم من العامة اتخذوا استخراج الغيب وتعريف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم ، ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقاط أشكالاً ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيها ، فكانت ستة عشر شكلاً ، لأنها إن كانت أزواجاً كلها أو أفراداً كلها فشكلاً ، وإن كان الفرد فيها في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وإن كان الفرد في مرتبتين فستة أشكال وإن كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت

(١٦) مقدمة ابن خلدون .

ستة عشر شكلاً ، ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس شأن
 الكواكب ، وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعية بزعمهم ، وكأنها البروج الاثنا عشر
 التي للفلك والأوتاد الأربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً ودلالة على
 صنف من موجودات عالم العناصر يختص به ، واستنبطوا من ذلك فنّاً حاذوا به
 فن النجامة ونوع قضائه ، إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما
 زعم بطليموس ، وهذه إنما مستندة أوضاع تحكّية وأهواء اتفاقية ولا دليل
 يقوم على شيء منها ، ويزعمون أن أصل ذلك من النبأت القديمة في العالم ،
 وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها ،
 وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله ﷺ كان نبيا يخط فن وافق خطه
 فذاك ، وليس في الحديث كان نبي يخط فيأتيه الوحي عند ذلك الخط
 ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء فن وافق خطه ذلك النبي
 فهو ذاك أي فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذي
 كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجرداً من
 غير موافقة وحى فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم . فإذا أرادوا استخراج مغيب
 بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد
 المراتب الأربعة ، ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجىء ستة عشر سطراً ، ثم
 يطرحون النقط أزواجاً ويضعون ما بقي من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبة
 على الترتيب فتجىء أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة
 أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قبلها من الشكل الذي
 بإزائه وما يجتمع منهما من زوج أو فرد ، فتكون ثمانية أشكال موضوعة في
 سطر ، ثم يولدون من كل شكلين شكلاً تحتهما باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة
 من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتهما ، ثم يولدون

من الأربعة شكلين كذلك تحتها ، ثم من الشكلين شكلاً كذلك تحتها ، ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلاً يكون آخر الستة عشر ، ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعادة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكماً غريباً ، وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التأليف واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين والمتأخرين ، وهى كما رأيت تحكم وهوى ، والتحقيق الذى ينبغى أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح ، ولذلك يسمى المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهرين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم فى أصل مواليدهم على إدراك الغيب فالخط وغيره من هذه إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الأمور التى ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما ، فهو من باب الطرق بالخصى والنظر فى قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة ، كما ذكرناه ، وإن لم يكن كذلك وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيد ذلك فهذر من القول والعمل ، والله يهدى من يشاء ، والعلامة لهذه الفطرة التى فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبى أنهم عند توجيههم إلى تعرف الكائنات يعترهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتعطط ومبادئ الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب فى شيء وإنما هو ساع فى تنفيذ كذبه .

حساب الحروف وعلم اليازرجة^(١٧)

ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذى هو من مدارك النفس الروحانية ، ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذى يحاول عليه العرافون ، وإنما هى مغالط يجعلونها كالمصايد لأهل العقول المستضعفة ، ولست أذكر من ذلك إلا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص ، فن تلك القوانين الحساب الذى يسمونه حساب النيم وهو مذكور فى آخر كتاب السياسة المنسوب لأرسطو يعرف به الغالب من المغلوب فى المتحاربين من الملوك ، وهو أن تحسب الحروف التى فى اسم أحدهما بحساب الجمل المصطلح عليه فى حروف أبجد من الواحد إلى الألف آحاد أو عشرات ومئين وألوف ، فإذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فأحسب اسم الآخر كذلك ، ثم اطرّح كل واحد منها تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين ، فإن كان العددان مختلفين فى الكمية وكانا معاً زوجين أو فردين معاً ، فصاحب الأقل منهما هو الغالب وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً ، فصاحب الأكثر هو الغالب وإن كانا متساويين فى الكمية وهما معاً زوجان ، فالمطلوب هو الغالب وإن كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب .

ثم وضعوا لمعرفة ما بقى من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم فى طرح تسعة ، وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد فى المراتب

(١٧) مقدمة ابن خلدون .

الأربع فكان منها كلمة رباعية وهى أيقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين فى المراتب وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لأنها كانت آخر حروف أبجد ، فكان مجموع حروف الاثنين فى المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهى بكر ، ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك إلى آخر حروف أبجد ، وصارت تسع كلمات. نهاية عدد الآحاد وهى أيقش بكر جلس دمت هنت وصح زعد حفظ طصغ مرتبة على توالى الأعداد ، ولكل كلمة منها عددها الذى هى فى مرتبته ، فالواحد لكلمة أيقش ، والاثنان لكلمة بكر ، والثلاثة لكلمة جلس وكذلك إلى التاسعة التى هى طصغ ، فتكون لها التسعة ، فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه فى أى كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الأعداد التى يأخذونها بدلا من فروق الاسم ، فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فصل عنها وإلا أخذوه كما هو ، ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه ، والسر فى هذا القانون بين ، وذلك أن الباقى من كل عقد من عقود الأعداد يطرح تسعة إنما هو واحد ، فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة ، فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والألفين وكلها اثنان ، وكذلك الثلاثة والثلثمائة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة ، فوضعت الأعداد على التوالى دالة على أعداد العقود لا غير ، وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود فى كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والألوف^(١٨) وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائبا عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين ، فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التى فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه ، هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم ، وكان بعض من

(١٨) قوله والألوف فيه نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد على الألف كما سبق فى كلامه .

لقيناه من شيوينا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ، ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء ، وهي هذه : ارب يسقلك جزلط مدوص هف تحذن عش خغ ثضنط تسع كلمات على توالى العدد ولكل كلمة منها عددها الذى فى مرتبته فيها الثلاثى والرابعى والثنائى وليست جارية على أصل مطرد كما تراه ، لكن كان شيوينا ينقلونها عن شيخ المغرب فى هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس ابن البناء ، ويقولون عنه إن العمل بهذه الكلمات فى طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات ايقس اعلم كيف ذلك ، وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق ، والكتاب الذى وجد فيه حساب النيم غير معزو إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان ، يشهد لك بذلك تصفحه إن كنت من أهل الرسوخ اهـ ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة بزايرجة العالم المعزوة إلى أبي العباس سيدى أحمد السبتي من أعلام المتصوفة بالمغرب كان فى آخر المائة السادسة بمراكش ، ولعهد أبي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين ، هى غريبة العمل صناعة ، وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعملها المعروف الملقب ، فيحرضون بذلك على حل رمز وكشف غامضه وصورتها التى يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة فى داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم ، وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها ، أما البروج وأما العناصر أو غيرهما وخطوط كل قسم مارة إلى المراكز ويسمونها الأوتار ، وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة ، فنها برشوم^(١٩) الغبار المتعارفة فى داخل الزايرجة وبين الدوائر أسماء العلوم

--- (١٩) قوله برشوم أى موضوعة بضم الراء جمع رسم بالشين المعجمة اهـ .

ومواضع الأكوان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكرر البيوت المتقاطعة طولاً وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض ومائة واحد وثلاثين في الطول وجوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامرة من الخالية وحفا في الزايرجة أبيات من عروض الطويل على روى البلام المنصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرجة ، إلا إنها من قبيل الألغاز في عدم الوضوح والجلال ، وفي بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحداث بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء إشبيلية كان في الدولة اللمتونية ونص البيت .

سؤال عظيم الخلق حرت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلاً وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرجة .

الحسد

هل هو ظاهرة روحية ؟ وتفسيره في تفاسير

القرآن وكلمة العلم الحديث

وردت كلمة الحسد في القرآن خمس مرات حيث يقول تعالى :

(ومن شر حاسد إذا حسد) آية ٥ من سورة الفلق (حاسد - حسد)

(فسيقولون بل نحسدوننا) آية ١٥ من سورة الفتح .

(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) آية ٥٤ من سورة النساء .

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من

عند أنفسهم) آية ١٠٩ / البقرة

كان الرسول ﷺ يتعوذ بالمعوذتين ويحضر أصحابه قائلاً.. فما تعوذ متعوذ بمثلها. وروى النسائي عن عبد الله قال: أصابنا طش وظلمة.. فخرج رسول الله ﷺ ليصلي بنا فقال قل. فقلت ما أقول؟ قال: قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمشي وحين تصبح ثلاثاً يكفك كل شيء. وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها. (ينفث أى ينفخ ليس معه ريق).

وثبت في الصحيحين من حديث عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ سحره يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله، فكث كذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه، أتانى ملكان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال: (الذى عند رأسى للذى عند رجلى) ما شأن الرجل؟ قال مطبوب (مسحور) قال: ومن طبه؟ قال: لبيد ابن الأعصم قال: فيما ذا؟ قال فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر نحت راعوفة بئر ذى أروان، فجاء البئر واستخرجه. انتهى الصحيح.

ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر فأخرجوا الجف من البئر، فإذا مشاقة رأس إنسان وأسان من مشط وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالابر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد. وأمر أن يتعوذ بها، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد النبي ﷺ خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة، فكأنما أنشط من عقال وقام ليس به بأس، وجعل جبريل يرقى رسول الله ﷺ فيقول: باسم الله أرقيك من كل شيء

يؤذيك ومن شر حاسد وعين والله يشفيك . فقالوا : يا رسول الله ألا نقتل الخبيث . فقال ﷺ : أما أنا فقد شفى الله وأكره أن أثير على الناس شراً . والحسد هو تمنى زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها وأما المنافسة وهى الغبطة هى تمنى مثلها وإن لم تزل . فالحسد مذموم والغبطة مباحة . وروى أن النبی ﷺ قال : « المؤمن يغبط والمنافق يحسد » وقال ﷺ : « إذا حسدت فلا تبغ » والحسد أول ذنب عصي به الله فى السماء حين حسد إبليس آدم ، وأول ذنب عصي به الله فى الأرض حين حسد قاييل هابيل . والحاسد عدو نعمة الله . قال بعض الحكماء بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه .

أحدها : أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره .
 ثانيها : أنه ساخط لقسمة ربه كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟
 وثالثها : أنه ضاد فعل الله أى يخجل بفضل الله .
 ورابعها : أنه خذل أولياء الله بتمنيته زوال النعمة عنهم .
 وخامسها : أنه أعان بحسده عدوه إبليس .
 وروى أن النبي ﷺ قال : ثلاث لا يستجاب دعاؤهم : آكل الحرام ، ومكثر الغيبة ، ومن كان فى قلبه غل أو حسد للمسلمين .
 والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . قال الحسن : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد . وقال عبد الله بن مسعود : لا تعادوا نعم الله . قيل له : ومن يعادى نعم الله ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وجاء فى صحيح الحديث قول الرسول ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو

بنفقه في سبيل الله آناء الليل وآناء النهار».

ونود أن نشير هنا إلى بعض المعاصرين من أبناء هذا الجيل ، برغم ما سبق ذكره من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة ، الذين لا يؤمنون بالحسد اعتقاداً منهم أنه خرافة ، ولكن العلم الحديث قد أيد صحة ظاهرة الحسد . والروحية الحديثة^(٢٠) تؤكد أن الحاسد شخص يمتلك قوى غامضة في مكنته أن يستخدمها في الخير أو الشر على السواء ، وكلما كان استخدامه لها في الشر نمت لديه تلك القوى المدمرة وازداد أثرها . ومع ذلك فإن الحاسد سرعان ما يشيد حوله أسواراً من قواه الروحية بحيث يضعف من آثار النظر الشرير ، ويسر من شرها حتى دون علم من المحسود نفسه . شأنها في ذلك شأن كرات الدم الحمراء التي تنور إذا ما غزا الجسم بكتريا معدية فتهاجمها حتى تقضي عليها أو تهلك دونها . ويروي الرواة حالات كثيرة يرى فيها أثر الحاسدين واضحاً جلياً ولكن الملاحظ أن قوى الحسد الشريرة إذا أطلقت من عقلاها كثيراً ما تعود على الحاسدين أنفسهم كالقذائف ترتد إلى مطلقها .

ولقد خطب الدكتور ران بجامعة كورتل في مجمع تقدم العلوم الأمريكي بمدينة سيراكوز فقال : إنه قام بالتجارب العلمية الدقيقة فثبت له فيها أن العين البشرية إذا حددت في خلايا الحميرة فإن تلك الخلايا تتلف ، لأن أشعة خفية غير منظورة تنبعث منها وتؤثر في الخلايا كما تنبعث الأشعة فوق البنفسجية من بعض المصادر وتؤثر في النبات والإنسان والحيوان على وجه معلوم .

كما قام بعض علماء الغرب ببعض التجارب على نباتات تنمو في أوعية ، بحيث يخصصون إناء معيناً ليحظى بعطف خاص وتمنيات طيبة من صاحبها ،

(٢٠) من مقال بعنوان (العين والحسد بقلم الاستاذ حسن عبد الوهاب - مجلة الروح مارس سنة

على حين يهمل الآخر . فوجد أن الإناء الأول ازدهر نباته وأينع وذبل الثاني وذوى . ولأمر ما قاله رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وابن عباس « العين حق ولو كان شيئاً سابق القدر سبقته العين » .

كما روى الترمذى أنه عليه الصلاة والسلام كان يتعوذ من عين الإنسان ، ولذلك قال العلامة ابن حجر : إن العين نظر باستحسان مشوب بحسد خبيث الطبع يحصل للمنظور فيه ضرر . وقال غيره من علماء الإسلام : إن الحسد جواهر لطيفة غير مرئية تنبعث من العائن فتتصل بالمعيون وتتخلل مسام جسمه فيخلق البارئ الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عن شرب السموم .

وقد شرح ابن حجر هذه العملية بتوسع فقال : إن الله قد أجرى العادة بوجود كثير من القوى والخواص فى الأجسام والأرواح كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل ، فيرى فى وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك ، وكذا الأصفر عند رؤية من يخاف وكثير من الناس يسقم بمجرد النظر إليه وتضعف قواه ، وكل ذلك بواسطة ما يخلق الله تعالى فى الأرواح من التأثيرات ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلى العين وليست هى المؤثرة وإنما التأثير للروح . وربما بدت هذه الظاهرة واضحة فى صيد القط للفأر ولو كان فى مكان بعيد أصابه الشلل ووقف مكانه لا يبرح ويلعب به ، فيقذفه ويتلقفه بالأخرى دون أن يستطيع حراكا تحت تأثير مغناطيسية نظراته .

يقول ابن القيم إن العائن والحاسد يشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه ويتوجه نحوه من يريد إتياءه فتؤثر فى المعيون .

كما قال الشيخ الشعرافى فى الجواهر والدرر أنه سأل شيخه أو تقتل الهمة من غير إحساس ؟ فقال نعم يجمع صاحب الهمة همته ويحضر نفسه على من يريد تنفيذ همته فيه على وجه الحفارة به فيقتله من شدة ازدرائه للمقتول . بل لو جمع

همته على انتقال شيء من أجرام العالم والأرواح انتقل إليه كما أراد .
وقد أثبت علم « الراديستيرية » أن الأجسام السليمة ينبعث منها أشعة مستقيمة لا عوج فيها ، وأنه في حالة اعتلال الصحة تنقوس هذه الأشعة بحيث إذا جلس صحيح البدن بجوار المريض أثرت أشعة المريض المنقوسة على الأشعة المستقيمة للسليم بحيث تحنيها وتسبب له المرض ، ولذلك ينهى هذا العلم عن جلوس السليم بجوار المريض فترة طويلة ، كذلك مجالسة الفتى للمسن ، فإن الأشعة المنقوسة الصادرة من المسن تؤثر على أشعة الفتى المستقيمة ولعل في هذا التفسير معنى واضحاً للنهى عن زواج المسن بالفتاة الصغيرة أو المسنة بالشاب الصغير ، كما يبين أيضاً أسباب العدوى بالمرض أى انتقال المرض من المريض إلى السليم .

ولقد أصبح للأشعة الحيوانية أو المغناطيسية الحيوانية كما يسمونها نظريات ثبت صحتها ، وأصبح لذوى الخبرة باستعمالها أفعال تبعث على الدهشة إذ قد تعرض بعض علماء الغرب لهذه النظريات بتوسع وقالوا : إن بعض المعالجين في الشرق « الصوفيون المسلمون » يستطيعون أن ينقلوا الأمراض إلى غيرهم وهذا يبين مدى القوى الروحية التى يملكونها . وقال هؤلاء الباحث أن هؤلاء المعالجين عند رغبتهم فى أداء هذا العمل يفرغون عقولهم تفريراً تاماً ثم يركزونها على تصور آلام المريض ، بحيث تنتج ظروفاً مماثلة لما يشكو منه المريض نفسه ثم يسحبون المرض خلال الأشعة المنبعثة من جسم المريض حيث يوجهونها كيف شاءوا .

روى أحمد فى مسنده أن النبى ﷺ خرج ومعه نفر نحو ماء حتى إذا كانوا بشعب الحزار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف وكان أبيض حسن الجلد والجسم ، فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال : ما رأيت كالיום ، ولا جلد عذراء

فوعك سهل مكانه واشتد وعكه فأقى الرسول عليه السلام . فقال : هل تهمون به من أحد ؟ قالوا عامر بن ربيعة فدعاه وتيقظ عليه : وقال علام يقتل أحدكم أخاه هلا إذا رأيت ما يعجبك دعوت له بالبركة .
وقال القرطبي « لو أتلّف العائن شيئاً ضمنه ولو قتل فعليه الدية أو القصاص »

ونقل ابن بطل عن بعض أهل العلم أنه ينبغي للإمام منع العائن من مداخلة الناس وأن يلزم بيته ، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذى أمر عمر بمنعه من مخالطة الناس ومن الثوم الذى منع الشارع آكله من حضور الجماعة .

ونحن^(٢١) نعتقد بصحة كل ما جاء به القرآن وورد فى السنة ونترك العلم باجتهاداته ليؤكد صحة اعتقادنا به بعد ألف وأربعمائة عام من الاجتهاد الدءوب فى تفسير التنزيل الحكيم ، فإذا اتفق العلماء مع الدين أصابوا .. وإن أخطأوا فن قصور نظرياتهم .

التنويم^(٢٢)

لقد أعطى جيمس بريد اسم التنويم Hypnosis لعملية التنويم عام ١٨٤١ مع أنه سبق فى استعمال الطريقة وفى وصفها . ومنذ إعطاء التسمية قام الكثيرون باللجوء إلى فن التنويم لأغراض علاجية وتشخيصية ومسرحية ، على أن استعمالها فى الأوساط الطبية ظل محدوداً لا ينال إلا القليل من التشجيع بسبب ما اتصل

(٢١) المؤلفان .

(٢٢) النفس - د / على كمال - الدار الشرقية للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٧ - الطبعة الأولى .

باسم التنويم المغناطيسى من صفة سحرية ، وبسبب عدم التوصل إلى تفسير علمى لمظاهر عملية التنويم .

وفى السنوات الأخيرة أجازت الهيئات الطبية المختصة فى بريطانيا إمكانية استعمال التنويم للأغراض الطبية ، وأيدت فائدة التنويم فى تشخيص وعلاج بعض الحالات المرضية . على أن الأساس العلمى للتنويم من الناحية الفيزيولوجية العصبية ما زال بعيداً عن التقرير القاطع ، وكل ما نعلمه أن عملية التنويم تتم عن طريق الإيحاء المباشر ، يقوم به الشخص الذى يوحى على الشخص الذى يوحى إليه ، ويكون هذا الأخير قابلاً للتأثر بالإيحاء وفى ظروف ملائمة لعملية الإيحاء . ونتيجة هذا التأثير الإيحائى تحدث فى الشخص حالة من تصدع الوعى تشبه حالة البهران . وفى هذه الحالة ينحصر انتباه الشخص الخاضع للتنويم بالشخص الذى نومه ، ويطيع أوامره طاعة سلبية إلا فى الأمور التى تناقض مثله وضميره ، ويمكن بواسطة عملية التنويم إحداث حالات من النسيان والتذكر والشلل الحركى ، وفقدان الأحاسيس ، والنكوص أو الرجوع إلى مظاهر سلوكية وعاطفية وفكرية اتصف بها الفرد فى سنوات سابقة من حياته وطفولته .

العلاج النفسى بالإيحاء والتنويم

معظم الوسائل العلاجية من مادية وغير مادية تحمل تأثيراً إيحائياً نفسياً ، وهناك قابليات مختلفة لتقبل الإيحاء عند المرضى، بما فى ذلك التباين فى أسلوب الإيحاء المناسب للحالة المرضية الواحدة كما أن عملية الإيحاء بمحدوداتها وأساليبها المختلفة تعتمد على الجو الذى يحدث فيه الإيحاء كما تعتمد على شخصية الطبيب

الذى يقوم بهذه العملية الإيحاءية .
ولعملية التنويم فوائد متعددة فيما إذا طبقت بحذر وفي الحالات الملائمة
لتطبيقها ، وأكثر فوائد التنويم تأثيره في الحالات المرضية المستيرية ، كما تأكدت
فائدته في علاج بعض الأمراض النفسية الجسمية كمرض الربو .
وقد تستعمل مواد عقاقيرية لتغيير درجة وعى المريض ولتسهيل إظهار بعض
الذكريات غير الواعية أو لتشجيع المريض على البوح ببعض الأفكار أو
العواطف المزعجة ، والتي لا يستطيع الإفشاء بها بصراحة وحرية في الأحوال
الاعتيادية . ومن هذه العقاقير حقن في الدم أو بعض مواد كحولية مخدرة ، فإذا
تناولها المريض حدث ما يسمى بالتنفيس لما في نفسه من ضيق عاطفي مكبوت .

خاتمة الكتاب

ما هي الروح ؟ (٢٣)

شيء مبهم غامض ليس له حدود . وهذا الإبهام في طبيعة الروح والغموض الذي يحيط بها والعجز عن إدراك كنهها هو الذي أغرى الماديين في العصور الحديثة أن يهملوها إهمالاً ويسقطوها من الحساب .
إذ كل ما لا تراه الحواس - في نظرهم - غير موجود .. والروح لا ترى بالحواس فهي إذاً شيء ليس له وجود .

ولكن الدوس هكسلى يرد عليهم في هذا الأمر - برغم أنه لا يؤمن بالدين - فيذكرهم بحقيقة ينسونها وهم يجادلون : (إنه ليس لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزود بالقدره على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس . وإن جهلنا بالطريقة التي يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له .. فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التي تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر . من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة الإدراك ؟ أو التذكر ؟ وكذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف ولكنه ، برغم ذلك حقيقة علمية) .
إن الدوس هكسلى لا يسير معنا الطريق كله ولكنه يسير نصف الطريق، فهو يقرر أن هناك طاقة مجهولة في الإنسان يقدر بها على الاستشفاف ويقرر كذلك أن جهلنا لكنه هذه الطاقة لا يعنى أنها غير موجودة في الواقع .. فهي موجودة برغم هذا الجهل .. وهي حقيقة علمية .. وأهم من ذلك أنه يقرر أننا اعترفنا

(٢٣) منهج التربية الإسلامية - محمد قطب الطبعة الثانية - دار القلم .

من قبل بوجود طاقات بشرية أخرى برغم أننا نجهل كنهها تمام الجهل كعملية الإدراك وعملية التذكر .. وذلك نصف الطريق .. فهكسلى يقصر هذه القدرة على الاستشفاف ثم يقصرها على (بعض) الناس فقط ولا يجعلها طاقة (بشرية) أصيلة .

ولكن حين ينظر الإنسان إلى الاتجاه المادى الغارق فى المادبة الذى يسيطر على تفكير الغرب ومشاعره يجد أن هذا الاعتراف من رجل لا يؤمن بالعقيدة .. يعد فى الواقع تقدماً كبيراً نحو الفهم الصحيح للإنسان الفهم الذى قرره العقيدة منذ أقدم الأزمان ..

فالروح طاقة مجهولة .. مهمة .. غامضة .. محجوبة عن الإدراك .. ومع ذلك فهى حقيقة وإذا كنا نظن أن عملية الإدراك أو عملية التذكر عملية (محسوسة) ومن أجل ذلك نؤمن بوجودها الواقعى فنحن مخطئون فى هذا الظن فهى فى الحقيقة ليست محسوسة فى ذاتها وإنما نحن ندرك نتائجها .. ووضوح الإحساس بنتائجها هو الذى أغرانا بذلك الظن الخاطئ كما أنه هو الذى أدخل فى وهما أننا (نعرف) كيف يتم الإدراك وكيف يتم التذكر .. أما الحقيقة فهى أننا لا نعرف كنه هذه العملية ولا تلك ونكتفى منها بالنتائج التى تدركها الحواس .. ولو تدبرنا الأمر لوجدنا الطاقة الروحية كذلك .. إنها مجهولة فى كنهها مهمة غامضة محجوبة عن الإدراك ولكن نتائجها ليست مجهولة ولا محجوبة عن الإدراك ..

ونحن لو حاولنا أن نعرف عملية التذكر فلن نجد إلا لفظة واحدة نشرحها بها ، سنقول إنها عملية التذكر ولو حاولنا أن نعرف عملية الإدراك فلن نجد إلا اللفظة ذاتها أو ما يرادفها وسنقول إنها عملية الإدراك . ولكننا سنقول عن

الروح : إنها الطاقة التى يتصل بها الإنسان بالمجهول بالغيب المحجوب عن الحواس .

(الاستشفاف) عملية من عمليات الروح .

و (الحلم التنبؤى) عملية من عمليات الروح .

والتخاطر عن بعد (التليثائى) عملية من عمليات الروح . (كحادثة عمر الشهيرة مع سارية) ..

وهى كلها عمليات جليلة عظيمة باهرة معجزة .. يقف الإنسان حائراً أمامها مبهوراً من العجب والإعجاب ولكنها مع ذلك عمليات جانبية .. إنما الوظيفة الكبرى للروح هى الاتصال بالله . كيف يتم هذا الاتصال ؟ كيف يتم التليثائى والاستشفاف التنبؤى ؟ لا ندرى . كما أننا لا ندرى كيف يتم الإدراك والتذكر ولكنه يتم على أى حال .

الروح : تلك الطاقة المجهولة التى لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها .. هى وسيلتنا للاتصال بالله .. وهى مهتدية إلى الله بفطرتها .. إنها من روح الله التى أودعها قبضة الطين . (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) ومن ثم فهى بذاتها تهتدى إلى خالقها وتتصل به على طريقتهما .. (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) تهتدى إليه كما يهتدى كل شىء من خلق الله بعظمته دون كد ولا تعب ولا جهد فى الاهتداء .. (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) كل ما فى الأمر أن الله قد كرم هذا المخلوق البشرى : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) ومن آيات هذا التكرم أن جعل للإنسان قواداً واعياً : (وجعل لكم

السمع والأبصار والأفئدة) فجعل عملية الهدى عملية واعية يشترك فيها الفؤاد البصير ، فتفترق بذلك عن الطاعة التي يمارسها الجهاد والنبات والحيوان .

ومع ذلك فالإنسان يفضل .. يفضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض .. يفضل فلا يهتدى إلى الله ولا يصل بروحه إليه .. ولا يستمد منه .. ولا يلجأ إلى حماه ..

على أنه حتى حين يفضل « حين تتغيب روحه فلا تستطيع أن تشف .. حين يغشها ركام الشهوات فيحجب عنها النور .. حتى حينئذ تظل بقية من الفطرة - برغم ضلالها تتجه إلى خالقها .. كما تتجه العين الكليلة إلى الضوء .. لا تراه كله ولكنها لا تعمى عنه .. فيعبد الناس الله .. ويشركون به غيره من الكائنات (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .. (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله) أو يعبدون قوة - ما يزعمون أنها الله) ولكنهم فيما عدا الشذوذ الذى لا يجب له حساب - لا ينكرون وجود خالق لهذا الكون قوى مسيطر مريد .. ومهمة العقيدة هى مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها .. مهمتها أن تساعد الفطرة فى الاهتداء إلى الله .. الاهتداء الذى هو كامن فى كيانها ولو حجبها عنه الأمراض .. مهمتها أن تطلق الروح من إسارها .. لكى ترى الله .. والاسلام يعنى عناية خاصة بالروح ;

إنها فى نظره مركز الكيان البشرى ونقطة ارتكازه .. إنها القاعدة التى يستند إليها الكيان كله ويرابط عن طريقها .. إنها المهيمن الأكبر على حياة الإنسان .. إنها الموجه إلى النور .. يكفى أنها صلة الإنسان بالله .
فالحق أن الطاقة الروحية فى الإنسان هى أكبر طاقاته وأعظمها وأشدّها

اتصالاً بحقائق الوجود .

فطاقة الجسم : محدودة بكيانه المادى وبما تدركه الحواس .
وطاقة العقل : أكثر طلاقة ولكنها محدودة بما يعقل .. محدودة بالزمان
والمكان .. بالبدء والنهاية ومحكومة بالفناء .

ولكن طاقة الروح : وحدها - فى كيان الإنسان هى التى لا تعرف الحدود
والقيود - لا تعرف الزمان والمكان . لا تعرف البدء والنهاية .. لا تعرف الفناء ..
هى وحدها التى تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل . هى
وحدها التى تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان ..
كيف ؟ لا نعلم لكننا نحس .. نحس بإشراق الروح الصافية التى تشمل الحياة كلها
فى ومضة وتشمل الآباد والآماد ، .. نحس بسبحه الروح الطليقة التى تجوب
آفاق الكون وتتصل بكل حى فيه .. والكون كما يقول العلم كله حياة .. نحس
بتلك اللحظة الدقيقة العجيبة العظيمة الرائعة التى يرتعش فيها الكيان كله ونحس
فى أعماقه أنه يرى الله .

وكان طبيعياً إذن أن تهتم العقائد كلها بأمر الروح .. وكان طبيعياً أيضاً أن
يهتم الإسلام خاصة بهذه الطاقة .. وهو الذى جعل منهجه الاهتمام بالطاقات
البشرية كلها وإعطائها حقها من الرعاية والتوجيه .

وطريقة الإسلام فى تربية الروح هى أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله فى كل
لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور .

والإسلام فى واقعيته الكاملة التى تحسب حساب الضعف البشرى لا يكف
أبداً عن النفخ الدائم لإذكاء شعلة الروح ، لأن هذا هو الطريق الوحيد للرفعة
وموازنة ما يهبط بالنفس من أثقال .. والطريق كما أسلفنا هو عقد الصلة
الدائمة - عن طريق الروح - بين الله والإنسان حتى يصبح الإنسان جديراً

بعبوديته لله وحتى يكون من أصحاب النفوس المطمئنة .
(يأتينا النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى
عبادى وادخلى جنتى) .

« انتهى بحمد الله »
ويليه الكتاب الثالث
فى حقيقة النفس

رقم الإيداع	١٩٨٨ / ٢٥٧٧
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٤٣٣-٢

١ / ٨٧ / ٣٧٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.).

هذا الكتاب

في أجزاء ثلاثة ، جمع المؤلفان كل ما ورد عن قصة بدء الخلق من الكائنات الكلية قبل آدم ، وكيف وجد الإنسان في هذا العالم ، وما مراحل الخلق الأولى .

كما ناقشا نظرية دارون ، واقتصرنا بعدئذ على ما ورد في القرآن الكريم فيما يختص بذلك الإنسان وذريته وأساليب حياته المختلفة ، ورأى علماء الإسلام في هذه الأساليب .

والكتاب بهذا مدخل عصرى لبحث مسألة الإنسان المؤمن في حياتنا الحاضرة ، على ضوء من المبادئ الراسخة القويمة من المعتقدات ، وهو يفتح الطريق لمزيد من البحوث في هذا المجال .